Dr. Heba Yassin
د.هبة يس
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
لا تخافوا
ولا تحزنوا
الآن يُمكنك أن تودّع الخَوف والقَلق، وتنعَم بالحياة.
دار دَوّن

لا تخافوا ولا تحزنوا
(الآن يمكنك أن تودع الخوف والقلق، وتتنعم بالحياة)
هبة يس

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

كيف يرتاح البال؟

لسنواتٍ عديدة مضت كان شغلي الشاغل هو كيف يصل الإنسان إلى الراحة والسعادة؟، كيف يطمئن قلبه ويرتاح باله؟، كيف ينجو بنفسه من كل الضغوط والأمراض النفسية التي أصبحت تحيط بنا من جميع الاتجاهات..

لهذا درست علم النفس، وحاولت أن أجمع منه كل ما يساعدني ويساعد كل إنسان في الوصول إلى غايتنا المنشودة، وهي الراحة والسعادة والاطمئنان.

ثم درست علوم التنمية الذاتية، أو التنمية البشرية كما هو مشهور عنها، وبحثت وراء كل وسيلة وكل سبيل لذلك أيضًا، لكني وبعد كل ذلك وجدت أنه فعلًا وحقًّا وصِدقًا لا يمكن لأيٍّ من هذه العلوم أن يُؤتِي ثماره بغير أن يكون هناك أولًا وقبل أي شيء (علم الإنسان بربِّه وخالقه)، فجميعنا يعرف الآية الكريمة: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (سورة الرعد الآية 28)، ولكننا كنا نعتقد أن الذكر المقصود في الآية هو مجرد ذِكر الله باللسان فقط، أو حتى باللسان مع حضور القلب، وكنا نتعجب لماذا لا نطمئن ولا تهدأ قلوبنا بالرغم من أننا نذكره سبحانه وتعالى، تسبيحًا وتحميدًا وتهليلًا وتكبيرًا كما تقول الآية؟.. فجاءت الإجابة بعد أن فهمنا أن الذِّكر المقصود هنا هو عِلم العبد بربه، ومعرفته الحقيقية بمن يعبد، وإلى مَن يسجد، ولماذا إليه يتقرب؟.. هذا هو الذِّكر الذي يولد الطمأنينة، والسَّكِينة، بل والفرحة أيضًا، هذا هو العلم الذي به تطمئن القلوب بلا أي منازع، لهذا وقع اختياري على (أسماء الله الحسنى) في هذا الكتاب كوسيلة لعلاج كل ما اعترى قلوبنا من أمراض وآلام وهموم.

ولهذا أيضًا أنا أؤكد وأجزم أنه لا يمكن الفصل بين راحة الإنسان، وتنميته، وتحسين قلبه وجسده، وبين دينه، وتعلُّمه عن ربه، ومعرفته به، فكُل طرق السعادة، وسبل الراحة، ووسائل التقدم ستكون غير مكتملة دائمًا إذا نقصها العلم بالله، ولا سيما العلم عنه بأسمائه وصفاته.

• لماذا يجب أن أتعلم عن الله بأسمائه وصفاته؟

• لأن فساد القلب، وشتات العقل، ومرض النفس لا يأتون إلا من (الجهل، والغفلة، واتباع الهوى)، فالعلم عن الله حياة القلب، ونور العقل، ودواء النفس بكل معاني الكلمة، فمَن لا يعرفون الله هم أشقى الناس قلوبًا، ومَن يعرفونه هم أشفاهم وأهدأهم وأصفاهم قلوبًا وعقولًا ونفوسًا.. فكيف للإنسان أن يعيش راضيًا، هادئًا، مرتاحًا، مطمئنًا، بدون أن يعرف عن ربِّه ما يجعله يطمئن إليه، ويثق به، ودون أن يعرف أن له ركنًا شديدًا يأوي إليه، ويعتصم به عند الشدائد والكروب؟.. ولا شيء يجعل الإنسان يعي ويعرف كل هذا أكثر من أن يتعلم عن هذا الرب، ويفهم ويعرف ما معنى أسمائه الحسنى بالذات، لهذا كان الإيمان بالله هو الركن الأول من أركان الإيمان الستة - وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره- وكيف سيأتي هذا الإيمان بالله بدون عِلمٍ ومعرفة حقيقيين عنه سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته؟

• لترتفع الدرجات، وتتضاعف الأجور، ويزداد القُرب منه سبحانه وتعالى، فلنستمع إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام عن سيدنا أبو بكر الصديق: (ما سبقكم.. ما سبقكم أبو بكر بكثير صلاةٍ ولا صيام ولكنَّ بشيء وقر في قلبه)، أي إن ما جعل أبو بكر على ما هو عليه من مكانةٍ عند الله ورسوله ليس عمله، وإنما ما كان في قلبه من إيمان بالله، ويقين به، حُسن ظنٍّ فيه، وتوكل

عليه، وحُب له.. وكيف سيأتي أيٌّ من هذا دون أن يكون قد عرف ربه حق المعرفة، وعلم عنه حق العلم؟

• لأن العلم بالله وخاصة بأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، فشرف العلم من شرف المعلوم، وكلما زادت أهمية الموضوع الذي نتعلم عنه كلما زادت أهمية العلم نفسه.. فهل هناك ما هو أهم وأشرف من الله كموضوع لنتعلَّم عنه؟

• لأن العِلم بأسماء الله وصفاته يسد في نفس المؤمن كل الثغرات التي من الممكن أن يدخل إليه الشيطان منها، من شكوكٍ وظنونٍ وشُبهاتٍ وغيرهم، فغاية الشيطان أن يدخل الى القلب، يقلبه ويخربه ويضيعه، فتتبعه الجوارح، فتهون المعاصي، وتصعب الطاعات، فيصبح تدمير هذا الإنسان أمرًا في غاية السهولة واليُسر بعد ذلك، لكن عندما يعرف القلب عن الرب بأسمائه وصفاته سيغلق على الشيطان كل الأبواب التي يدخل إليه منها.

• لأنه جاء في القرآن (فاعلم، ولتعلموا، وليعلموا) أكثر من واحد وثلاثين مرة، دلالة على وجوب معرفة الناس بربهم وبخالقهم، فلنتدبر معًا الآية الكريمة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} (سورة الطلاق الآية 12)، أي أنه ما خلقت السماوات والأرض، إلا لتتعلم عن ربك يا أيها الإنسان!!، وأنك لم تخلق ولم تكن حياتك في هذه الدنيا من الأصل إلا لتعرف ربك، فتعبده وأنت مؤمن به موقن بقدرته وعظمته، فلتنتبه، ولتفكر، ولتسأل نفسك في كل حين لماذا خُلِقت ووُجِدت؟، فتتذكر أنك تعيش لهدفٍ ما وغرضٍ ما يجب أن تحققه، وهو أن تعرف ربَّك وتعبده، ولتستفيق قبل فوات الأوان وقبل أن تلهيك الدنيا وتشغلك فتأتي إليها وتذهب منها دون أن تحقق الهدف من مجيئك إليها من الأساس.

لهذا جاء في الحديث الشريف: (طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وإنَّ طالبَ العلمِ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ، حتى الحيتانُ في البحرِ)، فكثيرون هم من يعتقدون أن التعلم عن الله (رفاهية)، أو أنه أمر يحدث في أوقات الفراغ، أو عندما تأتي الفرصة.. وهو الأمر الذي خُلِقنا من أجله، بل وخلقت السماوات والأرض والحياة كلها له.

• لأن أول سؤال يُسأل عنه العبد في قبره هو (مَن ربك؟)، ولا أحد يظن أن الإجابة ستكون سهلة في هذا الوقت، إذا لم يكن هذا العبد قد عرف ربه حق المعرفة في حياته الدنيا من قبل، وأُكرِّر أنه لا شيء يعرف الإنسان عن ربه أكثر من تعلُّم أسمائه وصفاته.

• وأخيرًا لأنه لا يمكن لأي إنسانٍ أن يحب أحدًا أو شيئًا دون أن يعرفه، فكيف لنا أن ندّعي أننا نحب الله دون أن نعرف عنه ما يجعلنا نصدِّق أنه أهلٌ لهذا الحب حقًّا سبحانه وتعالى، ودون أن نفقه معاني أسمائه، ودون أن نفهم معنى أنه مؤمن وصمد ووكيل.. إلى آخره من أسمائه الحسنى؟.. وقد يتساءل البعض عن أهمية أن يحب أحدنا الله، أليس كافيًا أن يعبده؟، فما النفع الذي سيعود على العبد من حبِّه لربه؟، وما الفرق بينه وبين من يعبده دون أن يحبه؟.. والفرق كبيرٌ، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

ألا يوجد هناك مَن يتلذذ بالوقوف بين يدي الله قيامًا، ويستعذب الجوع والظمأ صيامًا، ويحب الإنفاق والعطاء تصدُّقًا، ويسعى لمساعدة الغير تطوُّعًا، وهناك من يؤدي الفروض بالكاد تأدية للواجب، وهو لا يطيق ولا يقوى عليها؟.. هذا هو الفرق.

ألا يوجد مَن هو ثابتٌ، صابرٌ، متحمِّلٌ، راضٍ مهما مرَّ بابتلاءاتٍ، ومهما اشتدت عليه الكروب، وهناك مَن هو ساخطٌ، حانق، ضيِّق الصدر، خائر القوى، ضعيف القلب، مدمَّر النفسية حتى ومع أبسط اختبارات الحياة؟.. هذا هو الفرق.

ألا يوجد من هم يدخلون قلوب الناس فورًا، فيحبونهم ويرتاحون إليهم، ويألفونهم سريعًا، وحتى دون أي جهدٍ منهم، ودون سابق معرفة، وهناك من هم دائمًا منبوذون ممن حولهم، منفِّرون لهم، بعيدون عنهم، وبدون سابق معرفة أيضًا؟.. هذا هو الفرق.

فمن يحب الله تهون عليه مشقة العبادة، بل ويحبها ويطلبها، ومَن يحب الله يوجد في قلبه اليقين الذي يقويه ويثبته عند كل مصيبة أو شدة، ومَن يحب الله يحببه الله ويحبِّب فيه خلقه، ليس فقط على الأرض، وبل وفي السماء أيضًا.

• أما آخرُ شيء أريد أن أتحدث عنه في المقدمة، وقبل أن نبدأ موضوعات الكتاب هو أن كل المعلومات الشرعية الموجودة بين دفتي هذا الكتاب سواء تفسير للآيات، أو شرح للأحاديث منقولة عن مصادرها المتعارف عليها، والموثوق بها، وأنها ليست من اجتهادي الشخصي أو تبعًا لرأيي، فأنا أفقر بكثير من أن أقوم بذلك، وإنما اقتصر دوري فقط على ترتيب وتنظيم تلك المعلومات على هيئة موضوعات ونقاط مترابطة، حتى يسهل الفهم، ونصل معًا إلى الهدف من هذا الكتاب وهو (راحة البال) والله الموفق والمستعان.

علاج القلق والتوتر..

باسم الله المؤمن

نحن الآن نعيش عصر (القلق والتوتر) بمنتهى الجدارة، فلم يعد هناك إنسانٌ يتنفس إلا وله مخاوفه وهواجسه وأسبابه التي تحرمه راحة البال وطمأنينة النفس، حتى أطفال هذا العصر أصبح لهم نصيبهم من هذه المخاوف بكل أسفٍ.. ولكن ألا يوجد مخرج؟.. ألا يمكن أن يكون لهذا العذاب نهاية؟، أم أن القلق أصبح وباء العصر المعدي الذي لا ينجو منه أحدٌ؟

بالطبع هناك مَخرج، وهناك ما يساعدنا لوضع حدٍّ لكل هذا، هناك اسم الله (المؤمن) الذي بذكرِه تطمئن القلوب.

• ودعونا في البداية نتعرف على أنواع المخاوف:

1) مخاوف حقيقية: عندما تكون هناك مشكلة حقيقية أو ظروف معينة أمر بها، أو مصدر قلق أو خوف موجود في حياتي بالفعل على أرض الواقع.

2) مخاوف خيالية: عندما يكون كل ما يقلقني هي أفكار تأتي إلى ذهني بدون سببٍ حقيقيٍّ، مثل أن أخاف الفقر، أخاف المرض، أخاف ألا أتزوج، أخاف أن يكون شريك حياتي شخصًا سيئًا، أخاف أن يهجرني أولادي بعد الكبر..

وفي الحالتين تصبح الفكرة مُلِحَّة، تتوارد على الذهن بشكلٍ مستمرٍّ، يصحو الإنسان ليجد نفسه في مواجهتها، وينام وهو يفكر فيها، حتى يصل إلى درجة يمِلّ من كثرة التفكير فيها ويثقل عليه الهم الذي تسببه له، لكن لا شيء يطمئنه أو يهدِّئ من مخاوفه.. لأننا لم نعرف الله باسمه (المؤمن) حق معرفته.

• ما معنى اسم الله (المؤمن)؟.. لاسم المؤمن معنيان:

الأول: من الأمان، أي إنه هو الذي (يؤمِّن) عباده من كل خوفٍ أو حُزنٍ، ليس في الدنيا فقط، وإنما في الآخرة أيضًا حيث المخاوف أكثر غموضًا وهولًا وشدة، وذلك بحسب قوله تعالى:

- {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} في سورة الأحقاف، الآية 13.

- و{يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} في سورة الزخرف، الآية 68.

- وفي سورة قريش، الآية 4 {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}.

- وفي سورة الأنعام، الآية 82 {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}.

لهذا عندما يجد الإنسان منَّا نفسه في حالة خوفٍ وذُعرٍ، وعندما يجد ضيقًا في صدره، وقلقًا وتوترًا يعصفان براحة باله، ليس له حينها إلا أن يتوجه بتفكيره وقلبه وعقله إلى مَن قال عن نفسه إنه هو من يؤمن عباده، إلى القادر على أن يخلق السَّكينة والطمأنينة في الصدور، إلى من يستطيع أن يمسح ويزيل الحزن والهم عن القلوب.

لكن ترى هل هناك مواصفات معينة لمن يؤمنهم الله؟، أو بمعنى آخر: هل يصلح اسم الله المؤمن مع كل الأشخاص؟ وفي كل المواقف؟

طالما أن الله سمَّى نفسه بالمؤمن فإذا هو يؤمِّن كل الناس، ويلبي دعوة كل خائف يدعوه بهذا الاسم، بشرط واحد فقط وهو أن يكون (مخلصًا) في دعوته تلك، أي أن يكون واثقًا تمام الثقة أنه لن يقدر على تأمينه وطمأنته سوى الله، أن يكون موقنًا بأنه {وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} (سورة الأنعام الآية 17)، أن يكون شاعرًا بصدق وبكل قلبه أنه لجأ إلى مَن لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

لهذا وحتى يمكنك الحصول على الراحة والأمن والطمأنينة حقًّا عندما تدعو الله باسمه (المؤمن)، يجب أن يكون حاضرًا في ذهنك دومًا عدة أمور:

أولًا: إنَّ ما ألمَّ بك وما حدث لك هو قدرك، الذي أراده الله لك، وأنه مَن فِعل الله الذي لا يعلم حكمته إلا هو.

ثانيًا: أنه لا كاشف لهذا الحزن، ولامفرجّ لهذا الهم إلا هو نفسه، بما شاء، وكيفما شاء ووقتما شاء.

وثالثًا: وبعدما تخرج من هذا الضيق، ألا تُنسب ذلك إلى نفسك، كأن تعتقد أنك خرجت من هذا المأزق بذكائك أو بشطارتك، أو بمعارفك وعلاقاتك، راجع نفسك دائمًا وتذكّر أنه وحده (المؤمن) الذي يسَّر لك الأسباب الظاهرية التي ساعدتك على هذا، لكنَّ السبب الحقيقي هو إرادته هو وتوفيقه هو.

أما المعنى الثاني لاسم (المؤمن) فهو من الصدق والايمان، أي أنه هو من يصدق عباده ما وعدهم، ويعطيهم ما ألزم نفسه به تجاههم، ولا يخالف أبدا أمرا قاله عن نفسه.

فمن آثار اسمه المؤمن ما نراه ونشعر به من طمأنينة وأمن عند المؤمنين المخلصين، فهم دائمًا يثقون في ربهم، وفي أنه لن يضيعهم، وأنه سبحانه وتعالى سينصرهم في الدنيا والآخرة؛ فمِن أين أتوا بهذا الوعد؟، قال تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} سورة غافر، الآية51.

ووعود الله لعباده في القرآن الكريم كثيرة، وجميلة، وكلها مُطَمئنة ومانحة للأمل والاستبشار - فعلى سبيل المثال لا الحصر- قوله تعالى:

- {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (سورة يوسف)، الآية 90، أي يا كل من تعبَ وعانى وواجه المشاق النفسية والجسدية من أجل أن يتقي الله، فتأكد تمام التأكد، وكن واثقًا كلَّ الثقة أن الله لن يضيعك، ولن يبخسك حقك، لأنه وعدك بذلك، والرب مؤمن يصدق عباده ما وعدهم.

كما يوجد نفس الوعد تقريبًا في قوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (سورة العنكبوت، الآية 69)، ولنا هنا وقفة بسيطة مع هذه الآية الكريمة، أنه قال تعالى لنهدينهم سبلنا وليس سبيلنا، أي من جاهد وتعب وواجه مشاق البعد عن المغريات قربةً إلى الله، سيفتح الله له طرقًا كثيرة وليس طريقًا واحدًا كما كان يعتقد، ومن حيث لا يدري ولا كان يحتسب.

- {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} (سورة إبراهيم، الآية 7)، أي يا كل مَن تتفكر وتتذكر نعم الله عليك، وتشكره عليها في السراء والضراء.. اطمئن لن تُحرَم هذه النعم، ولن تنقص أبدًا، بل على العكس ستزيد وتزيد، وسيبارك لك فيها، لأن الله وعدَكَ بذلك، والرب مؤمن يصدق عباده ما وعدهم.

- {ادعوني أستَجِبْ لَكُمْ} (سورة غافر، الآية 60)، و{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} (سورة النمل الآية 62)، أي: يا كل من أتعبه التمني وانتظار المراد، ويا كل من أنهكته

المصائب والابتلاءات، لا تخف، لا تقلق، فقط ضَع ماتريد في دعوة صادقة وأرسلها إلى الله، وهو سيجيبك، حتمًا سيجيبك، لأنه قال عن نفسه ذلك، ولأنه وعد بذلك، أبدًا لا تسمح للشك أن يساورك في أنك لن تُجَاب، لكن في الوقت الذي يراه الله الأنسب لك، وبالشكل الذي يعرف أنه الأفضل لك.

- {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} (سورة الأنفال، الآية 33)، وما أجمل هذا الوعد، فمَن منا لا يحتاجه؟، ومَن منا لن يطمئن ويرتاح قلبه عندما يوقن به؟، فكلنا مذنبون، خطَّاؤن، غافلون، خائفون من العذاب، لكننا ومع خوفنا هذا لا زال لدينا طوقُ نجاة، ألا وهو (الاستغفار).. الذي لا تقف أمامه أيُّ ذنوبٍ عندما يكون صادقًا، نابعًا من قلبٍ مُخلصٍ في التوبة.

- {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} (سورة البقرة، الآية 152)، مَن منا لا يحب أن يذكره الأشخاص المهمون ذوو الصفة والشأن في هذه الدنيا؟، ولكن كيف لنا الوصول إلى هؤلاء حتى يعرفونا ويذكرونا؟؟.. تخيل أنك تستطيع أن تجعل ربَّ السماوات والأرض، ملك الملوك أن يذكرك.. فقط اذكره، في نفسك أو على الملأ، قائمًا أو قاعدًا أو نائمًا، ليلًا أو نهارًا.. فقط اذكره سيذكرك، هكذا بمنتهى البساطة، وبمنتهى اليقين أيضًا.

- {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} (سورة الذاريات، الآية 22)، ولذلك عندما قيل لأحد الصالحين من أين تأكل، فقال مَن عرف خالقه لم يشك في رزقه، هذا وعدٌ من الوعود التي نحتاجها جدًّا هذه الأيام، فحقًّا عيب علينا أن نتعامل مع الله بالخوف والقلق، وهو مَن أخبرنا أن رزقنا موجودٌ عنده في السماء، لن يأخذه غيرنا، ولن يضل طريقه إلينا، ولن يقل أو ينقص مثقالَ ذرةٍ، ولن يستطيع أحدٌ أن يمنعه عنا.

حتى إنه لما سمع أعرابي الآية التالية لهذه الآية {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ} (سورة الذاريات الآية 23)، قال: سبحان الله مَن الذي أغضب الحليم حتى أقسم؟، أي من الذي يشك أن الله عز وجل سيرزقه؟، وشكَّك في وعد ربه حتى أقسم الله على ذلك؟!

بقي أن نلتفت إلى شيء مهم جدًّا قد يغيب عن الكثير منا، وهو أننا عندما يكون من طبعنا الخوف والقلق فإننا بذلك نكون قد وقعنا فريسة سهلة لوسواس (الحزن)، وأنا أقصد هنا تسميته "وسواس"؛ لأنه فعلًا كذلك، ولأن الحزن شيء يفرح الشيطان جدًّا عندما يصاب به الإنسان، ألا تصدِّق؟

لم يأتِ الحزن قطّ في القرآن إلا منهيًا عنه، كقوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (سورة آل عمران الآية 139)، أو منفيًّا كقوله: (فلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة الآية 62)، والسر في ذلك أنه لا شيء أكثر قتلًا وهدمًا وإضعافًا لِهِمّة وعزيمة الإنسان أقوى من الحزن والهم والكآبة، فهي تسلب أي إنسان مهما كان سليمًا ومعافى عافيتَه، وتفقده قلبه وروحه وعقله، فيصبح هو والجماد واحدًا، كلاهما لا يفعل شيئًا، وكلاهما مفعول به.

لهذا استعاذ منه الرسول عليه الصلاة والسلام، في الدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن) وقال عنه الإمام (ابن القيم): الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحَب إلى الشيطان من حزن المؤمن.

كما قال أيضًا -ابن القيم-: لا تفسد فرحتك بالقلق، ولا تفسد عقلك بالتشاؤم، ولا تفسد تفاؤل الآخرين بإحباطهم، ولا تفسد يومك بالنظر إلى الأمس.

ليس لهذا وفقط يفرح الشيطان لحزن الإنسان، وإنما لسبب آخر أكثر خبثًا، وهو أنه طالما كان الشخص حزينًا فلن يمكنه أبدًا تذكر نعم الله عليه مهما كثرت، ولن يلمس أي إيجابيات في حياته مهما بدت واضحة للآخرين، وبالتالي لن يحمد، ولن يشكر، وكلنا نعلم أن الحمد والشكر هما

وسيلتنا زيادة النعم وحفظها من الزوال، فيجد الشخص نفسه من سيئ إلى أسوأ، ويجد نفسه يتألم ويحزن بصدق عندما يفقد أشياء لم يكن يستشعر قيمتها وأهميتها إلا بعد أن زالت منه، لأنه لم يعِها ولم يقدِّرها ولم يوفِها حقها من الامتنان والشكر.

وأحب أن أنبهك إلى ملحوظة مهمة، وهي أن للشيطان وقتين أساسيين لا يفوتهما دون أن (ينكد عليك)، وهما فور استيقاظك وبمجرد أن تفتح عينيك صباحًا، وعند خلودك للنوم وقبل أن يغمض لك جفن، يظل يذكرك بكل ما هو بائس، وكل ما هو ناقص، وكل ما هو مُقلِق ومحزن، لتجد نفسك غير قادر على النهوض من سريرك وبدء يوم جديد مليء بالعمل والإنتاج، أو لكي يحرمك النوم، وتقضي ليلتك ساهرًا مؤرَّقًا تجتر الهموم والأحزان، فلا يمكنك القيام بهمة في اليوم التالي، حتى علماء النفس لاحَظوا هذا الشيء، لهذا كانت نصيحتهم فكر دائمًا في أشياء إيجابية فور استيقاظك من النوم، وقبل خلودك إليه مباشرة.

• كان هذا فيما يخص مخاوف الدنيا، لكن بعيدًا عن كل هذا، والأهم منه.. ترى ماذا نفعل حتى نكون ممن يؤمِّنهم الله يوم القيامة؟، يوم الخلود؟، يوم الحياة الحقيقية اللا نهائية؟

هناك الكثير من الأشيَاء التي إذا فعلناها كنا ممن يضمنون أمان الله في هذا اليوم، منها مثلًا:

- حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

(سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكرَ الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلَّق في المسجد، ورجلان تحَابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه)([1]).

فمن هذا الحديث أشياء سهلة يمكن لأيٍّ منَّا فعلها، فيمكنك أن تختلي بنفسك ولو كل فترة لتدعو الله من قلبك، لتجد عيناك تفيض بشكلٍ تلقائيٍّ كلما شعرت صدق ما تقول. ويمكنك أن تحب أشخاصًا لا لشيء إلا لأنهم صالحون وسيقربونك من الله، كما يمكنك أن تتعمد أن تتصدَّق ولو على فترات ولو بالقليل في السر، ودون أن يعرف أحدٌ عن هذا شيئًا.

- كذلك قضاء حوائج المسلمين والتنفيس عنهم يشفع للعبد يوم القيامة، وهو فعلٌ يغفل عنه الكثير من الناس، مع أنه من أوسع الأبواب، ففي الحديث الشريف:

(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة) ([2]) .

- الحديث الشريف:

(إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه).([3])

أي كلما استطعت أن تكون سببًا لأي خير فلتفعل، واحرص على أن تكون دومًا كذلك، وكلما استطعت أن تمنع أيَّ شرٍّ فلتفعل، ولتجاهد لتظلّ على ذلك.

- أيضًا من الأسباب التي تجعلك في أمان الله في الدنيا والآخرة إطعام الطعام، من أين لنا بهذا الكلام؟: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ

جَزَاء وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا{11} وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} سورة الإنسان.

فقد يكون جمعك لأهلك أو أصحابك أو جيرانك على أي طعامٍ مِن الآن فصاعدا بهذه النية، فلا يشترط أن يكون من تطعمه فقيرًا، فما بالك لو كان فقيرًا محتاجًا لا يجد قوتَ يومه فعلًا، وكنت أنت سببًا في إسكات جوعه وإدخال الفرحة عليه؟

وأخيرًا.. لم يسمِّ الله نفسه بـ (المؤمن) إلا ليعرف كل خائف أن له من يؤمنه ويطمئنه ويلجأ إليه كلما انفردت به المخاوف، وكلما حرمَهُ القلق النوم.

علاج القلق والخوف..

اسم الوكيل والكفيل

لا زلنا نتحدث عن مرض العصر، لا زلنا نبحث عن حلٍّ لكل ما نعانيه من قلقٍ وتوتُّرٍ ومخاوف لا تنتهي.. ألا تأتي علينا لحظات نشعر فيها بأننا بمفردنا في هذه الدنيا؟، لا أحد يعرف ما بِنا من أثقال وأعباء ومسئوليات، لا أحدَ يشعر كم نحن خائفين من الغد، لا أحد يفهم كم نحن في حاجة إلى العون والمساعدة، وإلى بعض الراحة والطمأنينة.

ألا يتمنى كُلٌّ مِنّا حينها أن يجد مَن يقول له اطمئن.. لا تقلق.. أنا معك، أحمل عنك، وأدبر لك، وأهيء لك الأمور؟، ألا يحلم كل منا وقتها بمن يمسح على رأسه ويخبره بأنه ليس وحده، وأن هناك من يشعر به ويفهم حاله وما عليه من ضغوط؟، كم سيكون جميلًا ومريحًا ومُطَمئنًا أن نجد من يخبرنا بهذا.. أليس كذلك؟

ولكن هذا الأمر ليس بحلم أو أمنية بعيدة المنال، لأنه موجود بالفعل، لقد سمى الله نفسه بـ (الوكيل) و (الكفيل) ليخبرنا بهذا المعنى، وليعطينا الشعور بالأمان والثقة عندما يعصف بنا القلق، وتتقاذفنا الأفكار والمخاوف.

• ما معنى اسم الله (الكفيل)؟.. أي إنه هو القائم بأمور الخلائق، المتكفل بأقواتهم وأرزاقهم.

وماذا يعني اسم الله (الوكيل)؟.. أي المتصرف بشئون عباده، المدبِّر لهم، القائم عليهم، الذي يعطيهم ويمنعهم وِفق عدله وحكمته..

ومن معاني اسم الله الوكيل أنه (الكافي) لعباده وخلائقه، ولنا أن نعرف أن الكفاية نوعان:

1) كفاية عامة: وهي لجميع مخلوقاته، بأن أوجدها، وأعدها لما خلقت من أجله، وأمدها وهيأ لها الأسباب التي تمكِّنها من العيش والبقاء، ودبَّر لها أقواتها وأرزاقها.

2) كفاية خاصة: وهي كفاية لعباده الذين يتخذونه وكيلًا، أي من يتوكلون عليه، كما في الآية الكريمة {ومَن يتوكَّل على اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} (سورة الطلاق الآية 3)، وفي الآية (أليس الله بكافٍ عبدَهُ) (سورة الزمر الآية 36)، ففي الكفاية الخاصة يكفي الله عبده الصادق في التوكل عليه أمور دنياه، بأن يهديه وييسر عليه، ويكفيه الهم والغم، ويسدده ويوفقه، ويدبر له رزقه وما يحتاج إليه في يُسرٍ وبساطة، والأهم من ذلك أنه يكفيه أيضًا أمورَ دينه، فيتولاه ليقرِّبه إليه، ويربيه، ويجعله من خاصته ومن عباده المصطفين.

• ماذا يعني أن أتوكل على الله؟: التوكل هو (صدق اعتماد القلب على الله)

أي أن أصدق من كل قلبي، وأن يسيطر على مشاعري أنه عندما أعتمد عليه وألجأ إليه وأستعين به، عند الشدائد، وفي أوقات الضعف والضيق، وفي الأمور الكبيرة العظيمة، وفي المهمات الثقيلة، لن يخذلني أبدًا، ولن يخيِّب أملي وظني فيه، وسيحمل عني ما لا أطيق، وييسر لي ما يصعب عليَّ، ويرشدني إلى ما لا أعرفه.

فهو من سمَّى نفسه الوكيل والكفيل، وهو مَن قال عن نفسه إنه عند ظن عبده به، وهو مَن وعدَ بأن من توكل عليه فهو حسبه.

• متى أستعين باسم الله الكفيل والوكيل؟

1) عند اتخاذ القرار بفعل أمرٍ معيَّن وأنا اراه صعب، أو عظيم، أو ثقيل، كالقيام بمهمة كبيرة، أو قضاء دَينٍ كبير، أو الوفاء بوعد متعب، فما إن أُشهِد الله على ما أريده ذلك وأستعين به وهو الوكيل الكفيل، إلا ويتكفلني، وييسر لي الأمر، ويرزقني أسبابَ الإعانة من حيث لا أحتسب.
2) عند القيام بحقوق أو واجبات أو مهمات كثيرة، وقد تكون متعارِضة مع بعضها البعض أحيانًا، فأغلبنا يجد نفسه مضطرًا للعمل كثيرًا هذه الأيام لتوفير الحياة الكريمة، ومع ذلك عليه الاهتمام بأسرته زوجًا أو زوجة وأبناء، وكل على حدة، وقد يكون هناك واجبٌ نحو أحد الأبوين أو كليهما، بالإضافة إلى أعمال المنزل بالنسبة للسيدات، من نظافة وترتيب وطعام وغيره، أضف إلى كل هذا أنه يحتاج إلى وقت لتقوية علاقته مع ربه، وللاقتراب منه حتى لا يغفل ويضيع، ويؤخذ في دوامة الحياة، وقد يحتاج إلى وقتٍ لتنمية نفسه سواء شخصيًّا أو مهنيًّا، وفوق كل هذا لا بُدَّ من تأدية حقِّ نفسِه عليه من الترفيه والراحة.. كيف لنا أن نفعل كل هذا بدون الاستعانة بالله؟
فنحن تمامًا كمن يسير حاملًا كوبين من الماء في يديه، وآخَر فوق رأسه، وآخر في فمه، طوال الوقت نوزع انتباهنا من هذا فيسقط هذا، كيف لنا أن نتوازن وننجح في الاستمرار إلا اذا كان هناك من يتولانا ويتكفل بنا ويدبر لنا دقائق أمورنا؟، فلا شك أننا إذا اعتمدنا على مهارتنا و(شطارتنا) وكفاءتنا فقط سيسقط شيءٌ ما، هذا إن لم يسقط كل شيء.
3) عندما أواجه هموما لا حيلة لي فيها، ولا أعرف كيف السبيل إلى الخروج منها، هنا أحول كل همي وضعفي وقلة حيلتي إلى الله، فأدعوه باسمه الوكيل ليحمل عني ما لا أطيق، ويدبرني في مصيبتي هذه.
4) عند التعامل مع أشخاص صعبة أو متعبة، كأن يكون أحد والديّ، أو أحد أبنائي، أو زوجي أو زوجتي، أو أخ لي، أو شخص يتحكم في أمري في العمل، أو أي شخص آخر أضطر إلى التعامل المستمر معه، لكنه شخص صعب التعامل معه، غير متوافق معي، ولا حيلة لي في تغيير طبعه أو حاله، كذلك لا أقوى على التفاهم معه أو إرضائه.
5) عند الخوف من ظلم أو أذى أو عدوان من هو ذو سلطة أو جبروت، حينها لا يوجد حل إلا بتفويض الأمر إلى الله، الذي خلقه، والقادر عليه، أن يدفع ضرره ويكف شره.
6) عندما الخوف من أشياء مستقبلية، كالخوف من مرض معين لأنه وراثي ولأنه منتشر في العائلة، أو الخوف من الفقر لعدم توفر عمل ثابت، أو الخوف من الوحدة لتأخر الزواج ولصعوبته في هذه الأيام، أو حتى بعد زواج الأبناء، أو أو أو... فنحن مخاوفنا لا تنتهي، لأنها من وسوسة الشيطان، الذي من وظائفه الأساسية تحزين الإنسان وتحويل حياته إلى سلسلة من المخاوف والقلق، كما في الآية : (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) المجادلة 10، فلننتبه إلى آخر الآية التي أرشدنا الله فيها بالتوكل عليه إذا حدث وتعرَّض لنا الشيطان بهواجسه ووساوسه التي لا تنتهي.
7) عند القلق من عدم تحقق أحلامنا أوحدوث ما نتمناه ونسعى إليه، فنحن نعتقد أن القلق أمرٌ طبيعي، بل وظاهرة صحية أحيانًا، لكن الحقيقة أن القلق ليس إلا قِلَّة ثقة في الله، فإذا كنت صدقت التوكل عليه، واللجوء إليه، وطلب الكفالة منه لا يجوز للإنسان أن يسمح للقلق بأن يلعب به ويعصف بحياته..
فمثلًا إذا كان لي قضية ما، وسمعت بمحامٍ شهير جدًّا وماهر في هذا النوع من القضايا، فذهبت إليه، وقمت بعمل (توكيل) له في هذه القضية، هل سيسمح لي هذا المحامي بالاتصال به كل ساعة

أو كل يوم حتى لأطمئن على أنه يعمل في قضيتي؟، ألن يعتبر ذلك إهانة له؟، وقلة ثقة فيه؟، وجهل بإمكانياته؟، وربما ألقى بالقضية كلها في وجهي لأني لا أقدر كفاءته وأشك في قدراته؟ فلماذا نفعل المثل مع الله؟، لو كان لي حاجة وصدقت التوكل على الله في تحقيقها، ثم قمت بدوري في السعي والأخذ بالأسباب المتاحة، فلا يجب أن أدع أيَّ مجالٍ للقلق أو للشك، فلا بُدَّ وأن أتيقن أنها ستحدث وتتحقق في أحسن صورة ممكنة لو كان فيها الخير والمصلحة لي.

• كيف أتوكل على الله حق التوكل؟

1) الاعتماد الصادق على الله وحده في جلب النفع ودفع الضر، فكما يقال (السيف بقوة ضاربه)، فلو فرضنا أن شخصًا قويًّا أمسك سيفًا بقوة وضرب به، هل ستكون النتيجة مثل لو أن شخصًا معاقًا ضرب بنفس السيف؟، بالتأكيد لا، هكذا تمامًا يحدث مع الإنسان في الدعاء باسم الله الوكيل - أو بأي اسم طبعًا- إذا كان مُخلِصًا، صادقًا، قوي الإيمان، أو لا، الاسم هو هو، وربما تكون الدعوة هي هي، لكن الفيصل هو قوة قلب الداعي، وصدق إحساسه بربه الذي يناجيه.

2) فعل كل ما يمكن فعله، والأخذ بكل الأسباب المتاحة دون أي تكاسُل أو تخاذل، كما في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز).

3) التحلي بالرضا، ويقول العلماء إن (الرضا هو يقين العبد بأن اختيار الله هو الأفضل له).

وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فمن اعتمَد قلبه على الله، ووثق فيه، وأحسَن الظن به، جعل الله جزاءه أن يكفيه أمور دنياه وآخرته، فلنلاحظ قوله في آية سورة الطلاق السابقة أنه قال تعالى إن جزاء من يتوكل على الله (فهو حسبه)، ولم يقل جزاءه كذا أو كذا، لأن حسبه تعني أنه كافيه كل شيء وبغير عد أو حساب.

• نتيجة التوكل على الله:

كيف تعرف أنك نجحت في التوكل على الله؟..كيف تتأكد من أنك أصبحت ممن يتكفل بهم ويكفيهم بكفايته الخاصة؟.. عندما يراك من حولك دائمًا وكأنك (من كوكب آخر)، تكون مطمئنًا وقتما يفزع الآخرون، ومستبشرًا حينما يشتد الظلام، ومتفائلًا منتظرًا للفرج عندما تستحكم المشاكل، وصابرًا صامدًا ثابتًا وقت الشدائد والمصائب والابتلاءات، فهذه هي نتيجة التوكل الحق.. بردًا وسلامًا عل القلوب والأبدان.

وقد حدث ذلك سابقًا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، أثناء غزوة الخندق، عندما كان المؤمنون يعانون الفقر الشديد، والجوع القاتل، ومع ذلك ثابتون، مطمئنون، واثقون في النصر، ومصدِّقون لوعد النبي لهم بأنهم سيحصلون على كنوز كسرى، فلما وجدهم المنافقون على هذا الحال شكوا في أنهم مغيبون، وأن دينهم الجديد - الإسلام- قد غرَّهم وأخلَّ بوعيهم وإدراكهم، كما في الآية: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(سورة الأنفال الآية 49)، ولكنهم لم يكونوا مختلين أو مخدوعين، كانوا متوكلين على الله حق التوكل.. فقط.

لهذا فإننا نجد أصح الناس قلوبًا وأجسادًا هم من يعرفون كيف يتوكلون على الله بصدقٍ، وأشدهم علة ومرضا وشقاء هم من لا يعرفون لذلك سبيلًا.

• قيل عن التوكل على الله

- يقول العلماء: مَن اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه، أي إن الذي كان كل همه أن يُرضِي الله، وكان هدفُه كيف يرضي ربه، كفاه الله مؤونة نفسه، أي دبَّر له أمره، وحمل عنه

التفكير في شئونه وتدبيرها وترتيبها..
ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، أي وفَّقَه إلى طريقة التعامل معهم، وكسب قلوبهم، وكفاه شرهم وسوء أخلاقهم، وأغناه عنهم ولم يحوجه أو يذله لأي منهم..
ومن اشتغل بنفسه عن الله وكَّله الله إلى نفسه، أي أن الذي يعتمد على قدراته وذكائه، أوعلى علمه وخبرته، أو على مهارته وتميزه عن غيره، أولًا وأخيرًا دون اللجوء إلى الله، وبدون الشعور بالحاجة إلى عونه وتوفيقه، وكَّله الله الى نفسه أي صرفه الله عز وجل إلى نفسه، ألست قادرًا وماهرا وكفؤا؟، ألا تعرف كيف تصل إلى ما تريد؟.. فلتصل إليه وحدك، ولترى عجزك بعينيك حتى ومع امتلاكك لكل الأسباب طالما شعرت بالاستغناء عن الله الذي هو من منحك كل هذه الأسباب في الأصل..
ومن اشتغل بالناس عن الله، وكَّله الله إلى نفسه، كأن يعتمد الإنسان على حسبه ونسبه، أو على علاقاته ومعارفه، أو على من يعرفهم مِن ذوي المناصب والقدرات، فيركن إليهم، ويطمئن إلى وجودهم من دون الله، فيذل نفسه لهم، وينفرهم منه بإلحاحه عليهم، فإما يساعدونه أو يفاجئونه بتخليهم عنه، أو ربما يفاجئونه أكثر بعجزهم عن مساعدته أو نفعه حتى ومع رغبتهم في ذلك.
وهناك مثال جميل يضرب هنا لتوضيح هذا الموقف.. إذا كنت تريد عبور بوابة قصر الملك، فلا بد لك من تصريح دخول، تطلبه من الملك الذي إن وافق أعطاه لك، لتعطيه لحارس القصر فيفتح لك، فهل لحارس البوابة فضل في ذلك؟، بالطبع لا، فالأمر أساسًا أمرُ الملك، وليس الحارس إلا منفذ لهذا الأمر.. أليس كذلك؟، لكننا وللأسف وفي حياتنا الواقعية ننسى هذه الحقيقة، ونُنسِب الفضل إلى حارس البوابة، فنتوجه إليه بالطلب، ونلح عليه، ونتذلل إليه، فما يكون منه إلا أن يذلنا أمامه ليشعر بعلوه علينا، أو يخذلنا بقوله إنه ليس بيده شيء، وأنه عاجز عن فتح الباب لمن يشاء هو بدون إذن الملك.
ولمزيد من التوضيح.. قد يمر أحدنا بضائقة مادية مثلًا، فيدعو الله أن يرزقه من يساعده ويعينه على ما هو فيه، فيسخِّر له الله من يقف بجانبه ويساعده ويكون سببًا في الفرج عليه، ثم تمر الأيام وقد يتكرر الموقف، ليجد الإنسان نفسه متوجهًا مباشرة وبشكل تلقائي إلى مَن ساعده في المرة الأولى، دون الاستعانة بالله، فلا حاجة لذلك هذه المرة طالما أني عرفت الطريق، فإذا به يفاجئ بصد هذا الشخص له، أو تهربه منه، أو حتى بعدم قدرته على المساعده هذه المرة.
- ومن أمثلة حُسن الظن بالله، والتوكل الصادق عليه، قول ابن عباس: (لو انطبقت السماوات على الأرض، لجعل الله أبوابًا للمتقين يخرجون منها).
- كان أهل الخير إذا التقوا يوصي بعضهم بعضًا بثلاث، وإذا غابوا كتب بعضهم إلى بعض بثلاث:
-1 مَن عمل لآخرته كفاه الله دنياه.
-2 ومَن أصلح بينه وبين الله كفاه الله الناس.
-3 ومَن أصلح سريرته أصلح الله علانيته.
• معوقات الانتفاع باسم الله الوكيل والكفيل
1) استبطاء الإنسان كفاية الله له، عندما يقول إني توكلت عليه، ودعوته، وتركت الأمر له، ولكنه لم يجِبني، ولم أصل إلى مرادي، ولم يحدث شيء..

الرد على هذه المشكلة موجود في بقية الآية 3 من سورة الطلاق التي ذكرناها من قبل: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا }، فها هي الآية تؤكد أن الله بالغ أمره، أي منفِّذ لما يريد، ولكن لكل شيء توقيت وقدر وكيفية مثالية ومناسبة أكثر من غيرها لا يعلمها إلا هو، والتي لا يشترط أن تكون وقتما وكيفما أشاء أنا، لكني وعندما يكون لدي التوكُّل الصحيح، وحسن الظن الحقيقي سأكون على يقين تام بأنها ستحدث وفي أفضل وقت وعلى أحسن هيئة.

فتقديم أو تأخير وصول الإنسان إلى مراده من حكمة الله، التي يجب أن يثق بها الإنسان المتوكل، ولا يشك فيها، ولا يعتقد أنه سيحرم شيئًا ينفعه أو يحتاجه بصدق، فربه لا يريد تعذيبه أو إيلامه، وهو مَن يتودد إليه بالنعم والعطايا طوال الوقت.. {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ} (سورة النساء الآية 147).

إذا كل هذا يحدث لننجح في الاختبار.. هل كنا نثق في قدرة الله على فعل ما نريد؟، هل كنا نثق أنه سيفعله من أجلنا؟، هل كنا نثق في حكمته في اختياره الوقت المناسب لذلك حتى ولو كان على غير رغبتنا وهوانا؟.. إذا كنا نثق في كل هذه الأمور، إذًا فقَد نجحنا في اختبار حسن الظن بالله، والذي هو أساس للتوكل عليه.

2) حدوث عكس المراد.. أحيانًا يدعو الإنسان ليعمل، ويتوكل على الله في زيادة رزقه، فتكون النتيجة مزيدًا من الضيق في الرزق، وأحيانًا تدعو إحداهن وتتوكل على الله في أن تتزوج سريعًا، فتكون النتيجة فك خطبتها، أو عدم تيسير الخطوبة من الأساس.. ألا يحدث ذلك؟، وهذا ما يسمى ب (عكس اتجاه الباب)، ويسمى كذلك لأن له قصة، وهي:

أرادت الأم أن تخرج ذات مرة، فرآها ابنها الصغير ترتدي ملابسها وفي اتجاه الباب، فظل يبكي ويصرخ لتأخذه معها، فأشفقت عليه الأم، وقررت أخذه معها، فأخذت بيده إلى غرفته (عكس اتجاه باب الخروج) لتلبسه الملابس المناسبة للخروج، فزاد من صراخه وبكائه، ورفض التحرك معها، وهي تقول له لا يصح أن تخرج بملابس النوم، وهوي قاومها ويشد يدها باتجاه الباب، فتقول له الجو بارد في الخارج يجب أن ترتدي شيئًا المكان الذي يريد، لأنه يرى أنها تحرمه ولا تفهمه، مع أنها ما فعلت هذا إلا لتحقق له طلبه ولكن بأنسب وأفضل شكل، ولأنه ربما سيتضرر لو نفذه فورًا وسريعًا وكما يريد هو.. هذا بالضبط ما يحدث معنا نحن البشر عندما نتوكل على الله في شيء ولا يحدث، أو يحدث عكسه.. لا نرى إلا تحت أقدامنا، ولا نحاول رفع رؤوسنا لفهم إرادة وتدبير الله بشكل أوسع.

ومن أوضح الأمثلة على قصة عكس اتجاه الباب تلك، ما حدث لأم سيدنا موسى عندما لجأت لله، وتوكلت عليه، وطلبت منه حفظ ابنها من القتل، تقول الآية الكريمة: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (سورة القصص الآية 7).. إنها تخاف على ابنها من القتل، فبماذا أمرها الله؟.. تلقيه في البحر، هل هذا منطقي؟، أن تحميه من القتل لتلقي به إلى الغرق؟، أليست هذه الاستجابة من الله (عكس اتجاه الباب) تمامًا؟، ولكنها فعلت، وألقت به في البحر وهو رضيع لا حول له ولا قوة، لأنها صدقت في توكلها على الله، وآمنت بأنه لن يخذلها أو يضيعها، حتى وإن كان الظاهر غير ذلك تمامًا.

كذلك في قصة سيدنا يوسف، ألم يكن طريقة للملك أنه أخذ من والده؟، وابتعد عن كل أهله؟، ورُميَ في البئر؟، وتعرض لفتنة امرأة العزيز فأُلقي في السجن؟، ألم تكن كل هذه الخطوات في عكس اتجاه الباب؟

حتى إننا نقبل بهذا الأمر أحيانًا في حياتنا العادية مع بعضنا البعض كبشر، فعندما يذهب أحدنا مريضًا إلى الطبيب، فيقول له الطبيب إنه يحتاج إلى عملية، وأنه سيضطر إلى شق صدره أو فتح قلبه، فيقبل المريض بذلك، بالرغم من أنه أكيد لم يكن يريد ذلك أوذهب من أجله، ولكنه يقبل به لأنه ظاهريًّا عكس الشفاء، لكن واقعيًّا لن يحدث الشفاء إلا به.

3) تذكُّر التجارب الفاشلة التي سبق ومر بها الشخص نفسه أوالمحيطون به، كأن أتوقع ألا يتم الزواج لأنه سبق وفشلت الخطوبة أكثر من مرة، أو ألا أجد عملاً لأنه سبق ورفضت في كل مكان توجهت إليه، أو ألا يحدث الشفاء لأنه سبق وحاولت التداوي والعلاج لسنوات طويلة ومع أطباء مختلفين..

لا تهدر طاقتك بالتفكير في الماضي، مهما تكرر، بل الأولى أن أستحضرها كلها في تفويض الأمر كله إلى الوكيل هذه المرة، وفي إحسان الظن به، وبأنه سيتولى أمرك لا محالة.

4) فشل التجربة، فقد يتوكل البعض على الله في زيجة فتفشل، أو في مشروع فيخسر، أو في أي شيء فلا يتم..فما معنى هذا؟، قد يكون لذلك معنيان، أولهما أن هذا الأمر لم يكن فيه الخير والصالح، فكان لا بُدَّ من أن يصرفه الله عن الشخص، أو يصرف الشخص عنه.

والمعنى الثاني أن ما حدث هذا ليس إلا ابتلاء، ليختبر الله صِدق حُسن ظن عبده به، وقوة مقاومته للشيطان حينها، والذي يكون غاية أمله أن يسيء ظن العبد بربه، فيفقده توكله عليه وكفالته له.

5) ذنوب الإنسان.. فكثيرٌ من الناس يعتقدون أن الله لن يجيبهم، أو يتكفلهم، أو يكون معهم لأنهم كثيرو الذنوب، أو لأنهم بعيدون عن الله، أو لأنهم ليسوا متدينين كغيرهم، وهنا يجب أن نعرف أن هذه من حيل الشيطان المعروفة جدًّا، ليجعل الإنسان ييأس من الله، ويسيء الظن به، ويبتعد عنه أكثر وأكثر، لأن الله لا يعاملنا أبدًا بالمثل، فمَن مِنَّا لا يعصاه أو يقصر في حقه؟، ومع ذلك نعمه هابطة إلينا ليل نهار.

كما أن الله (كريم) والكريم هو الذي لا يرد سائلًا، سواء كان مُحسِنًا أو مسيئًا، يجيب دعوة المضطر إذا دعاه حتى ولو كانت ذنوبه لم تُغفَر، بل حتى ولو كان مشركًا، ولكنه صدقَ في اللجوء والاستعانة وطلب النجدة من الله، لأنه قال الله تعالى عن نفسه:

{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} (سورة النمل الآية 62)، فالعبرة بإخلاص وصدق الدعاء إلى الله، وليس بصلاح الإنسان من عدمه.

ولمزيد من التوضيح يضرب المثال الآتي.. لوكان هناك رجل معروف بكرمه في مكانٍ ما، وقال عن نفسه إنه لن يخيب أي شخص يحتاج إليه، ثم جاءه شخص هو يعرف أنه يسيء إليه، ولكنه يعرف أنه محتاج حقا ولا يجد ما يقتات به، ترى هل من الكرم أن يرده؟، بالطبع لا، الكريم سيكون مع الضعيف والمحتاج حقا، حتى ولو كان لا يستحق، ولن يفكر أبدًا في استغلال ضعفه وحاجته والانتقام منه.. طبعًا ولله المثل الأعلى.

6) الافتتان بالآخرين، فيقول أحدنا أن هناك كثيرين لا يتوكلون على الله، ولا يذكرونه من الأصل، ومع ذلك موفقون جدًّا، ولا يعجزهم شيء في هذه الدنيا، فلمَ التوكل إذًا؟

هذا صحيح بالفعل، لكن ألم نسمع بالآية التي تقول: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } (سورة الانفطار الآية 6)، هذا الشخص الذي تفكر فيه، وترى أنه موفق بلا استعانة أو طلب من الله مغرور، منحه الله النعم بسهولة، وجعله يعتاد على وجودها، ولا يفكر في طريقة جلبها لأنها ميسَّرة طوال الوقت، فاغتر، واعتقد أنه لا حاجة إلى الله في الموضوع، فمثلًا قد يُولَد شخصٌ ليجد نفسه ابنًا لأسرة ثرية جدًّا، فقد يكبر ويشيب ولا يضطر إلى التفكير في تدبير المال، وقد يدفعه ذلك إلى الاعتقاد أنه لن يحتاج الله يومًا لأنه لديه ما يكفيه من مالٍ له ولأولاده حتى يموت.

و تمامًا كما نفعل نحن عندما نجوع فنتوجه إلى المطبخ مباشرة، أو نشعر بالبرد فنذهب إلى دولاب الملابس، دون أن نتوقف لحظة لنفكر أننا نحتاج إلى الله في تدبير مأكلنا وملبسنا.

لا تغتر بالمغرورين، ولا تجعلهم يفتنوك، ويضيعوك معهم، فمن أدرَاك لعل الله يمهلهم ليأخذهم أخذة واحدة، أو ربما لن يحاسبهم على كل هذا إطلاقًا في الدنيا، ليكون حسابهم كاملًا يوم الحساب الأعظم.

حقًّا.. كم هو جميل أن يكون لنا رب يُسمي نفسه بالوكيل، ويخبرنا بأنه الكفيل، ويعدنا بكل الخير والراحة إذا توكلنا عليه.

علاج الوسواس القهري..

اسم الله الملك (المعوذات)

الوسواس القهري من أصعب الحالات النفسية في العلاج، فهو يكون مزمنًا في أغلب الحالات، أي إنه يلازم المريض طيلة حياته، ما بين حالات تزداد فيها حدته، وفترات أخرى تكون أقل نشاطًا للمرض، وأكثر سلامًا بالنسبة للمريض.

والسبب في كونه مرضًا مزمنًا وصعبَ الشفاء منه أمران:

أولهما أن سبب المرض غير معلوم ولا يمكن تحديده.

وثانيهما أن علاج الوسواس القهري ينقسم الى شقين أساسيين: الشق الدوائي، أي العلاج بتناول العقاقير الطبية، وهو الشق الذي يركز عليه أغلب المرضى وأغلب الأطباء أيضًا، والشق النفسي، أو ما يسمى بالعلاج المعرفي، وهو تعديل سلوك المريض عن طريق تعديل أفكاره، بتعريفه أكثر عن المرض وطريقة التعامل معه، وهذا الجزء وبالرغم من أنه الجزء الأهم، والأقوى في العلاج، إلا أنه مُهمَل جدًّا بكل أسفٍ.

• ما هو الوسواس القهري؟

- هو حالة يشعر فيها المريض بأن فكرة أو مجموعة أفكار معينة تسيطر عليه وتلح عليه بشكل يصعب مقاومته (خلل نفسي)، وقد يصاحب هذا (خلل عضوي) عبارة عن نقص في بعض المواد الكيميائية الموجوده في المخ.

- وهنا يجب التوضيح أن الخلل العضوي والذي يُعالَج بالأدوية لا يكون موجودًا بالضرورة في كل الحالات.

- وهنا أيضًا يوجد سؤال مهم: ترى أيهما سبق الأول أو تسبَّب فيه؟، هل الفكرة الملحَّة هي التي أدت إلى الخلل الكيميائي؟، أم إن إلحاح الفكرة ظهر عندما حدث هذا الخلل؟.. وفي الحقيقة لا أحد يستطيع أن يعطي إجابة جازمة على هذا السؤال حتى الآن، إلا أنه وفي الحالتين تتحسن الحالة جدًّا بالعلاج النفسي أو ما يسمى بالعلاج المعرفي، والذي هو موضوعنا الذي سنتناوله بالتفصيل.

• من أين تأتي الفكرة الملحَّة؟.. تأتي من النَّفس، فلكل حالة أفكارها الخاصة التي تؤرقها وتلح عليها.. ومَن الذي وسوَس إلى النفس بهذه الفكرة من الأساس؟.. إنه (الوسواس الخناس).. نعم بهذه البساطة، فبالرغم من وضوح الأمر في الآيات (قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجِنَّة والناس) (سورة الناس)، إلا أن أغلبنا لم يلتفت إليه، لاعتقادنا أن الوسوسة المقصودة هنا هي الحث على فعل الذنوب أو الأمر بالمنكر فقط، إلا أن وسوسة الشيطان أكبر وأخطر من ذلك، فهو يوسوس ليبث في نفوس البشر أفكارا تؤلمهم وتؤرقهم وتحزنهم وتخيفهم من المستقبل والحياة كلها، كما في الآيات:

{إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (سورة المجادلة الآية 10، {والشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (سورة البقرة الآية 268)، فهذا إقرارٌ واضحٌ بأن كل الأفكار المؤلمة والمحزنة واليائسة إنما يُلقِي بها الشيطان في نفوس البشر، ليصيبهم بالهم والغم والحزن، لماذا؟..

لأربعة أهداف رئيسية:

1) أن يهبط من عزيمة الإنسان، ويُقلِّل من طاقته على العمل والبذل والجهد، فأكثر ما يمتص طاقة أي إنسان هو الحزن والاكتئاب.
2) ليقلل من شعور الإنسان بنعم الله عليه، فطالما أنه يتذكر دائمًا كل ما ينقصه وكل ما يحزنه، لن يكون هناك متسع لتذكر أو إدراك كل النعم الأخرى التي مَنَّ الله عليه بها، وبالتالي لن يحمد الله، ولن يشكره {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} (سورة الأعراف، الآية 17).
3) ليجعل الإنسان ييأس من رحمة الله، ويسيء الظن به، فيبتعد عنه.
4) ليفرق بين الناس وبعضهم، بتهييج الخلافات والمشاكل، والنفخ فيها، فيصبح الإنسان بمفرده في الدنيا، ليكون فريسة سهلة للشيطان فيما بعد، لأنه (إنما يؤكل من الغنم القاصية)، أي إنه لا يستطيع السيطرة والتسلط إلا على من يعيش بمفرده بلا صحبة صالحة تعينه وتقويه.
- فإن كان الأمر كذلك، فلماذا يصاب البعض بالوسواس دون الآخرين؟.. كل البشر يتعرضون إلى تلك الوسوسة بلا انقطاع، إلا أن الأمر لا يتطور إلى حالة مرضية إلا إذا استسلم الإنسان لهذه الأفكار، واسترسل فيها، وسمح لها بفرض نفسها على تفكيره لفترات طويلة، وهذا يحدث لثلاثة أسباب رئيسية:
1) لأننا نجهل أن السبب الرئيسي وراء هذه الأفكار هو الشيطان، وبالتالي نجهل العدو الذي علينا محاربته {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (سورة فاطر الآية 6).
2) لقلة معرفتنا عن الله، وعن قدرته وصفته، وعن اسمه (الملك) الذي خضع له كل شيء، فكما قالت الآية السابقة: (وليس بضارهم بشيء إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون)، فالوسواس ينجح في اختراق القلب البعيد عن الله، والذي ابتعد أصلًا؛ لأنه لا يعرف الله حق معرفته ليقترب منه.
3) أما السبب الثالث والرئيسي جدًّا هو حالة (الفراغ) النفسي والذهني التي يعيشها الكثير منا هذه الأيام، فالوسوسة لم تكن لتجد لنفسها مكان في رأس من هو مشغول بأمور مهمة أو ذات قيمة، فان دماغ البشر تمَامًا كالإناء، لا بُدَّ أن يملأها شيءٌ ما، فإما أن يملأها الإنسان بالحق، وإما أن يملأها له الشيطان بالباطل.
- نقطة أخرى يجب الإشارة إليها، وهي: ترى متى يفسد قلب الإنسان؟، ويصبح فريسة سهلة للشيطان يتلاعب به كيف يشاء؟.. يصبح القلب فاسدًا لثلاثة أسباب أيضًا، هي:
1) الجهل.. عن الله، الرب والإله والمعبود بحق، والذي لم نخلق ولم تخلق السماوات والأرض من الأساس إلا لنعرفه ونعبده {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا} (سورة الطلاق الآية 12)، {وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعبدونِ} (سورة الطور الآية 56).
وهذا النوع من الجهل لا يمكن إزالته إلا بالتعلُّم عن الله بأسمائه وصفاته، الأمر الذي يعتقد الكثيرون منا أنه ليس ضروريًّا، بالرغم من أنه فريضة، كما في الحديث: (طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وإنَّ طالبَ العلمِ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ، حتى الحيتانُ في البحرِ)([4])، فالعلم المقصود هنا هو العلم عن الله بمختلف مجالاته.

2) الغفلة، والتي تحدث بعد المعرفة ونفي الجهل، وهي أخطر منه، لأن العلم يكون موجودًا، لكن سيطرة الدنيا يكون أقوى فتُنسي الإنسان ما يعلمه.
3) اتباع الهوى، وهو الأمر الأخطر من بين هؤلاء الثلاثة، لأنه في هذه الحالة يكون الإنسان عالمًا، ومتذكرًا لما تعلمه، ولكنه يغلب هوى نفسه ورغباته على مراد ربه الذي يعلمه.
• لكن كيف يتسلل الوسواس إلى الإنسان ويبث أفكاره هكذا في خفاء ودون أن يلتفت الشخص لذلك؟ والإجابة هي لأنه يدخل إلى قلب الإنسان عن طريق (هوى النفس)، فهو لا يستطيع أن ينفذ إلى القلب بشكلٍ مباشر، وإنما (يركب) هوى الإنسان، فيدخل له من نقاط ضعفه، من الأشياء التي يعرف أنها تخيفه وتؤرقه فيزيد من تخويفه منها، كأن يوسوس للبعض أنهم سيموتون من الفقر أو من الوحدة إذا كانت هذه الفكرة مسيطرة على تفكيرهم من قبل، أو يدخل له من الأشياء التي يحبها ويتعلق بها، فيزيد بشغله بها وتعليقه بها، كأن يوسوس للبعض بتكرار النظافة والتأكد من الطهارة إذا كان من طبعهم أصلًا المبالغة في ذلك، أو يزيد من خوفه من فقدان محبوباته، كأن يوسوس للبعض بالقلق الدائم وحب الاطمئنان المستمر على أولادهم إذا كانوا هم أصلًا ممن ينشغلون بأولادهم طوال الوقت ويعتبرونهم محور حياتهم، لهذا يقال أن (هوى النفس مركب الشيطان)، أي أنها الشيء الذي يركبه ويمتطيه ويدخل به إلى قلب الإنسان، فلا يظهر ولا يعرف لأنه يقوي من أفكار هي موجودة أصلًا في نفس الإنسان، فلن يشعر بأن هناك عاملًا خارجيًّا يؤثر عليه، وينفث فيه وسوسته.
ولكنَّ هناك شيئًا مطَمْئنًا في هذا الأمر، وهو أنه لا يفلح الشيطان في وسوسته مع كل الناس {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (سورة النحل الآية 99)، لأن الذين آمنوا بربهم ويتوكلون عليه هم من يعرفون أن لهم ربًا (ملك) يملك كل شيء ويتصرف في كل شيء، يستطيع إعاذتهم من الشيطان وغيره عند الاستعاذة به، {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} (سورة النحل، الآية 100)، وكيف يتولونه؟.. باتباع هواهم، فالشيطان ليس له سُلطة غير (الإغواء) وتزيين هوى الإنسان له، فيسير خلفه وبذلك يكون قد اتبع الشيطان.
• ما هي صفات الشخصية المُعرَّضة للإصابة بالوسواس القهري؟:
هناك بعض الصفات التي إذا توفرت كلها أو أكثرها في شخصٍ ما كان عرضة أكثر من غيره للإصابة بالوسواس، وهذا طبعًا ليس بالضرورة، لكن هذا أغلب الظن طبقًا لملاحظة الكثير من المصابين، ومن هذه الصفات:
1) العناد: أن يكون شخص من طبعه التشبث برأيه، والتمسك بموقفه حتى وإن ثبت له أنه خطأ.
2) الحب المبالغ فيه للنظام والروتين، والتدقيق في كل الأمور الهامة والتافهة على حدٍّ سواء.
3) التأنيب المستمر للضمير، أو ما يسمى بـ (جلد الذات) على كل صغيرة وكبيرة.
4) الانطوائية الزائدة، فأغلب من يصيبهم الوسواس يكثرون من الانعزال عن الناس، فيطول لديهم حديث النفس، ويستطيع أن ينفذ إليهم الشيطان بسهولة كلما زاد لديهم الفراغ، سواء البدني أو الذهني أو العاطفي.
5) فقدان الإحساس بالأمان، يكون الإنسان دائمًا خائف من شيءٍ ما، مترقب لحدوث كارثة ما، كفقدان الأحباب، أو فقدان الوظيفة، أو فقدان المال، أو المرض وفقدان الصحة، أو من غدر الزمان عند الكبر.

6) شخصٌ نشأ وتربَّى على يد شخصٍ مصاب بالوسواس، ففي هذه الحالة يعتبر الطفل أن ما نشأ عليه من أفكار وطقوس وعادات أمر طبيعي وغير مَرضي، فيظل يقلده.

• من أنواع الوسواس:

1) وسواس الأفكار: بأن تصبح فكرة ما مُقلِقة مسيطرة على فكر الإنسان بشكل مستمر لا يمكن التخلص منه، مثل أن تخاف زوجةٌ من أن يخونها زوجها، أو أن يخاف أبٌ أن يفقد أولاده، أو تخاف امرأة من عدم زواجها وأن تكبر وحيدة، أو يخاف شاب من عدم العثور على عمل والفقر والحاجة والعوز، أو يخاف شخص من الموت بمرض وراثي معين،.. أو غيرها من الأفكار التي قد لا يوجد أي مبرر لها أو دليل عليها أحيانًا، إنما هي فقط تؤرّق صاحبها بشكل فوق العادي.

2) وسواس الصور الذهنية: كأن تتكرر صورة معينة على ذهن الإنسان بشكلٍ لا يمكنه إيقافه، وغالبًا ما تكون هذه الصور عنيفة أو مخيفة أو مقززة.

3) وسواس الاجترار: بمعنى أن يظل الشخص يفكر في أحداث أو مواقف مؤلمة أو محرجة أو مهينة أو مخيفة حدثت له في الماضي، وقد يكون مرَّ عليها سنواتٌ طويلة، وليس لها أيُّ أثرٍ ملموس في الوقت الحالي، إلا أنها تفرض نفسها بشدة وكأنها حاضر لا زال حيًّا يعيشه الإنسان كل يوم وكل لحظة.

4) وسواس التفكير في ذات الله: يجد الإنسان نفسه في هذه الحالة يفكر في أشياء، ويسأل نفسه أسئلة لا توجد لها إجابة عن الله؛ لأنها خارج إدراك العقل البشري بإمكانياته المحدودة، فهو كما قال عن نفسه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

أو قد يحدث كما نبهنا الرسول علية الصلاة والسلام حين قال: يأتي الشيطان يسألك مَن خلق هذا؟، فتقول الله، ومَن خلق هذا؟، فتقول الله، إلى أن يأتي ويقول مَن خلق الله؟، حينها توقف عن التفكير وقُل (آمنت بالله).

وحتى ولو أردنا تحليل هذا السؤال بشكل منطقي وعقلاني سنجده سؤالًا خاطئًا من الأساس؛ لأنه إذا كان هناك خالق لله، فإذا هو مخلوق حاشاه، لكن ولأنه ليس بمخلوق فلا يكون هذا السؤال صحيحًا من الأصل.

وأحيانًا يأخذ هذا الوسواس شكلًا آخر فيجد الشخص نفسه يفكر في الله بطريقة غير لائقة، وقد يتطور الأمر عند البعض فيعاني مما يسمى بوسواس (سب) وشتم الذات الإلهية أو الأنبياء والرُّسُل، وهو أمرٌ متكرر ومتعارَف عليه عند كثير من مرضى الوسواس القهري.

5) وسواس العلاقات: أو ما يسمى بـ (نظرية المؤامرة)، حيث يصور الشيطان للشخص أن كل من حوله أو شخصًا بعينه يكرهه، أو يتحدث عنه، أو يكيد به، أو يدبِّر له، فيظل يبتعد الإنسان عن كل من حوله شيئًا فشيئًا، حتى يصبح وحده، حيث يكون في أسهل الحالات اختراقًا من الشيطان.. {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ} (سورة المائدة الآية 91).

وأكثر ما يحرص عليه الشيطان في هذا النوع من الوسواس هو التفريق بين الزوج وزوجته، بتذكير كل منهم بنقائص الآخر، أو أوجه تقصيره، أو مواقفه السلبية في الماضي، ويظل يكررها ويعيدها حتى لا يرى الإنسان غيرها، فيكره زوجه كل يوم أكثر من الذي قبله، لأنه لم يعد يرى أي إيجابية له مع كثرة تكرار مشاكله وسلبياته.

كذلك يفعل بن الإخوان أو الأقارب، لقطع الرحم والتفريق بين الأُسَر والعائلات.

6) وسواس الاندفاعات: وفيه يجد الإنسان نفسه مدفوعًا لفعل شيء معين، وعادة ما يكون هذا الشيء خطيرًا أو غريبًا، كأن يشعر برغبة مستمرة في إلقاء نفسه من الشباك، أو بطعن شخصٍ ما، أو بإشعال حريقٍ ما.

7) وسواس الطقوس الحركية: وهو من أشهر أشكال الوسواس وأكثرها شيوعًا، حينما يجد الإنسان نفسه يكرر الأفعال العادية بشكل غير عادي، كأن يتوضا 10 مرات، أو يغتسل في ساعتين، أو يغسل يديه بعد لمس كل شيء.

8) وسواس التأكد: وفيه يجد الإنسان نفسه مجبرًا على التأكد من أشياء معيّنة أكثر من مرة، كأن يتأكد أنه أغلق الباب، أو أنه أغلق الغاز، أو أنه أطفأ الأنوار، ويظل يذهب ويعود ليتأكد من نفس الشيء الذي تأكد منه لتوه، ولكنه ومع ذلك لا يستطيع منع نفسه على الرغم من أنه يعرف أن هذا ليس تصرُّفًا منطقيًّا.

• وهنا توجد نقطة مهمة يجدر الإشارة إليها وهي: ما الفرق بين المريض (العقلي) والمريض (النفسي) في مرض الوسواس القهري؟.. المريض النفسي يدرك تمامًا أن ما يؤرقه أمر تافه، وأن السلوك الذي يكرره سلوك سخيف وغير منطقي، بينما المريض العقلي يقتنع أن ما يفكر فيه هو أمرٌ مهم، بل ويحاول إقناع الآخرين بأهميته وخطورته، كما أنه لا يرى أيَّ عيبٍ أو مشكلة في سلوكياته غير الطبيعية.

• وأخيرًا ما الحل؟

1) أول خطوة في العلاج هي معرفة السبب، يجب أن يعرف الإنسان عدوه، ليعرف كيف يواجهه، فبعدما عرفنا أن الوسواس (الذي يوسوس في صدور الناس) هو المسئول عن أغلب الأفكار المُحزِنة والمؤرقة التي تصيب الإنسان، سنعرف كيف نواجهه، بالاستعاذة الصادقة المخلصة بالله، الرب والمَلك والإله كما ذكر الله تعالى في المعوذات، وفي سورة الناس خاصة، وكما في الآية {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم} (سورة فصلت الآية 36).

و(الاستعاذة) هي طلب العوذ والحصن والتحرز والحماية والدفع من الله، أي أعوذ بك وألجأ إليك يا رب طالبًا أن تحفظني من الوسواس الخناس من الجنة والناس.

وكما يقال إن (السيف بقوة ضاربه)، كذلك الاستعاذة بالله سلاح قوي جدًّا عندما تصدر من قلبٍ مُؤمنٍ مُخلصٍ صادقٍ في اعتماده على الله، وسلاح غير مؤثر عندما تصدر من اللسان فقط، دون أن يعتقد فيها القلب، ودون أن يكون الإنسان متأكدًا من جدواها.

وكيف لأي إنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من اليقين والتأكد من أن الله معه سيحفظه ويحميه من الوسواس وغيره، إلا بعد أن يصبح على صلة بالله، بأن يتعلم عنه ويعرفه، ويفهم معاني أسمائه الحسنى (الملك، الإله، الرب) وغيرهم؛ لهذا فإن أول خطوة في العلاج هي الاقتراب من الله (مَلِك الملوك) والقادر على كل شيء، بمعرفته والتعلم عنه، وليس المقصود هنا هو حضور درس مرة، أو قراءة كتاب، أو حتى سماع محاضرة أو محاضرتين، المقصود هو أن يكون لله نصيب من وقت وجهد الإنسان، والأمر تراكمي وتدريجي؛ فكلما زادت المعرفة والعلم عن الله، كلما زاد اليقين، وزادت القوة، وتراجع وضعف الوسواس وغيره من الأمراض النفسية المختلفة.

2) قطع الاسترسال، وعدم الاستجابة للاستمرار في التفكير، سواءٌ في الفكرة أو في الصورة أو في الأحداث والأفعال التي تُملَى على ذهن الإنسان.

و هو أمرٌ صعبٌ لا شكّ وقد يكون مستحيلًا في البداية، لكنه أيضًا تدريجي وقابل للزيادة مع الوقت، فبمجرد أن يدرك الإنسان أنه بدأ في التفكير الوسواسي عليه محاولة تشتيت ذهنه إلى أي شيء آخر فورًا، وإذا عادت الفكرة يعيد صرفَ ذهنه، مرة بعد مرة، سينجح مرة ويفشل مرات، لكنه ومع الوقت سيجد نفسه ينجح مرات أكثر، ثم أكثر، ثم مرات أكثر من تلك التي يفشل فيها، وهذا إنجاز في حد ذاته؛ لأنه يعني أنه في طريقه إلى الخلاص؛ فمِن الخطأ أن يعتبر الإنسان نفسه فشل في العلاج إذا وجد نفسه لا زال عاجزًا عن السيطرة الكاملة على أفكاره، أو إذا كان لا يزال يخفق في طرد الفكرة وقطع استرسال التفكير فيها، مجرد زيادة عدد المرات التي ينجح فيها في ذلك تعتبر نجاحًا ومؤشرًا على التقدم نحو الشفاء.

3) شغل أوقات الفراغ بشيء ذي قيمة، ويا حبَّذا لوكان شيئًا ذهنيًّا، تعلُّم، تعليم، عمل، قراءة، أو أي عمل ذهني آخر، وحتى ولو لم يتوفر هذا العمل الذهني سيساعد الانشغال بأعمال بدنية في الأمر، رياضة، أعمال منزل، مساعدة الغير، كلها ستشتت انتباه الشخص عن نفسه، وتستهلك الكثير من طاقته التي تُوجَّه كلها نحو الفكر والتفكير في حالات الفراغ.

4) عدم الإكثار في الكلام عن الشكوى التي يعانيها الشخص من وسواس وغيره، إلا في حالة طلب المعونة والاستشارة، فالأفكار تتمدد وتتسع باتساع دائرة الحديث عنها، وكلما قل عدد الأشخاص الذين يتكلم معهم المريض عن حالته، كلما ساهم ذلك في (تحجيم) المرض، وتقليص مساحته من حياة المريض.

• نقطة أخيرة يجب التنبيه عليها لمريض الوسواس وغيره من الأمراض النفسية: لا تُسقِط ما بك من قلق وتوتر واكتئاب على من حولك، فكثيرٌ من المرضى يحاولون التنفيس عن مشاعرهم السلبية فيمن حولهم من الناس، في الأبناء، في الأزواج، في الأقارب، في الجيران، في زملاء العمل، أو حتى في المارة في الشوارع، أخلِص شكواك وألمك وكل ما بك من معارك إلى الله الملك، الذي يستطيع وحده صرف ما بك من كرب وشدة، وإلا بم ستستفيد لو بقيت على هذا الحال تصدر غضبك نحو الجميع سواء بوعي أو بدون وعي منك؟، فلا أحد يملك لك شيئًا، ولا أحد له سُلطة على هذا الوسواس الذي يلعب بك.

علاج الحقد والحسد

من أقوى أعداء الإنسان وأشدهم خطورة عليه هي نفسه، فقد يتغلب الإنسان منًّا على شرور الآخرين، ويستطيع تفاديها أو تجنبها، في حين لا يقوى على شرور نفسه، وعلى أمراض قلبه، والتي من أعتاها مرض (الحسد).

فمِنًّا من يُكثِر من الأعمال الطيبة كصلاة وصيام وصدقات، ولكنه لا يملك نفسَه عند رؤية نعمة الغير، فيشعر بالحقد والغِلّ والحسد مع الأسف؛ لهذا لا يجب لمثل هذا لأن يأمن أو يطمئن إلى عمله، لأنه قد لا يجد منه شيئًا يوم القيامة؛ لأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام.

فلا هو عاش الدنيا هانئًا سعيدًا، ولا هو ذهب للآخرة آمنًا مطمئنًا، لأنه (قلب سليم).. فما السبيل إذًا للتخلص من هذا الداء اللعين؟

• ما هو الحسد؟

هناك تعريف شهير للحسد جميعنا نعرفه، وهو (تمني زوال نعمة الغير)، ولكن في الحقيقة معنى الحسد أوسع وأكبر من ذلك بكثير،

فهو يبدأ بمجرد (الشعور بالألم أو الحسرة أو الغيرة عند رؤية هذه النعمة)، فمبجرد أن يجد الإنسان في نفسه شيئًا عندما يرى الخير الذي نزل بغيره فهو بذلك حاسد، حتى وقبل أن يتمنى زواله من عدمه؛ فالقلب السليم لا يهتز ولا يتغير ولا يتأثر بأرزاق مَن حوله، لأنه على يقين من أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن رزقه آتيه لا محالة.

• سؤال آخر: هل الحسد قابل للعلاج والإصلاح؟، أم أن الناس مخلوقون إما حاسد أوغير حاسد وانتهى الأمر؟

يقول أحد العلماء: (لا يخلو جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه، واللئيم يبديه)، أي أن الحسد واقع في قلب الجميع، وتُبتَلى به كل القلوب في وقتٍ من الأوقات، لكن الإنسان الذي يخاف على نفسه يقاومه، يهذبه، يروضه، ويظل يتعلم كيف يجاهد نفسه فيه، وأما الذي لا يهتم فيرحب به، ويتمادى فيه، ويظهره، بل وقد يدعو من حوله للاشتراك معه فيه.

إذًا فالحسد شأنُه شأن أي مرض يمكن علاجه، ويمكن الحد منه إذا أراد الشخص نفسه ذلك، وإذا استعان بالله على ذلك، ثم تعلم كيف يفعل.

• كيف أتخلص من الحسد؟

يحدث ذلك عندما يغيِّر الإنسان أسلوب تفكيره الذي اعتاد عليه عند رؤية نعمة الغير، بأن يختار أن يفكر بشكل مختلف، بالشكل الصواب الذي يريده الله له، ولنساعد بعضنا على ذلك دعونا نفكر سويًّا فيما يلي:

• قوله صلى الله عليه وسلم: (من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) "رواه التِرمِزِى وابن ماجه وأحمد".

بالرغم من أننا قد نكون سمعنا ها الحديث كثيرًا من قبل، إلا أننا لم نعطه حقه فهمًا وتدبرًا كما ينبغي، فهو من جوامع الكلم صدقًا، وهذا ما سنحاول توضيحه فيما يلي.

فالحديث لم يربط بين (حسن الإسلام) - الذي هو غاية المراد- وبين كثرة عبادة من صلاة وصيام وزكاة، ولا بينه وبين الفرائض الكبرى كالحج مثلًا، ولا بينه وبين الأمور الصعبة العظيمة كالجهاد مثلًا، أبدًا، إنما ربطه بأمرٍ آخر تمامًا، وهو أن يترك الإنسان كل ما لا يعنيه.. فقط.

وهذا لأن هذا الفعل هو المدخل الرئيسي لكل خير وكل صلاح يصل إليه الإنسان، وعكسه يجره إلى الكثير من الفتن وأمراض القلوب، ولأنه أ يضًا أمرٌ شاق، وليس بالسهل إلا على القلوب المخلصة بالرغم من أنه يبدو بسيطًا وممكنًا، فقد سُئِل (يونِس ابن عُبَيد) عن حالِه فقال: (إن نفسي قد ذَلَّت لي بصيام اليوم البعيد الطرفين- أي الطويل- الشديد الحر ولم تَذِل لي بترك الكلام فيما لا يعنيني)، وفي ذلك دليل على صعوبة الأمر حتى على العباد المجتهدين.

• ما علاقة هذا الحديث بعلاج الحسد؟

بداية الشعور بالحسد هو التطلع إلى أحوال الغير، ومراقبة حياتهم، والبحث عن كل جديدٍ فيها، والسؤال عن أسباب هذا الجديد، ثم المقارنة بين حالهم وحالك، ثم الإحساس بالنقص والدونية بالمقارنة بهم، ثم فقدان الرضا عن حالك والسخط عليه، ثم تمنِّي أن تكون في مكانهم، أو تمنِّي زوال ما هُم بِه من نعمة، أو ترقب سماع أي شيء يضرهم شفاء لما بك من غِلٍّ، وإرضاء لما بك من غيرة.. أليس هذا هو أول الطريق؟

- ولكن ما المقصود ب (ما لا يعنيه)؟

هو كل شيء تستطيع العيش بدونه، فإذا فكرت في أي أمر فوجدته زائدًا عن حاجتك ويمكنك الاستغناء عنه فهو لا يعنيك (قولًا وفعلًا ونظرًا وفِكرًا)، أي عينك تترُك ما لا يعنيها، لسانك يترك ما لا يعنيه، أُذُنِك تترك ما لا يعنيها، قدمك تترُك ما لا يعنيها، يدك تترك ما لا يعنيها.

أو لنعرف (ما لا يعنيك) بمعرفة (ما يعنيك) أولًا، فإن ما يعني أي إنسان هو أحد أمرين:

إما شيء ينفعه في دنياه، أو ينفعه عند مولاه، أي إما يكون شيئًا مفيدًا لتحسين دنياك أو آخرتك، وكل شيء عدا ذلك فهو لا يعنيك.

• من أمثلة (ما لا يعنيه):

- الكلام الزائد:

في الحديث الشريف (مَن يضمن لي ما بين لِحيَيهِ وما بين رِجلَيهِ أضمن له الجنة).. صحيح البُخاري، وفي حديث عن مُعاذ رضي الله عنه الذي في آخرهُ قال النبي صل الله عليه وسلم (كُف عليكَ هذا فقلتُ يا نبي الله وإنَّ لَمُؤخِذون بما نتكلم قال: سَكِلتكَ أمك يا مُعاذ وهل يَكُب الناس في النار على وجِهِهم أو على مَناخِرهِم إلا حصائد ألسِنَتِهِم)(سُنن التِرمذي).. وفي حديث آخر: (من كَفَّ لسانه ستر الله عز وجل عورته).

والكلام الزائد هو: (كل ما لو سَكَتَّ عنه لم تأثم ولم تتضرَّر في حالٍ ولا مَآل)، أي كل الكلام الذي لا نفع في قوله، ولا خسارة في تركه.

فالتقصي والسؤال والحديث عن أحوال الناس، زيجاتهم، أولادهم، أعمالهم، أموالهم، مسكنهم، مركبهم، مأكلهم، ملبسهم، أسفارهم، مشترواتهم، ممتلكاتهم، دخولهم ومصروفاتهم.. إلخ، ليس إلا مثالًا صارخًا عن (ما لا يعني الإنسان) بكل معنى الكلمة، لأنه ليس كلامًا زائدًا فحسب، بل لأنه قد يدخل تحت بند الغيبة والنميمة وما هو أكثر، ولن يترك في قلب قائله سوى إحساس سلبيٍّ طوال الوقت لأنه لن يرى غير ما فضل به الآخرين عنه، وما زادوا به عليه.

- فضول السمع:

كأن يهتم الإنسان بمتابعة حوار قائم بين اثنين بينما هو ليس طرفًا في هذا الحوار من الأصل، أو التركيز مع مكالمة أحدهم التليفونية، أو تعمُّد الاستماع إلى ما يريد الغير إخفاءه، أو ما هو أكثر من ذلك كالتجسس أو التصنت واستماع حوارات الآخرين سرًّا، وهو الأمر المنهي عنه صراحة في القرآن الكريم {لَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا} (سورة الحجرات الآية 12).. كل هذا قد يتحرق الإنسان شوقًا لسماعه من باب الفضول، خاصة وإن كان الحوار عن أو بين أشخاص ذوي أهمية بالنسبة له، لكنه وفي حقيقة الأمر من أكثر ما ينطبق عليه وصف (لا يعنيه).

- إعمال العينين واليدين فيما لا يفيد:

كالتنقل بين جريدة وأخرى أو من قناة لأخرى بلا هدف، أو من موقع إلكتروني إلى غيره لمجرد قتل الوقت، أو كالوباء الذي أُصِبنا به حديثًا وهو التقليب في مواقع التواصل الاجتماعي مثلًا بالساعات سعيًا خلف أخبار الناس، وصورهم، وكلامهم، أوالبحث فيما يخصهم من معلومات.. فبالرغم من أن هذا الأمر أصبح شائعًا وعاديا جدًّا هذه الأيام، إلا أنه وبكل أسف من أهم أسباب عدم رضا الناس عن حياتهم الآن، وأحد أهم أسباب إثارة الحقد والحسد في النفوس، فالكل يبحث عما يفتقده لدى الآخرين، ولا يلتفت إلى أنهم قد يفتقدون هُم ما لديه، أو حتى إلى أنّ في حياتهم أوجه نقص أخرى هو لا يعرفها.

لكن ولأننا انشغلنا بما لا يعنينا امتلأت الحياة مقارنات وغيرة، وقلقًا وندمًا، ولهاثًا حول الأفضل دائمًا في كل شيء، وهو ما لم يحدث أبدًا في الحياة الدنيا، فلنتدبر قول (ابن مسعود): (إذا أراد الله بعبدِهِ خيرًا سدَّدَهُ وجعل سُؤالِه عما يعنيه وكلامه فيما ينفعه)؛ لأن الشقاء والتعاسة في أي شيء غير ذلك.

- إعمال القدمين فيما لا يفيد:

أوضَح مثال على هذا الأمر هو التجول بين المحلات وفي الأسواق دون وجود حاجة لذلك، فهذه الأماكن جعلت ليشتري الإنسان حاجته عندما يحتاج، لكن مع كثرة التجول والمشاهدة ستعجب العين، وتشتهي النفس، ويتعلق القلب بما يرى، حتى وإن لم يكن يحتاجه، وبالذات لو كان في غير استطاعته، فيتحول التفكير فورًا من الرضا بالموجود إلى السخط لعدم القدرة على الشراء والامتلاك، وبالغيرة ممن يقدرون ويستطيعون.

• الآية الكريمة:{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} (سورة طه الآية 13)

في هذه الآية أكثر من نقطة جميلة يجب الالتفات اليها..

أولاً: النهي في كلمة (لاتمدَّن عينيك) يعني الأمر الجازم والقاطع والصريح بعدم مد العين أو التطلع إلى ما عند الغير، فالأمر ليس اختياريا، وتركه ليس تفضلًا منك.. لا بل إنه مَنْهٍ عنه صراحة، والنهي هُنا لأن الله يعلم قلوب البشر، وما سيعتمل بها عندما ينظر كل منهم إلى نعم ومتع الآخرين، لهذا أراد أن يريحهم ويساعدهم على تنقية قلوبهم بأمرهم بعدم النظر لما في يد الغير، أيًّا كان ومهما كان، وخاصة لو كان الإنسان يفتقده ويتمناه لنفسه.

ثانيًا: وصف الله النعم التي لدى الآخرين بـ (زهرة) الحياة الدنيا، ويقول العلماء إن استخدام لفظ زهرة هنا معبر جدًّا؛ لأن الزهرة قصيرة العمر، تذبل في وقتٍ قصيرٍ، وهي أسرع جزء من أي نبات فناء واضمحلالًا، وهذا تمامًا حال الدنيا بكل ما فيها من مُتَع بالمقارنة بالحياة الآخرة، فمهما طالت حياة الإنسان، ومهما كان بها من متع ومباهج، فهي قصيرة جدًّا بالنسبة لحياته اللا نهائية

في الآخرة، لهذا أرادت الآية لأن تلفت انتباهنا إلى ما نتحاسد عليه هذا أهون بكثير مما نعتقد، ولا يستحق، لأنه قصير العمر سريع الزوال.
وثالثًا: قوله تعالى (لنفتنهم فيه).. يخبرنا الله في هذا الجزء من الآية أن ما متع به الناس ما هو إلا فتنة لهم، أي اختبار منه لهم، هل سيشكرونه؟، هل سيحمدونه؟، هل سيعرفون أنه وحده هو المنعم؟، هل سيستعملون هذه المتع فيما يحب ويرضى؟، أم سيجحدون ويتجبرون وينسون الله وتلهيهم الحياة بمتعها؟.. إذًا على ماذا تحسد غيرك يا إنسان؟، على فتنته؟، على اختباره؟، على ابتلائه؟، فقد يكون ما هو به من متعٍ ونعيم هذا هو سبب سوء عمله وفقره يوم القيامة، وأنت تحسده عليه وتتمناه لنفسك وأنت لا تدرِي شيئًا.. كم أنت جاهلًا قصير النظر أيها الإنسان!!
إذا تفكر أي حاسد في هذه الآية وحدها لكانت كافية، فأنت مَنْهٍ عن مدِّ البصر من الأساس، ثم إن ما تنظر إليه هذا ما هو إلا متعة قصيرة العمر سريعة الزوال كعمر الزهرة، ثم إنها قد تكون فتنة لصاحبها وسببًا لزلة قدمه وهو لا يعرف.. أبعد كل هذا يمكنك أن تنظر إليه بعد الآن؟؟
لا أعتقد أن هناك كلامًا آخر يمكن قوله بعد هذا الحديث الشريف، وهذه الآية الكريمة، لكن وقبل أن ننهي هذا الموضوع فلنفكر قليلًا في بعض النقاط السريعة..
1) هل عندما تحسد شخصًا ما وحتى لو كان حسدك سببًا في زوال النعمة منه، فهل سينفعك هذا في شيء؟، هل سيزيدك شيئًا؟، هل سيمنحك ما لديه أو ما تريد؟.. بمنتهى البساطة لا، لن يتغير حالك أنت بأي حال من الأحوال إلى الأفضل، هذا إن لم يتغير إلى الأسوأ، لأنه كما تدين تدان، وربنا (الديان) يعامل كل إنسان بما قام في قلبه.. إذا عمليًّا وفعليًّا وواقعيًّا أنت لن تستفيد شيئًا إطلاقًا؛ فلماذا حرق الدم والأعصاب؟، واستنفاذ طاقتك فيما لا يفيد؟
2) هل بوقوع نعمة ما للغير سيُقلِّل هذا من فرصة حدوث أي خيرٍ أو نعمة لك أنت؟، بكل تأكيدٍ لا ، فكل شيءٍ نصيب، وما كان لك لن يصيب غيرك، وما كان لغيرك لا يمكن أن يصيبك أنت، سواء سلبيًّا أو إيجابيًّا، فالأرزاق محسومة ومكتوبة من قبل أن نُخلَق، فاهدأ واطمئن، لن يأخذ أحدٌ دورك أو فرصتك أو رزقك، حتى وإن بدا الأمر كذلك، كما يحدث في بعض أوقات التنافس أو التسابق على شيء ما كوظيفة أو سفر أو دراسة أو حتى زواج.
3) هل فكرت من قبل أنه عندما تحسد شخصًا ما أنت على مَن تعترض؟.. أنت لا تعترض على الشخص ولا على النعمة نفسها، ولكنك في حقيقة الأمر تعترض على المُنعِم نفسه، أي أنك ببساطة تعترض على حكمة وإرادة الله، فأنت تقف لتقول له - ولو حتى في نفسك- لماذا فعلت له هذا؟، لماذا اخترته هو؟، لماذا أعطيته من دوني؟، وكأنك تعطي لنفسك الحق لأن تقول هذا يأخذ وهذا لا، من أنت لتقسم الأرزاق؟ وأنت نفسك تنتظر رزقك من الله، وتعيش بحكمته وجوده وكرمه؟.. الأمر يحتاج إلى (إفاقة).. انتبه على مَن تعترض، وعلى من تريد أن تعدل وتملي شروطك ورغباتك.
4) هل تعرف أنك عندما تنكر نعمة الله على شخص ما، تفعل ذلك لماذا؟، لأنك تشعر بأنك أفضل منه، وأحسن منه، أو تستحق عنه، تقول في نفسك (لماذا يحدث له ذلك وأنا أكثر جاهًا أو مالًا أو عِلمًا أو حتى أحسن شكلًا)؟، أي أن ما يدفعك للشعور بالحسد والاعتراض هو شعورك بـ (الكبر) في حقيقة الأمر، وتلك هي مصيبة المصائب، أن يعتقد أحدُنا في نفسه أنه أفضل من غيره، من أين عرفت؟، وكيف تيقنت؟، ألا يمكن أن يكون من تستقل به هذا هو الأفضل عند الله؟، ألا يمكن أن تكون نهايته وآخرته أفضل منك؟، ألا يمكن أن يكون كِبرك وغرورك هذا في حد ذاته سببًا لإحباط

عملك الذي تتفاخر به؟، ألا يمكن أن تكون قد اغتررت بنعم الله عليك (الصحة، الجمال، المال، العلم، الجاه، السلطة) وظننت أنها من نفسك وبفضلك أنت، فأصبحت كالأعمى المخدوع الذي يظن أنه خير الناس بلا منازع؟.. استيقظ.. لن يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر، أي من كان يعتقد أنه أفضل من بقية خلق الله لمجرد أن الله فضله عليهم في بعض المجالات، ناسيًا أنه من الممكن أن تسلب منه كلها وتوهب لغيرة في لحظة.

5) أتعرف أنه عندما تحسد أحدًا أو تحقد عليه أنك تهديه أفضل ما لديك؟، فأنت تعطيه من حسناتك.. تخيَّل!!، فكِّر معي في هذه النقطة وحدَها ستجد أنك أنت الخاسر بكل المقاييس عندما تحسد، فلا أنت قادرٌ على سَلْب الشخص المحسود النعمة، ولا أنت قادرٌ على ضره، أو نفع نفسك، بل والأكثر من ذلك أنك تفيده وتنفعه.. تعطيه من حسناتك وكدك وتعبك على طبق من فضة!!.. أيٌّ ساذج أنت؟؟، فلقد نبَّهَنَا الرسول عليه الصلاة والسلام أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، فتخيَّل معي أنك تصدَّقت بمالٍ وفيرٍ، أو صُمت يومًا شديد الحرارة، أو قاومت نفسك لتقوم الليل في ليلة باردة، ثم تأتي يوم القيامة لتجد كل هذا وقد ذهب لفلان.. لماذا؟، لأنك حسدته!!.. فقد تتمنى لو أنك تستطيع يومها أن تساعد أباك أو أمك أو أولادك وتهديهم من حسناتك، ولكنك لن تستطيع، بل والأمر من ذلك أنها ستذهب ورغمًا عن أنفك لمن حسدته وكرهته يومًا ما.. ياللخسارة.

6) تذكَّر دائمًا أن الدنيا (دوارة)، وأن ما تعطيه لغيرك اليوم حتمًا وستأخذه منه غدًا، لهذا فإنك إن دعوت لأخيك بظهر الغيب، ردت عليك الملائكة قائلة: (ولك المِثْل)، أي أنك وكأنك دعوت لنفسك تمامًا، لهذا فإن كنت تتمنى الخير وتريد النعمة لنفسك - وكلنا هذا الشخص- فالأسهل لك أن تدعو بها لغيرك، بدلًا من أن تتمنى زوالها منه، فكُن على ثقة أن ما ستتمناه له سيأتيك أنت في يومٍ من الأيام، ولو حتى بعد حين.. فأيهما أفضل؟ أن تدعو له بالخير أم بالشر؟.

7) كم وددت لو أصبح هناك دراسة عملية لحساب كمية الطاقة المفقودة عندما يحسد أو يحقد الإنسان، ولكن حتى وبدون حساباتٍ ألا تشعر أنت نفسك بأن دمك يغلي؟، وأن حرارتك ترتفع؟، وأن جسمك يرتعد؟، وأنك تصبح في أسوأ حالٍ ممكن حينها؟، ألا تشعر أنت بنفسك وقد كرهت الدنيا بما فيها؟، ألا تشعر أنت بنفسك أنه لا يمكن لك أن تستمتع أو أن تشعر بأي شيءٍ إيجابيٍّ حولك حينها وربما لبعدها بفترة من الوقت؟.. لماذا يا أخي؟.. أيُّ نفع سيعود عليك من هذا؟، حافظ على هدوئك ورضاك، وسلامك الداخلي أوفر لنفسيتك ولصحتك، أنت تحرق في نفسك فعلًا لا قولًا في مثل هذه الأوقات، والأدهى من ذلك أنه بلا فائدة أو طائل، فلن يغير سخطك في الأمر شيئًا إلا بإذن الله.

• وفي النهاية.. وباختصارٍ شديدٍ: ماذا عليك أن تفعل عندما تشعر ببداية لعب الشيطان في صدرك بدفعه لك على الحسد؟

أول شيء عليك فعله عند رؤية نعمة الغير أن تقول (ما شاء الله لا قوة إلا بالله)، لتذكِّر نفسك أن ما تراه ليس إلا بإرادة الله وبحوله وقوته، لا بمهارة الغير وتفوقه، ولا بإرادته وبرغبته، ولا لأنه عزيزٌ على الله، ولتذكر نفسك أيضًا بأن الله قادر على منحك مثله وأكثر إن أراد.

الخطوة الثانية هي أن تدعو لهذا الغير بالبركة، قل ولو حتى في سرك (اللهم بارك له)، فبذلك أنت تدفع عن نفسك فكرة أنك تريد أن يصيبه مكروه، أو أن تنتزع النعمة منه، بل بالعكس أنت تسأل الله أن تدوم بل وتزيد له وعليه.

الخطوة الثالثة أن تدعو لنفسك بالمثل، قل: (اللهم بارك له وارزقنا مثله، أو خيرًا منه)، فأنت بذلك تثلج صدرك من ناحيته، وتطمئن نفسك بأن الملائكة تؤمن على دعائك وأن الله سيستجيب لك حتمًا ولو بعد حين.

اغسل نفسك أيها الإنسان من هذا الدنس، طهِّر روحك وقلبك، أرح عقلك وفكرك، تمنَّ الخير لك وللغير، ودَع الأمر كله لله، فلا أنت ولا غيرك يملك نفعًا ولا ضرًّا لنفسه فضلًا عن غيره.

علاج التشتت وعدم التركيز

أغلبنا الآن يعاني من إحساس دائم بالتشتت والتخبط وعدم التركيز، شعور بأن هناك شيئًا ما -لا نعرفه- ناقص باستمرار، بأن هناك أمورًا لم تُنجَز أو لم تكتمل، أو بأن أمورًا أخرى يجب فعلها، أو أننا نسابق الزمن والوقت لسبب لا نفهمه..

هذا هو تمامًا ما يعرف بشتات القلب، فالفكر مبعثرٌ، والعين حائرة، والعقل لا يهدأ، والنوم خاطف، ولا مكان إطلاقًا لراحة البال، مما أدى إلى ظهور الشكوى المنتشرة بين الصغير والكبير الآن، وهي الشكوى من النسيان وعدم التركيز.

هذا في أمور حياتنا بشكل عام، لكن الأمر يزداد وضوحًا، ويتعاظم خطرًا بشكل خاص في الأوقات التي يحتاج فيها الإنسان إلى جمع قلبه، كالصلاة أو الدعاء أو غيرها من العبادات، التي يرجو فيها الإنسان صفاء الذهن وتفرغ النفس.. ولكن هيهات، فهذه شكوى أخرى واسعة الانتشار أيضًا هذه الأيام، ألا وهي عدم القدرة على جعل القلب يقبل على الله، وعدم وجود الهمة والقوة الدافعة لذلك.. فلا القلب حاضر، ولا النفس خاشعة، ولا الجوارح مطمئنة..

فكيف يأتي السلام الداخلي وهدوء القلب وسكينة النفس؟.. كيف لنا أن نوقف هذا اللهاث المحموم ولو لبعض الوقت؟

كنا قد تناولنا الحديث الشريف (من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) من قبل كدواء للحقد والحسد، ولكننا في هذه المرة سنتناوله من زاوية مختلفة تمامًا، لنجده يصلح أيضًا كعلاج لما نعانيه من شتات العقل والقلب والتفكير.

في البداية يجب لنا أن نعرف أن قلب الإنسان تمامًا كالوعاء، لا يمكن أن يبقى فارغًا، ولا يمكن أن تضيف عليه شيئًا وهو مملوء بشيء آخر، فهو دائمًا به شيء، مشغول بشيء، ممتلئ بشيء، إما أمور هامة وذات قيمة، وإما أمور تافهة ولا معنى لها، المهم أنه لا يمكن أن يظَلّ فارغًا، فإذا شبهنا الأمور الهامة بالماء، والأمور التافهة بالزيت مثلًا، فسنجد أنه يجب علينا تفريغ الوعاء -الذي هو القلب- من الزيت قبل أن نضيف إليه الماء، فهما لا يجتمعان أبدًا في وعاء واحد، لا بُدَّ لأحدهما أن يطرد الآخر، وهذا تمامًا ما يحدث في قلوبنا، فإما تملأها بأمور نافعة، أو بأمور لا قيمة لها، وهذا يتفق تمامًا مع قول (ابن تيمية): (نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل).

إن انشغال الإنسان بـ (ما لا يعنيه) يساوي تمامًا تركه لما (يعنيه)، فإما هذا وإما ذاك، فقد روى أبو عُبَيدَه عن الحَسن - كلامًا في غاية الخطورة- قال: (مِن علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شُغلَه فيما لا يعنيه)، ولهذا أيضًا قال الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث (من حسن إسلام المرء) أي من اكتماله ، لأن الانشغال بما لا يعني يُسبِّب العكس تمامًا وهو (نقص إسلام المرء)، لأنه إذا انشغل بما لا يعنيه لن يكون هناك فسحة من الوقت، ولا مساحة من العقل، ولا مجال في القلب لما يعنيه، والذي فيه نفعه وصلاحه وأي خير له.

وقد قيل نفس المعنى في أحد تفاسير الآية الكريمة (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) الأحزاب 4، فكما لا يمكن لإنسان أن يكون له قلبان، لا يمكن أيضًا لقلبٍ أن يكون له اهتمامان متناقضان ومختلفان مع بعضهما البعض، لهذا قال (ابن مسعود) في هذا الشأن (إذا أراد الله بعبدِهِ خيرًا سدَّدَهُ وجعل سُؤالِه عما يعنيه وكلامه فيما ينفع).

• لكن ما هو معيار (ما لا يعنيه)؟.. وقد سبق وذكرنا أنه هو كل شيء تستطيع العيش بدونه، فإذا فكرت في أي أمر فوجدته زائدًا عن حاجتك ويمكنك الاستغناء عنه فهو لا يعنيك (قولًا وفعلًا ونظرًا وفكرًا).

وما هو معيار (ما يعنيه)؟.. هو أحدُ أمرَيْن:

إما شيء ينفعه في دنياه، أو ينفعه عند مولاه، أي إما يكون شيئًا مفيدًا لتحسين دنياك أو آخرتك، وكل شيءٍ عدا ذلك فهو لا يعنيك.

*من أمثلة (ما لا يعنيه):

- الكلام الزائد:

في الحديث الشريف: (مَن يضمن لي ما بين لِحيَيهِ وما بين رِجلَيهِ أضمن له الجنة)(صحيح البُخاري).. وفي حديث عن مُعاذ رضي الله عنه الذي في آخرهُ قال النبي صلَّى الله عليه وسلم (كُف عليكَ هذا فقلتُ يا نبي الله وإنَّ لَمُؤخِذون بما نتكلم قال: سَكِلتكَ أمك يا مُعاذ وهل يَكُب الناس في النار على وجِهِم أو على مَناخِرهِم إلا حصائد ألسِنَتِهِم)(سُنن التِرمذي).. وفي حديثٍ آخر (مَن كفَّ لسانه ستر الله عز وجل عورته).

والكلام الزائد هو (كل ما لو سَكَتَّ عنه لم تأثم ولم تتضَرَّر في حالِ ولا مَأَل)، أي كل الكلام الذي لا نفع في قوله، ولا خسارة في تركه.

فالتقصي والسؤال والحديث عن أحوال الناس، زيجاتهم، أولادهم، أعمالهم، أموالهم، مسكنهم، مركبهم، مأكلهم، ملبسهم، أسفارهم، مشترواتهم، ممتلكاتهم، دخولهم ومصروفاتهم.. إلخ ليس إلا مثالًا صارخًا عن (ما لا يعني الإنسان) بكل معنى الكلمة، لأنه ليس كلامًا زائدًا فحسب، بل لأنه قد يدخل تحت بند الغيبة والنميمة وما هو أكثر وأسوأ.

- فضول السمع:

كأن يهتم الإنسان بمتابعة حوار قائم بين اثنين بينما هو ليس طرفًا في هذا الحوار من الأصل، أو التركيز مع مكالمة أحدهم التليفونية، أو تعمُّد الاستماع إلى ما يريد الغير إخفاءه، أو ما هو أكثر من ذلك كالتجسس أو التصنت واستماع حوارات الآخرين سرًّا، وهو الأمر المنهي عنه صراحة في القرآن الكريم {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا } (سورة الحجرات الآية 12).. كل هذا قد يتحرق الإنسان شوقًا لسماعه من باب الفضول، خاصة وإن كان الحوار عن أو بين أشخاص ذوي أهمية بالنسبة له، لكنه وفي حقيقة الأمر من أكثر ما ينطبق عليه وصف (لا يعنيه).

- إعمال العينين واليدين فيما لا يفيد:

كالتنقل بين جريدة وأخرى أو من قناة لأخرى بلا هدفٍ، أو من موقع إلكتروني إلى غيره لمجرد قتل الوقت، أو كالوباء الذي أصبنا به حديثًا وهو التقليب في مواقع التواصل الاجتماعي مثلًا بالساعات سعيًا خلف أخبار الناس، وصورهم، وكلامهم، أو البحث فيما يخصهم من معلومات.

- إعمال القدمين فيما لا يفيد:

أوضَح مثال على هذا الأمر هو التجول بين المحلات وفي الأسواق دون وجود حاجة لذلك، فهذه الأماكن جعلت ليشتري الإنسان حاجته، أي جعلت كوسيلة لقضاء حوائج الناس، لا غاية في حد ذاتها كما يحدث عند الكثير من الناس.

• أما بخصوص موضوع جمع القلب في الصلاة خاصة، أو في العبادات عمومًا توجد لمحة جميلة جدًّا، فقد قال الله في بداية سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون- الذين هم في صلاتهم خاشعون-

والذين هم عن اللغو معرضون).. يقول المفسرون لماذا جاءت (عن اللغو معرضون) بعد (في صلاتهم خاشعون)؟.. قيل لأن الإعراض عن اللغو وترك (ما لا يعني) الإنسان هو الذي سيؤدي إلى صفاء ذهن الإنسان وجمع قلبه، فيخشع في صلاته.. فعلًا تفسير حقيقي جدًّا، ويستحق منا التدبر.

• إذا ما هي الخطوات العملية لجمع القلب؟

أولًا: تحديد نقاط الضعف:

فلكل منا نقاط ضعف مختلفة عن غيره، فمِنَّا من يهتم بأخبار الناس والقيل والقال، ومنا من يهتم بالسفر والتنزه والرحلات، ومنا من يهتم بالتليفزيون والأفلام والمسلسلات، ومِنَّا من يهتم بالنت ومواقع التواصل والشات، ومنا من يهتم بالمطاعم والمأكولات والمشروبات، ومنا من يهتم بالأناقة والأزياء وأحدث الصيحات، ومنا من يهتم بالمنزل ونظافته وأناقته وبفخامة المفروشات، ومنا من يهتم بالأصدقاء والزملاء والاجتماعيات.. وأغلب هذه الأمور أمور مباحة، لا إثم على من يهتم بها، لهذا فنحن لا ننتبه ولا نشعر بأي مشكلة إذا أفرطنا فيها، فهي حلال ولا شك في ذلك.. لكن الخطر كل الخطر يحدث عندما تأخذ هذه الأمور أكبر من حجمها الطبيعي في حياة أحدنا، عندما تشغل حيزًا من تفكيره أكبر مما تستحق حقًّا، فتطرد أي شيء آخر، ولا يصبح هناك أي مجال للأمور الأكثر أهمية، والتي تحدد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: الصدق والرغبة الصادقة في ترك ما لا يعني، فالأمر لن يكون سهلًا، والضمان الوحيد لنجاح الإنسان فيه هو أن يكون يريده بصدق وبإخلاص، حتى يصبر على محاسبة نفسه في كل صغيرة وكبيرة يفكر فيها، وحتى يستطيع المقاومة، وحتى يتمكن من إعادة المحاولة بعد كل سقطة أو هفوة.

ثالثًا: الصبر على التدريب:

فالتوقف عن التفكير فيما لا يعني الإنسان لن يأتي بين يوم وليلة، خاصة مع اعتياد الإنسان على العيش والتفكير بطريقة معينة، فالأمر يحتاج إلى تدريب على (إعادة تقييم) الأمور، فقبل أن يسمح المرء لأي أمرٍ بأن يشغله يجب أن يعتاد أن يمرره أولًا على (المعيار) أو (الفلتر) الذي سيحدد له إذا ما كان هذا الأمر مهمًا ونافعًا فيكون مما يعنيه، أو لا فيكون مما لا يعنيه.

رابعًا: الاستعانة بالله باستمرار على النفس وتقلباتها وتطلعاتها وفضولها، وعلى الشيطان وتزيينه المستمر لكل ما لا ينفع بل ويؤذي ويضر.

وختامًا نذكر المثال الذي ضربه الله في الآية الكريمة {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (سورة الزمرد الآية 29)، ففي هذه الآية تساؤل مُهِمّ.. هل يستوي الرجل - المقصود هنا العبد أو الخادم- إذا كان مِلكًا لسيد واحد فقط، يأمره بأشياء معينة ومحدودة، مع إذا كان مِلكًا لمجموعة من الأسياد المختلفين والمتشاكسين، يأمره كل منهم بأمور مختلفة ومتضاربة في وقتٍ واحدٍ؟.. هل يستوي صفاء الذهن ووضوح الرؤية والهدف مع تضارب الأهداف والأهواء والرغبات؟

أنت الآن تعرف، وأنت الآن عليك أن تختار، فإما أن تشغل نفسك بما يعنيها، وما ينفعها في الدنيا والآخرة، وإما أن تتركها لتضل وتنشغل بما لا يعنيها، وحينها لا تلوم إلا نفسك.

الإحساس بالظلم و(حرقة الدم).. الديان

• مَن منا لم يتعرض لظلم في يومٍ ما؟، مَن منا لم يقهر من أحدهم ذات مرة؟، مَن منا لم يستغل بسبب ضعفه في وقتٍ ما؟، من منا لم يساء إليه في موقفٍ ما؟

كلنا لدينا ذكريات من الماضي، وربما تكون لا زالت قائمة في الحاضر، نشعر معها بنار القهر، وحرارة الظلم، وتغلي بسببها دماؤنا رغبةً في أخذ الحق، أو رد الاعتبار، أو الثأر للنفس.. من مدير أو صاحب عمل متسلط، من جار مؤذٍ، من صديق خائن، من قريب حاقد، من أب قاسٍ، من أم مهملة، من زوج جاف، من زوجة متجبرة، من أهل زوج متربصين، من أهل زوجة متعالين، أو حتى من أبناء عاقين.. كُلٌّ منا ذاق الظلم من كأس مختلفة، ولكن المرارة والحرقة دائمًا واحدة، وحتى ولو انتهى الظلم، أو ربما مات الظالم، إلا أن شيئًا ما في الصدر يستمر ويبقى لما بقي من عمر، وقد يكون بالقوة والسيطرة الكافية لأن ينغص على المرء حياته، ويحرمه أي متعة أو راحة ما حيا.. فما الحل؟

• اسم الله (الديان):

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يحشر الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلا. بهما) ، فقلنا وما بهما؟، قال: (ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أهل الجنة حق أقص له منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة)، قلنا كيف وإنما نأتي الله عز وجل عراةً غرلا بهما؟ قال: (بالحسنات والسيئات).

ومعنى الحديث أن الناس يجمعون يوم القيامة كلهم.. عراة، غرلًا أي بدون ختان، بهما أي ليس معهم شيء من متاع الدنيا، فيناديهم الله قائلًا عن نفسه أنه الديان، الذي لن يترك أحدًا ليذهب إلى مصيره الأخير سواء جنة أو نار إلا بعد رد الحقوق، وبعد أن يأخذ كل ذي حقٍّ حقه من ظالمه، حتى ولو كان هذا الحق هو لطمة أي ضربة واحدة، وحتى لو كان المظلوم من أهل النار، وحتى لو كان الظالم من أهل الجنة.. هذا هو الديان الذي لا يغفل عن الظلم، ولا يترك الحق، ولا يهمل وإن أمهل، ولا ينسى وحتى وبعد زوال الدنيا وقيام الساعة.

• معنى اسم الله (الديان): هو المجازي المحاسب الذي يقتص للمظلوم من الظالم فيأخذ الحق من الظالم ويعطيه للمظلوم حتمًا ولا بُدّ.

والدّيان هو الذي يعامل كُلَّ أحدٍ بما قام في قلبه.

فما إن أعرف ويستقر في قلبي أن لي ربًّا ديانًا (يجازي ويعامل كُلَّ أحدٍ بما قام في قلبه)، إلا ويجب أن أهدأ وأترك الأمر إليه، فالحقوق عنده لا تضيع، والمظالم لديه لا تُهمَل، فحتى ولو كان سيدخل أحدهم النار فإنه لن يبخسه حقه في رد مظلمته إليه، وحتى لو كانت من أحدهم الذي سيدخل الجنة..

لكن ما بالنا لا نطمئن لهذا ونكتفي به؟، لماذا لا تهدأ النار بداخلنا حتى مع معرفة أن الرب ديان؟..

لسببين:

الأول: أن هناك فرقًا بين العلم واليقين، فنحن (نعلم) أن الله من أسمائه الديان، لكن اليقين هو العلم الذي يباشر القلب، ويسطر على المشاعر، لذلك فلا تكفي أبدًا المعرفة لتهدئة القلب، ولا يشفي مجرد العلم غليلًا، لأننا بحاجة إلى تذكُّر وتدبُّر هذا الاسم دائمًا، وكلما هاجمتنا هواجس ظلم وكيد الآخرين.

والثاني: هو أننا دائما ننتظر الثأر والانتقام الفوري، والسريع، وعلى مرأى ومسمع منا، وهذا لا يحدث دائمًا، بل قلما ما يحدث، فالحق سيؤخذ والظلم سيرد حتمًا، لكن قد يكون ذلك آجلًا وليس عاجلًا، وقد يكون بشكل لا نتوقعه، وفي وقتٍ لا نعلمه، وفي مكانٍ لا نشهده، بل إنه قد يكون ليس في حياتنا الدنيا من الأصل، وبكون قد تم ادخاره إلى يوم الحساب الأعظم..

كما في الآية الكريمة {اليوم تُجزَى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب} (سورة غافر الآية 17)، وقوله سبحان وتعالى {نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} (سورة الأنبياء الآية 47)، وقوله تعالى أيضًا {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (سورة الزلزلة الآية 7) وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أتدرون مَن المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرِحَت عليه ثم طُرِحَ في النار) رواه مسلم.

هل هناك دليل أكبر من ذلك على أن الناس لن يظلموا شيئًا وأن حقوقهم ستُرَدّ، ولو بعد حين؟، ففي الحديث ينبه الرسول الكريم الناس إلى ألا يطمئن أحدهم إلى أعماله وحسناته لو كان ظالمًا، فسيقتص لكل من ظلمهم منه، فيأخذون من حسناته، وحتى وإن انتهت قبل أن يقتص لهم، فسيأخذ هو من سيئاتهم، حتى يوفيهم حقهم، ولو كان نتيجة ذلك أن يطرح هو في النار.

• ما أثر معرفة الله باسمه الديان؟

1) إنزال الراحة والسكينة والطمأنينة في النفس، فالموقن بهذا الاسم حقًّا لن يحرق أعصابه ودمه حزنًا على ظلم الآخرين، أو كيدهم به، أو إيذائهم له، ولن يضيع عمره ووقته حسرة على عدم قدرته على الدفع عن نفسه، وعلى إيقاف الآخرين عن فعلهم، ولن يهدر جهده وطاقته في محاولة الثأر لنفسه والانتقام ممن ظلموه، فهو مطمئن إلى أن هناك من هو أعلى وأكبر، وأقدر على رد حقه كاملًا بغير نقصان.

2) شفاء الصدر من المعركة الدائرة دائمًا في قلب كل مظلوم.. هل أنتقم لنفسي؟، هل أظلم من ظلمني؟، هل أؤذي من آذاني؟.. أليس هذا من حقي؟

وهنا تجد اسم (الديان) يردك عن محاولة إيلام من آلمك، لأنك ستخشى أن يعاملك الديان بما قام في قلبك أنت أيضًا، فربما تسببت له في ألمٍ أكبر ومصيبة أقوى مما سبَّبها هو لك، فتكون حينها أنت الظالم، وأنت من سيقتص منه.

ولنضرب مثلًا: إذا قام أحدهم بسرقتك، هل سيحق لك أن ترد عليه بالمثل وتسرقه أنت؟، ألن تكون حينها سارقًا مثله؟، وستحاسب على فعلتك مثله؟، فالديان يحصي عملك كما يحصي عمله، والأولَى بك ألا ترد بالمثل لأنك أبدًا لن تكون عادلًا، وحتمًا ستُجَازى بما اقترفت يداك أنت أيضًا.

فلنعرف أن الناس ينقسمون لقسمين قسم أعمى وقسم بصير، القسم البصير هو الذي عرف الله بأسمائه وصفاته حق معرفته، والقسم الأعمى هو الذي لم يذق لذلك العلم طعمًا، فهل من الممكن أن يقود أعمى بصير؟

3) إنزال هذه المعرفة وهذا اليقين على النفس أولًا، ودائمًا، وقبل أن نطبِّقها على الآخرين، فالعاقل هو من يعرف أنه محاسب ولا مفر على كل فعلٍ، وأنه مردود عليه لا محالة سواء في الدنيا أو في

الآخرة..
فكما روى الإمام أحمد عن أبو الدرداء رضي الله عنه أنه قال: (البِر لا يبلى والإثم لا يُنسَى والديان لا ينام فكن كما شئت كما تدين تدان)، فمحظوظ هو من حاسب نفسه ووزن أعماله وهو لا يزال في دار المهلة والعمل، فلننظر إلى قول عمر بن الخطاب (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم اليوم في الحساب غدًا، أن تُحَاسِبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية).
4) نقطة في غاية الأهمية، وعادة ما نغفلها جميعًا إلا من رحم ربي، وهي أننا مطالبون بأداء الحقوق، وبفعل الصواب، وبالحكم بالعدل مع من نكره كما مع من نحب، فجميعنا يفعل ذلك عن طِيب خاطر مع أحبائه، لكننا نستثقل ذلك، ونتهرب ونتملص منه مع مَن لا يستهوينا، أو مع من لا نرتاح معه..
فلننتبه إلى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} (سورة النساء الآية 135)، أي لا تحملكم كراهتكم لأناس معينين على ظلمهم، أو عدم العدل في معاملتهم، فالله يعرف قلوب البشر وما بها من مdل إلى ظلم من لا تحب، وهو عكس ما يريده منَّا الرب الديان.
فالموقن بهذا الاسم، والمتعبد به أخلاقه لا تتغير، وموقفه لا يتبدل، ولا يكيل بمكيالين، فهو يعرف أن "الراحمون يرحمهم الله"، وأنه (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).
5) عدم الخوف من مكائد الآخرين، فكما في الآية: (إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم مصيبة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط) (سورة آل عمران الآية 120).
لا أحدَ يستطيع قطع رزقك، ولا التفريق بينك وبين زوجك، ولا تقليب الناس عليك، ولا منع الخير عنك، ولا تدبير الشر لك، فالآية وضحت العلاج لكل خائف ألا وهو (ان تصبروا وتتقوا) أي تهدأوا وتوقنوا بالله الديان، وتتقوا ولاتفكروا في رد الشر بالشر، في هذه الحالة (لا يضركم كيدهم شيئًا).
• هل أنت ممن يعانون من عقدة الاضطهاد؟
هناك الكثير من الناس من يشعرون طوال الوقت أنهم مظلومون ومضطهدون ومهضوم حقهم، وغالبًا ما يكون ذلك بلا دليل، وبدون وجه حق، فتجدهم دائمًا ناقمين على الآخرين، شاكين منهم، متظلمين منهم، بل وداعين عليهم أحيانًا..
فإذا كنت أنت منهم فلتتوقف قليلًا.. فكر جيدًا هل يظلمك الآخرون فعلًا؟، أم أنت الذي تظلم نفسك بهذه العقدة؟، فكر لتتوقف عن هذا من اللحظة، ليس فقط لترحم نفسك في الدنيا، وإنما لتنقذها في الآخرة أيضًا، فقد تتوهم أنك مظلوم، وتعيش عمرك كله تكره هذا، وتقاطع هذا، وتدعو على هذا، فتصبح أنت الظالم ، والرب (ديان) يعامل كل امرئٍ بما قام في قلبه، و(شهيد) يشهد على كل ما دار في الحياة الدنيا من جميع المخلوقات، يعلم الغيب والشهادة، يعرف الخواطر وما تكنه الصدور، لا يُخفَى عليه شيء مما يخفى عن كل البشر والمخلوقات.
فلتصحح فكرك واعتقادك قبل أن يأتي اليوم الذي تكتشف فيه خطأ نهجك في الحياة، ولكن بعد فوات الأوان.. {إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (سورة الحج الآية 17)، {إن ربَّكَ هُوَ يفصِلُ بينَهُم يومَ القيامةِ فِيمَا كانوا فيهِ يَختَلِفُون} (سورة السجدة الآية 25)، فلا

اختلاف ولا خلاف يومها حول من المظلوم ومن الظالم، فسيفصل بين الجميع، وتقتص الحقوق من الظالم، فاحرص على ألا تكون أنت هو.

• وقبل أن ينتهي الحديث عن اسم الله الديان، يجب علينا أن نفهم شيئًا ما عن بعضنا البعض نحن البشر، لو أدركناه لاسترحنا كثيرًا، وهو أن (أذى الخلق سُنَّة كونية).. أي إنك حتمًا ولا بُدَّ ستتعرض للأذى وللألم من الخلق والبشر، تمامًا كما تتعرض للضيق من الحر والبرد وغيرهما من سنن الله في الكون.. عندما تعرف هذا لن تتوقع من الغير الكثير ثم يخيب ظنك، ولن تنزههم عن العيوب والأخطاء ثم تصدم فيهم، لا تتوقع الشر ولكن لا تستبعده، فهكذا نحن البشر.

فقد وضع لنا القرآن الكريم قاعدتين في غاية الأهمية للتعامل مع بعضنا البعض:

الأولى: قال تعالى {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} (سورة الفرقان الآية 20).. أي أننا نحن البشر خُلِقنا لنكون فتنة لبعضنا البعض، فقد يفتن الغني الفقير، أو القوي الضعيف، وقد يفتن المحبوب محبه، أو الابن والده، لهذا نبهنا الله إلى ذلك، وأراد أن يختبرنا (أتصبرون؟).

والثانية : قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (سورة فاطر الآية 15) أي: اعرف أن الناس فقراء أي فيهم نقص، فلا تنتظر منهم الكمال، ولا تطلب منهم النفع، ولا تحزن لما تجده منهم من خللٍ وزللٍ، لأنهم كما أقرهم الله في الآية (فقراء)، وماذا بوسع الفقير أن يفعل لفقيرٍ مثله؟، فلا تنهار أو تُصدَم عندما يخطئ الآخرون في حقك، أو يظلمونك، أو يبخسونك قدرك، لأنهم وببساطة شديدة: (ناقصون) بما فيهم أنت نفسك.

أمراض القلوب

(اللطيف والعليم)

- لماذا يجب أن نهتم بإصلاح القلوب؟

أولًا: قد يعتقد البعض أن الإنسان يجب عليه أن يهتم بعباداته، وأن يزيد من أعماله الملموسة، وأفعاله الطيبة وكفى، وأن القلب ليس بمثل أهمية هذه الأفعال والعبادات، ظنًّا منًّا بأنه طالما ظلَّ ما في قلوبنا بداخلنا ولم يترجم إلى أفعال ظاهرة، فنحن غير محاسبين عليه أو مأجورين به، وهذا اعتقاد خاطئ تمامًا، بل إنه معكوس أيضًا، فصلاح الأعمال وقبولها مبني أساسًا على صلاح القلوب ونقائها وسلامتها من الأمراض، وهذا ما وضحه الحديث الشريف: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)، لهذا فالطريق يبدأ من إصلاح القلب، ولا عمل ينفع مهما زاد أو كبر إذا كان القلب مريضًا، فماذا يفعل كثير الصلاة والصيام والصدقة إذا كان القلب ملوثًا بالرياء، أو بالكبر والغرور، أو بالحقد والحسد؟..

{يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُو إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (سورة الشعراء الآية 88، 89).

ثانيًا : لأن القلب هو محل نظر الرب، فكما في حديث أبو هريرة، عن الرسول عليه الصلاة والسلام (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)، وفي قول آخر: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)، فكما ننظف ونزين ونجمل أجسادنا وصورنا التي هي محل نظر الناس، فمن باب أولى أن نفعل ذلك أولًا مع قلوبنا التي ينظر الله إليها طوال الوقت.

ثالثًا: إصلاح القلوب والاهتمام بنواياها هو السبب الرئيسي في رفع الدرجات، وعلو الشأن عند الله، فالناس تختلف في الجزاء والثواب حتى على نفس العمل، فكما قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: (ما سبقكم أبو بكر بكثيرِ صلاةٍ ولا صيام ولكن شيء وقر في قلبه)، فجميعنا يعرف أن الله يجازي على الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، فلماذا يُثاب أحدهم بعشر حسنات، والآخر بمئة، والثالث بسبعمائة؟.. الفرق فقط في النوايا، وفيما كان مكنونًا في القلوب والصدور ليس إلا.

أولًا: اسم الله اللطيف:

- ما معنى اسم الله (اللطيف)؟

للاسم معنيان، أحدهما سيتم مناقشته بالتفصيل في موضعه الملائم، أما الآخر والذي يعنينا في هذا الموضع هو..

الذي أدرك علمه السرائر - أي عرف السر الداخلي الدقيق - واطّلع على مكنون الضمائر، وعلم خفايا ولطائف الأمور، أي الأشياء الدقيقه جدًّا التي تعتمل في الصدور وفي قلبك يعلمها الله .

أو بكلمات أخرى.. هو الذي يعلم بالأمور الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر وفي غاية الخفاء، وبالتالي ومِن باب أولى وأحرى يعلم بالظواهر والجليات.

- كيف سينفع اسم الله اللطيف في علاج أمراض القلوب؟

{وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} (سورة البقرة الآية 235) أي إن معرفة الله باسمه اللطيف سيحث الإنسان دائمًا وأبدًا على الحذر ثم الحذر ثم الحذر، من كل مكنونات نفسه، وكل ما

يجول بخاطره، وكل ما يعتمل في قلبه من أفكار وأحاديث ورغبات، لأنها إن تكن مثقال ذرة من حبة في السموات أو في الأرض يأتي بها الله ، سنحاسب على كل شيء قام في قلوبنا إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

كلنا نعرف أننا سنحاسب، ولكن بعضنا لا يعتقد أنه سيحاسب على ما اعتمل في صدره طالما لم يخرجه للخارج سواء قولًا أو فعلًا، والبعض الآخر لا يستحضر هذا المعنى في ذهنه طوال الوقت، لكننا حينما نعرف وندرك أن من أسماء الله (اللطيف)، وأنه يعرف ألطف وأدق الأشياء بداخلنا طوال الوقت، وأنه لا يُخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء لا سر ولا علانية.. سنعيد حساباتنا من جديد، سنتوقف ولو

للحظات مع أنفسنا قبل أن نسترسل في أي فكرة، سنهتم بما يصدر عنَّا من (لفتات القلوب) سنختار من الآن فصاعدًا أن ننقي سرائرنا كما ننقي ظاهرنا، وأن نجمل محل نظر الله إلينا وهو القلب، كما نجمل محل نظر الخلق إلينا وهو الجسد.

- من أمثلة أمراض القلوب الخفية جدًّا، والتي قد لا ندرك وجودها في قلوبنا..

1) إرادة العلو: كلنا نريد لأنفسنا الأفضل، في كل شيء، في المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب، في الدراسة وفي العمل، في الزواج وفي الأولاد، في الدنيا والآخرة، أليس كذلك؟، وليس في هذا أي عيبٍ، وليس هذا ما نقصده هنا، فكما في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

(لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبرٍ. قال رجلٌ: إنَّ الرَّجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسنًا ونعلُه حسنةً. قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ. الكِبرُ بَطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ)، وعليه فإن رغبة الإنسان في أن يكون حسن المظهر رغد العيشة ليس هو المقصود، وإنما المقصود والذي يعد من كبائر القلوب شديدة الخفاء هو أن تريد ذلك فقط لتكون أفضل ممن حولك، لتكون أعلى منهم، لتكون متميزًا عنهم، لتعلوا ويكونوا هم دونك دائمًا.. أنت دائمًا الأحسن وضعًا، والأفضل حالًا، ليس من أجل نفسك، ولكن من أجل أن تكون أعلى من أقرانك فحسب، فلا أحد أفضل منك، ولا أحد يعلو عليك.. هذا ما يسمى بـ (إرادة العلو)، وهو إحساس دقيق جدًّا، وخفيٌّ جدًّا، وقد لا ينتبه أكثرنا إلى أنه يعتمل في صدورهم.

وقد ذم الله هذا الأمر في قوله تعالى في سورة القصص متحدثًا عن قارون {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (سورة القصص الآية 83).

وفي ذلك قول سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، عندما قال: لو كان أحد فينا يريد أن يكون نعله أحسن من نعل صاحبه، فإنه يدخل في آية { يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ}.

وهنا يوجد مجال لذِكر ملحوظة جميلة قالها الإمام (ابن تيمية) عن سر أفضلية سيدنا (أبو بكر الصديق) عن سيدنا (عمر بن الخطاب) رضي الله عنهما - وكلاهما له قدره الذي لا جدال فيه عند الله ورسوله- فقال إن عمر كان ينافس أبو بكر في كل عمل يأتي به {وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} (سورة المطففين الآية 26)، يتنافس معه في كل ما يقربه إلى الله، أما أبو بكر فقد كان في مقام أعلى لأنه كان يعمل ذلك بدون أن ينافس أحد هو يريد أن يصل إلى أعلى الدرجة عند الله فحسب، لا لأن يصبح أفضل أو أعلى من أحد، وقد أدرك سيدنا عمر هذا، لهذا كان قمة في الأدب والتواضع - وهو عمر الفاروق الذي كان يهابه الشيطان - عندما قال (ليتني كنت شعرة في صدر أبا بكر).

2) العناد والكبر: فقد يفعل الإنسان منا شيئًا معينًا، مبرِّرًا إياه لكلِّ مَن حوله بأسباب منطقية لا يمكن جداله فيها، ولكنه وحده يعرف في قرارة نفسه أنه لم يفعل هذا الشيء إلا عندًا في فلان، أو كيدًا له، أو تنغيصًا وإشقاء له.
كذلك قد ينجح الإنسان في إقناع الآخرين في أنه على حق وعلى صواب في أمرٍ ما، لكنه ومع علمه بأنه قد أخطأ، وأن الطرف المنافس له على صواب، يأبى أن يعترف، ويقاوم أن يقر بالحقيقة، كبرًا منه، فهو أكبر من أن يبدو مُخطئًا، أو ضعيفًا، أو جاهلًا أمام أيِّ أحدٍ، وهذا هو المقصود بـ (بطر الحق وغمط الناس) في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذي أوردناه سابقًا، فالكِبر هو أن تُنكِر الحق مع علمك به، وأن تصر على تجريد الناس من كونهم على صواب فقط لأنك أكبر من أن تكون في الموقف الأضعف.
ويبدوا هذا جليًّا واضحًا عندما يظهر الحق على لسان من نكرهه أو يكرهنا، حينها يجد الإنسان حرجًا شديدًا ومشقة ما بعدها مشقة في الاعتراف بأنه على صواب، ونجد أنفسنا نتهرب من هذا بكل طريق ممكن.. هذا هو عين الكبر بكل أسف.
3) السخط وعدم الرضا: قد يحرص الإنسان على أن يبدو دائمًا راضيًا، متسامحًا، قابلًا بل وسعيدًا بقدر الله معه، راضيًا بحاله، بوظيفته، بماله، بزوجته، بأبنائه، بصحته.. إلخ، ولكن الله وحده يعرف إذا كان هذا هو حقيقة ما في القلب، أم أن القلب يضج بالسخط والغضب ليل نهار، ولكنه فقط يحرص على المظهر الراضي أمام الناس.
قد نقول بألسنتنا إننا راضون، حامدون وشاكرون، لكن اللطيف وحده هو الذي يرى التفات قلوبنا إلى المقارنة بين أحوالنا وأحوال الغير، وهو وحده الذي يعرف كل إحساس بالغيرة أو الحقد أو الحسد مهما دق أو صغر، ومهما بالغنا في الحرص على إخفائه.
4) النفاق: الجميع يعرف أن النفاق هو أن تداهن شخصًا ما بقول ما ليس فيه سعيًا لمصلحة ما أو فائدة ما لك في يده، لكنَّ هناك نوعًا آخر من النفاق أشد وأسوأ، وهو أن يتظاهر الشخص بما ليس عليه فعلًا من تديُّن وتعبُّد وتقرُّب من الله، رغبة في اكتساب المكانة والصيت عند الناس، وهو نوع من أنواع الرياء.
وعن هذا النوع من المنافقين تتحدث الآية الكريمة: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}.. ففي هذه الآية يصف الله حال المنافقين يوم القيامة، حينما يمشون خلف المؤمنين الذين كانوا يتظاهرون أمامهم بأنهم مؤمنون مثلهم..
فيقولون لهم انتظرونا نأتي معكم ونأخذ من نوركم الذي أعطاكم الله إياه، إلا أنه يضرب بينهم سورًا ليفصل بينهم، فيتعجب المنافقون ويسألون المؤمنون ألم نكن معكم؟، ألم نكن نفعل مثلكم وأمامكم في الدنيا؟، فيرد المؤمنون ليقولوا بلى أي نعم كنتم معنا، ولكنكم كنتم منافقين، خدعتم واغتررتم بالدنيا، لهذا فلن تكونوا معنا في الآخرة ولن يكون لكم نورٌ مثلنا.. (يخادعون الله وهو خادعهم) كما في سورة البقرة، فقد كانوا يتصورون أن نفاقَهم سيخفى على الله كما خفي عن الخلق، وأنه سينخدع به ويدخلهم الجنة مع مَن كانوا معهم من المؤمنين الصادقين، إلا أن الله خادعهم، حلم عليهم وأمهلهم حتى أخذهم أخذةً لا رجعة فيها في الآخرة.

كذلك الحديث المعروف عن أول من يسعر بهم النار:
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: {إِنّ أَوّلَ النّاسِ يُقْضَىَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّىَ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ حَتّىَ أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلّمَ العِلْمَ وَعَلّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلّمْتُ العِلْمَ وَعَلّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ حَتّىَ أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ وَسّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ، ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّارِ}. أخرجه مسلم.
فها هي عاقبة النفاق والرياء ومحاولة خداع الله... أول من يدخل النار مجاهد في سبيل الله، وقارئ ومعلم للقرآن، ومنفق في سبيل الله (ظاهرًا)، لكنه وحده العليم الذي يعلم أن (الباطن) كان غير ذلك تمامًا.
5) الرياء: يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من أشرك معي غيري تركته وشركه" رواه أبو هريرة، فالرياء وهو الاهتمام برؤية الناس من أكثر الأشياء إحباطًا للعمل، وتضييعًا للأجر والثواب، بل ودفعًا بصاحبه إلى الهلاك، كما في الحديث الشريف (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينّا إلا ذراع فيصدق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) روته عائشة أم المؤمنين، فالسبب في دخول هذا الرجل المذكور في الحديث النار بالرغم من أنه كان يعمل أعمالًا صالحة طوال الوقت هو وجود دسيسة ما بقلبه، إما أنه كان يرائي بأعماله، ولم يكن قاصدًا بها الله خالصة له، أو أنه أصابه الكبر على الناس بسببها، أو أنه أُعجَب بعمله وبنفسه وهذا ما يسمى بداء (العجب)، وهو من أخطر وأخفى أمراض القلوب أيضًا كالرياء والكبر.. لهذا انكشف أمره، وخاب أمله وافتضحت نيته قبل أن يصل إلى الجنة بذراع واحد، وقضى الله له أن يعمل بعمل أهل النار فدخلها.
6) النصيحة غير المخلصة: فأحيانًا عندما لا نستطيع إظهار ما في قلوبنا صراحة، وعندما لا يليق أن نتكلم بشكل مباشر عما يعتري صدورنا، يتكلم أحدنا إلى الآخر بلسان النصيحة، وبظاهر النفع، لكنه يبطن وينوي الشماتة به والتشفي منه، أو فضحه والتشهير به، أو لومه وتقريعه.. ربما لن تختلف الكلمات المنطوقة، لكن شتان بين نوايا القلوب.
ثانيا: اسم الله العليم:
كثيرٌ منا يعتقد أنه يعرف معنى اسم الله (العليم)، فهو أوضح بكثير من غيره من الأسماء، فجميعنا نعرف أن العليم أي الذي يعلم، وبما أنها في حق الله فإذًا من الممكن أن نضيف إليها (الذي يعلم كل شيء)..
صحيح.. لكننا لا نعرف حقًّا ولا نعي فعلًا حدود عِلم الله هذا، فلو تدبَّرنا الآيات التي ذكر فيها اسم الله العليم - وهي كثيرة- سنكتشف أن لعلم الله خصائص فريدة جدًّا، وخاصة جدًّا.. فمثلًا:
قال تعالى {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} (سورة البقرة الآية
وقال تعالى {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} (سورة النحل الآية 19)

وقال تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (سورة التوبة الآية 78).
{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} (سورة الأنبياء الآية 110).
{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} (سورة إبراهيم الآية 38)
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} (سورة ق الآية 16).

ومن هذا يمكن أن نقول أن معنى اسم الله العليم هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وبالإسرار وبالإعلان، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيءٌ من الأشياء.. وهو أيضًا الذي علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

كما أن هناك خاصيةً مهمَّةً جدًّا لعلم الله تفرقه عن أي علم آخر، وهي (الإحاطة) فهناك فَرقٌ كبيرٌ جدًّا بين من أحاط بكل شيء علمًا، وبين مَن علم فقط..

فالله العليم هو الذي (أحاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا) (سورة الطلاق الآية 12)، (وأحصى كل شيءٍ عددًا) (سورة الجن الآية 28) أحاط علمه سبحانه وتعالى بكل الأشياء سواء كانت من بني آدم، أو من الجن، أو من الأرض أو في السماء من مختلف المخلوقات، ظاهرًا وباطنًا.

كم هو واسع هذا العلم!!.. لهذا فإن الله (العليم) وجاءت الكلمة معرَّفة بالألف واللام لتفيد أن علمه الأعلى، والأدق، والأشمل، والأوسع، والذي لا يضاهيه في علمه شيء أو شخص.

- ما أثر معرفة الله باسمه العليم؟

1) إنه يجعل الإنسان ينتبه إلى أن الله يعلم باطنه كما يعلم ظاهره، وأنه لن يخفى عليه شيء مهما بالغنا في إخفائه عن الناس، واجتهدنا في تجميله أمامهم.. يجعله يدرك أن الله يسمع ويبصر ويعلم حديث نفسه وخواطره صالحها وطالحها أيضًا، وفي كل وقت وحين، فيصلح من نفسه، ويجتهد في جهادها حتى تكون صالحة لنظر الله.

2) كذلك إذا أيقن العبد أن ربه قد أحاط علمًا به وبكل شيء في هذا الكون سيتبع أوامره وينتهي عن نواهيه حتى وإن لم يعرف حكمتها والمقصود منها، فتمامًا كما أنَّ أعلم الناس بأي شيءٍ هو صانِعُه، فإن الله أعلم بالإنسان الذي هو خالقه، وبما يفيده وبما يضره، وبما يصلحه وبما يفسده.

3) معرفتنا باسم الله العليم ستخفف كثيرًا من تعلُّقنا بالآخرين، وبالتالي ستقلل كثيرًا من صدماتنا فيهم وجرحنا بسببهم، فشكوى أغلبية الناس الآن هي أنه لا أحدَ يشعر بنا، لا أحد يعرف ما بنا، لا أحد يعلم حجم الألم أو الضغط أو المعاناة التي بداخلنا.. وهذا هو الطبيعي في الواقع، لأنه لا أحد يعلم ببواطن أنفسنا إلا العليم وحده، ولا قدرة لأحد من المخلوقات الضعيفة الجاهلة الناقصة على معرفة ما بمخلوق مثلها، وعندما نفهم هذا ونعيه لن نصدم في أن أقرب الناس إلينا لا يفهموننا، أو لا يمدونا بالحب والرعاية والاهتمام وقتما نحتاج، فهُم في حقيقة الأمر أضعف وأجهل من ذلك، ولا يعلم ما بالمخلوق إلا خالقه، الذي يطلع على باطنه كما يطلع على ظاهره، والقادر وحده على إمداده بما يحتاج وقتما يحتاجه وبالكيفية التي يحتاجها، فالناس حتى وإن علموا ما بنا ينسون، بينما الله (لا يضل ربي ولا ينسى) (سورة طه الآية 52) ، لهذا فعلينا أن نشكو إليه وحده، ونطلب منه وحده، ونلجأ إليه وحده.. العليم بحالنا دون غيره.

لهذا فإن هناك علاقة قوية بين علم الله وألوهيته، فالألوهية تأتي أصلًا من فعل (وله) أي أحب وتعلق، لهذا لا تتعلق ولا تأله ولا ترجو ولا تطلب إلا ممن يعلم حالك.. عندما تمر بأزمةٍ لا يعلم هذه الأزمة إلا الله، عندما يكون عندك نقطة ضعف معينة لا يعلمها ولا يدبرها ولا يطببها إلا العليم.

4) عندما يحضر في الذهن طوال الوقت أن الله عليم، لن يخشى أحدنا كيدَ أو مكر أو أذى الآخرين، لن يحترق من التفكير في كيفية صد هذا الأذى، فالآية الكريمة تقول:

{ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (سورة آل عمران الآية 120)، لهذا فالموقن باحاطة علم الله لا يقلق ولا يخاف حتى ومع علمه بكيد الآخرين به، فلن يضره أي من هذا إذا حقق الشرطين الموجودين بالآية، وهما : الصبر وعدم السخط على أقدار الله من أذى الناس، والتقوى بعدم الرد عليهم بالمثل ومعاملتهم على النحو الذي يرضي الله حتى وإن بادروا هم بالشر والأذى، فهو يصدق ويؤمن بأنه {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} من الآية (٤٣) سورة فاطر. أي أن الشر والأذى لن يضر إلا فاعله وحسب.

5) اسم الله العليم سيجعلك تراجع نواياك دائمًا في كل ما تفعل، لماذا أنفقت هذه النفقة؟، لماذا ساعدت فلانًا؟، لماذا قلت هذه الكلمة؟.. هل كنت مخلصًا لله في ذلك أم أني أردت رضا الناس؟، فلا مجال للخداع لأن الله عليم.. خبير.. سميع وبصير.

- من أمثلة الخفايا والخبايا التي يعلمها الله، والتي يغيب عن أذهاننا وإدراكنا أنها مرئية ومسموعة ومعروفة أمام الله:

1) اختلاس النظر: سواء كان النظر إلى الناس، أو إلى ما يملكه الناس، فإنه

{ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } (سورة غافر الآية 19)..

فنحن مأمورون بغضّ البصر - بين الجنسين- كما قال تعالى في سورة النور الآية 30، 31: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ)، ومن المعروف أن النظرة الأولى لك والثانية عليك، وهناك كثيرون يحاولون ويجاهدون لتحقيق ذلك، وهناك كثيرون أيضًا من يجيدون تمثيل أنهم يفعلون ذلك، لكن من الذي يعرف أيهما غض بصره وأيهما لم يفعل؟، من الذي يعرف أيهما التزم بحدود النظرة الأولى وأيهما لم يفعل؟، من الذي يعلم أيهما كانت نظرته بريئة حيادية وأيهما كانت نظرته غير ذلك؟.. وحده العليم الذي يعلم هذا.

فعلى سبيل المثال هناك مهن معينة قد تمكن صاحبها من الاطلاع على الأجساد، كالطبيب مثلًا، فإذا فحص الطبيب - أو الطبيبة- مريضه، مَن الذي يعرف هل كانت نظراته الفاحصة تلك بغرض الفحص الطبي أم لغرضٍ غير ذلك؟، مَن الذي يلحظ إذا كان اختلس النظر إلى ما هو أبعد من اللازم للفحص الطبي أم لا؟، من الذي يعلم نية هذا الطبيب في كل فعلٍ وكل لمسة قام بها أثناء فحصه؟.. وحده العليم الذي يعلم ذلك.

كذلك نحن مأمورون بعدم إطلاق البصر فيما يخص ويمتلك الغير، طِبقًا لقوله تعالى في سورة طه الآية 131 (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) لكن مَن الذي يعرف ما إذا كانت نظرات الإنسان إلى ممتلكات أخيه نظرات عادية أم نظرات فضولية نهمة؟، من الذي يرى لفتة العنق الدقيقة وطرفة العين الخفية التي تبحث وتفحص وتدقق في بيت أو سيارة أو حتى ملابس الغير؟، من الذي يفرِّق بين النظرة العابرة غير المقصودة وبين النظرة الموجهة المتعمدة؟.. ليس إلا العليم سبحانه وتعالى.

2) الخواطر غير السوية: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (سورة ق الآية 16)، والتي يندرج تحتها أمثلة كثيرة، فمثلًا:
خاطرة إيذاء الغير، أوالكيد بهم، أو استدراجهم، أو استغلالهم.
خاطرة الغدر أوالخداع أو الخيانة.
خاطرة الدخول في علاقات غير جائزة.
خاطرة فعل أي شيء محرم.
- لكن لماذا كل هذا الاهتمام بالخواطر؟.. أليست مجرد خواطر وليس لها أهمية؟، ولا نحاسب عليها؟..
هنا فسَّر العلماء ضرورة اهتمام كل إنسان بخواطره بشكل تفصيلي غاية في الدقة والصحة أيضًا، فقالوا إن كلَّ فعلٍ خيرًا كان أو شرًّا، كان في الأصل مجرد خاطرةٍ، ولكنه مع كثرة التفكير فيه مرَّ بمراحل عدة حتى تطور إلى أن أصبح فعلًا ملموسًا.
لكن ترى ما هي هذه المراحل؟
1) الخاطرة: هي فكرة تمر على النَّفْس وتذهب، ولا تستقر في الذهن طويلًا، بل تختفي سريعًا ليحل محلها غيرها من الأفكار.
2) حديث النفس: وهي الفكرة عندما يطول التفكير فيها، ويصبح الإنسان يكلم نفسه عنها لفترات أطول، لكنه لم يكن أخذ قرارًا بعد بتنفيذها من عدمه.
3) الهم: هي الفكرة بعدما أصبحت مسيطرة على التفكير، يصحو الشخص وينام وهو يفكر فيها، وربما جاءه بعض التخطيط لها، أو فكَّر في وسائل تنفيذها، لكنه لا زال أيضًا لم ينفذها، ولكنها أصبحت (تهمه)، أو أصبح هو (مهتمًا بها)، ومن هنا جاءت تسميتها بالهم.
4) العزم: هي الفكرة بعدما أخذت القرار بتنفيذها، وفكَّرت في طريقة ذلك، ودبرت وخططت للتنفيذ في وقت محدد، وبشكل معين.
لهذا فإن الذنوب الكبيرة، والمعاصي الشديدة، والجرائم الجسيمة لم يكونوا في الأصل سوى خاطرة، كأي خاطرة تَرِد على الذهن، لكن صاحبها لم يتركها تمر، بل ظلَّ يفكر فيها، حتى تعلَّق بها، فكبرت وزاد حجمها في نفسه وقلبه، فأخذ يدبِّر لها ويسعى لتحقيقها..
من أجل هذا يقول العلماء إن أسهل وقتٍ لمقاومة أي رذيلة هو مقاومتها وهي لا زالت في مرحلة الخاطرة، أو حتى حديث النفس، وعدم السماح لها بأن تتطور لأكثر من ذلك لأنه حتمًا ستصعب مقاومتها كثيرًا إذا أصبحت همًّا أو عزمًا.
كما أن هناك أهمية أخرى لمراقبة الإنسان خواطره، فالخواطر السيئة سببٌ رئيسيٌّ لسوء الخاتمة، فكثير من الناس تنجح في إخفاء ما بداخلها من شرٍّ لفترات طويلة، بل وفي خداع من حولها وإيهامهم بأنهم أشخاص صالحون طيبون، إلا أن الله يأبى إلا أن يفضح مثل هذه النفوس التي طالما حوت الخواطر الرديئة وأبدت عكس ذلك، ومتى؟ في آخر لحظاتهم، في ختام حياتهم، حيث لا يكون هناك أي فرصة للإصلاح أو التعديل، وهذا هو سبب أن تختم حياة أحدهم بفعل سيء أو قول فاحش أو موقف مشين بالرغم من أن من حوله كانوا يعتقدون فيه الصلاح والفلاح، فما كان أحدهم يطَّلع على البواطن وسيء الخواطر سوى الله، ففضح أمره ليعتبر أولي الألباب.
- وما الحل؟.. فالخواطر السيئة حتمًا سترد إلى العقول من وقتٍ إلى آخر.. الحل دائمًا هو أن يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم، وأن يدفع عنه هذه الفكرة بقوة فور ظهورها، بأن يشتت

انتباهه عنها، وأن ينشغل بغيرها، وألا يترك لها الفرصة لأن تكبر وتشغل حيزًا أكبر في نفسه وقلبه.. فالتغلب عليها وهي في مهدِها أسهل بكثيرٍ من بعد ذلك.
وهذا هو جهادُ النفس، وهو من عظائم الأمور وعزائمها، ويؤجر عليه الإنسان بكل تأكيد، كما في الحديث الشريف: "مَن هم بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة ومن هم بسيئة ولم يفعلها كتبت له حسنة".
- لكن ترى هل نحن محاسبون على خواطرنا وأفكارنا؟
يقول العلماء إن الإنسان غيرُ محاسب على أفكاره عندما تكون لا زالت في مرحلة الخاطرة، وحديث النفس، والهم، بل على العكس فإنه مأجور إذا دفعها وقاومها في هذه
المراحل كما في الحديث السابق، لكنه مُحاسَب منذ أن تتحول إلى (عزم)، فهو عند هذه المرحلة يكون قد اتخذ القرار وأصبح في نيته التنفيذ، فهو محاسب على الشيء في هذا الوقت سواء نفذه أو منعته ظروف خارجية من تنفيذه ، أي في حالة أنه لم يمتنع عن تنفيذه بكامل إرادته.
و على سبيل المثال: إذا جاء في نفس أحدهم أن يسرق، ولم يدفع هذه الفكرة، بل وأصبح يفكر فيها كثيرًا فزادت وكبرت، ثم أصبحت شغله الشاغل التي يفكر فيها ليل نهار، فأصبح يفكر في الوسائل والأدوات التي سينفذ بها.. كل هذا هو لا زال لم يتعدَّ مرحلة الهم، ولهذا فهو غير محاسب حتى الآن طالما أنه لم يقرر أنه سيسرق بالفعل، وإذا قاوم نفسه، وطرد الفكرة فهو مأجورٌ لجهاده نفسه والشيطان.
أما عندما يحين الوقت الذي ينوي فيه تنفيذ السرقة فعلًا، فاختار الضحية، وحدَّد الزمان والمكان، ودبَّر كل التدابير والأمور اللازمة، فهو هنا مُحاسَب على هذا، وحتى ولو ذهب لينفذ جريمته ولكنه لم يستطع لأي مانع خارجي، فهو مُحاسَب عليها وكأنه نفَّذها بالفعل، إلا لو كان قد قرَّر بنفسه العدول عن هذا الأمر والعودة عنه باختياره وإرادته قبل التنفيذ، ففي هذه الحالة هو مأجور على عدم تنفيذه لهذه السيئة.
- نقطة أخيرة.. ما الذي يدفعك لكثير الاستغفار؟
علمك أن الله يعلم قليل الزيغ ودقيق التقصير، وعلمك بأن الله يرى كلَّ ما في القلوب الصالح والطالح يجعلك دومًا تطلب المغفرة والرحمة من الله؛ لذلك فإن الملائكة قدمت بهذا التقديم في الآية الكريمة (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) (سورة غافر الآية 7)، أي إنك أنت يا رب وسعت كل شيء علمًا لهذا نطلب منك يا رب أن تغفر للذين آمنوا لأننا نعلم أنه لا يخفى عليك دقائق ذنوبهم التي تُخفَى عليهم.
أيضا فهمك أن الله لا ينسى ما مضى من أفعال وأفكار وذنوب، في حين أنك أنت نفسك تنساها {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} (سورة المجادلة الآية 6)، خصوصًا الذنوب القديمة التي ربما قد أقلع عنها الإنسان أو توقَّف عن فعلها لأنه كَبَر أو لأنه انشغل أو لأن اهتماماته قد اختلفت، لكنه لم يتب منها، يجعله دائمًا يلهج بالاستغفار عسى الله أن يمحوها له، بل إن من أجمل ما قيل في هذه النقطة أنه عندما يبادر الإنسان بالاستغفار كثيرًا وعمومًا على كل شيء، يفتح الله عليه ويُذكِّره بذنوبه التي كان قد نسيها تمامًا، لينتبه إليها ويستغفر ويتوب عنها فيقبل الله منه.

علاج الخوف من المصائب والشدائد والصعاب..

(الصمد)

أليس لك حاجة مستعصية عليك؟.. ألا يوجد لديك ما يخيفك ويقلقك؟.. ألم تمر بشدة أو موقف صعب؟.. لن يطمئن قلبك سوى معرفتك وإيمانك باسم الله (الصمد)، الذي لا يعرف أغلبنا معناه بالرغم من أن كلنا يقرأه في صلاته مئات المرات..

*فما معنى اسم الله (الصمد)؟

في اللغة كلمة (الصمد) تعني من لا جوف له، وكل من له جوف يعتبر ناقصًا لأنه يكون له حاجات، فالإنسان كَسائر المخلوقات لهم جوف، لهذا فهم يحتاجون إلى الطعام والشراب، وإلى قضاء الحاجة، وإلى إشباع الرغبات.. إلخ، لهذا عندما رأى الشيطان سيدنا آدم عند بداية خلقه قال عنه (إنه أجوف ليس يصمد).. أي إنه له جوف، وبالتالي سيكون له حاجات لن يصبر عليها، ومن هنا عرف الشيطان المداخل التي سيدخل بها إلى آدم وبَنيه من بعده، أما الله (الصمد) فهو عكس كل ما سبق، ليس له جوف، لا يدخله أو يخرج منه شيء، أي ليس له حاجات، أي إنه ليس به نقصٌ.. لذلك فإن اسم الله الصمد له معنيان رئيسيان:

- الأول: الذي له صفات الكمال، ولا يلحق به أي نقص..

وهذا تفسير ابن عباس لاسم الصمد، فقال إنه يعني من كمل في قوته وعلمه وحلمه وحكمته وسؤدده، كما كان العرب يقولون (رجل صمد) أي رجل اجتمعت فيه صفات العلم والقوة والحكمة.

- الثاني: الذي يلجأ إليه الخلق ويقصدونه لقضاء حوائجهم، والذي يركنون إليه عند الشدائد.. فبما أن الخلق ناقصون وضعفاء، فإذًا هم بحاجة دائمة إلى من يدبِّر لهم الأمور، ويحمل عنهم المشاق، ويقضي لهم الحوائج، والذي يجب حتمًا أن يكون كاملًا قادرًا لا يعجزه شيءٌ ولا يصعب عليه أمرٌ.. لهذا فإن الله (الصمد) الذي يصمد إليه الخلق لقضاء حاجاتهم.

- و(الصمد) من الأسماء الحسنى التي يقال عنها إنها أسماء جامعة، أي التي تجمع صفات الله عز وجل في كلمة واحدة، مثل اسم (الحي القيوم)؛ لهذا فإن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما بلغه أن أحدهم يدعو الله بهذا الدعاء (اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يُولَد ولم يكن له كفوا أحد) قال عنه أنه سأل الله باسمه الأعظم، الذي دعي به استجاب، مع اختلاف العلماء حول أيّ هذه الأسماء الواردة في الدعاء هو هذا الاسم الأعظم.

• فضل سورة الإخلاص..

لم يرد اسم الله الصمد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة في سورة الإخلاص، والتي يسميها الناس (قل هو الله أحد)، وهي سورة لها شأنها وقدرها من بين كل سور القرآن رغم قصرها وسهولتها قراءة وحفظًا.. فمِنْ من فضلها:

1) أنها تعدل ثلث القرآن: كما قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث: (أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلةٍ ثُلثَ القرآن؟، قالوا: وكيف يقرأ ثُلثَ القرآن؟، قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن).

2) قيل عنها إنها جمعت كل صفات الله؛ لهذا عندما سأل المشركون الرسول عليه الصلاة والسلام وقالوا (مثِّل لنا ربك) أي قل لنا ربك مثل ماذا؟، أو ماذا يشبه؟، ردَّ عليهم بسورة الإخلاص، ففيها

(إثبات لكل كمال) في قوله الله أحد، الله الصمد، وفيها (نفي لكل نقص)، نفت أن يكون لله أصل في قوله (لم يولد)، ونفت أن يكون له فرع في قوله (لم يلد)، ونفت أن يكون له شبيهٌ أو مثيلٌ في قوله (و لم يكن له كفوًا أحد).

3) من أحبَّها أحبَّه الله، كما في الحديث عن عائشة رضي الله عنها: (إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم ب (قُل هو الله أحد) فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي، فقال: سَلُوه لأي شيء يصنع ذلك؟، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي: أخبروه أن الله يحبه).

وشرحُ الحديث أن رجلًا قاد بعض المسلمين في سَرِيَّةٍ (ما يُشبه الغزوة)، فكان يصلي بأصحابه فيقرأ ما تيسَّر من القرآن ثم يختم قراءته بسورة الإخلاص دائمًا في كل ركعة، فلما عادوا من السرية بلغ الصحابة الرسول بهذا الأمر خشيةً أن يكون في ذلك بدعة أو ما شابه، فقال لهم اسألوه لماذا فعل هذا؟، فردَّ عليهم بأنه يفعل ذلك فقط لأنه يحبها لأنها تجمع صفات الرحمن، فما كان من الرسول إلا أن أقره على فعله، بل وبشَّره أن الله يحبه كما أحب هو هذه السورة.

• ما هو نصيب المؤمن من اسم الله (الصمد)؟

عندما نقول إن الله (رحيم) نقول إن للمؤمن حظًّا من هذا الاسم، وهو أنه يجب عليه أن يرحم غيره من المخلوقات، وعندما نقول إن الله (عفو) نقول إن حظ المؤمن من هذا الاسم أن يسامح غيره وأن يعفو عن من ظلمه.. لكن ترى ما هو حظ المؤمن من الاسم؟.. أن يكون هو نفسه في حاجة أخيه، وفي عون غيره، وسببًا في قضاء حوائج الناس ما استطاع، والأحاديث في ذلك الشأن كثيرة:

- عن عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم (ما من إمام أو وَالٍ يُغلِق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته).. أي إنه إذا أغلق الوالي أو الحاكم أو وليُّ أمر الناس بابَه في وجه المحتاج والمسكين منهم، ليس له من الله إلا أن يغلق بابه عزَّ وجل بابه في وجه هذا الولي، فلا يسمع له دعاء، ولا يقضي له حاجة.

- عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أحَب الناس إلى الله أنفعهم، وأحَب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ مِنْ أن أعتكف في المسجد شهرًا، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظمَ غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومَن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل)..

وفي هذا الحديث معانٍ كثيرة رائعة، فكثيرٌ منا يعتقد أن أحَب الناس إلى الله حتمًا سيكون أكثرهم عبادة، أو أكثرهم عملًا، أو حتى أشدهم صبرًا.. لكن إذا بالأمر أيسر من هذا كله، فلكل منا فرصة لأن يكون أحَب الناس إلى الله بأن يكون نافعًا لمن حوله، يفرح قلب هذا، أو يفرج كرب هذا، أو يقضي دَين هذا، أو يسد جوع هذا، بأي شكلٍ وبأي طريقة وعلى قدر استطاعته، المهم أن يكون نافعًا للناس.. فيصبح أحب الناس إلى الله.

المعنى الآخر الجدير بالالتفات إليه هو أن سعي الإنسان في حاجة أخيه، وهو الأمر الثقيل على قلب أغلب البشر؛ لأنه يستهلك وقتًا وطاقة وربما مالًا أيضًا، إلا أن أجره أيضا ليس بالأجر الهين،

فهو خير من اعتكاف شهر.. أي يا أيها الإنسان لا تبخل بوقتك وجهدك ومالك وعلمك على أخيك، ولا تحسب قضاءك لحاجته سيضيع هباء أو سيضيع عليك خيرًا، أبدًا.. فقط كُن في عونك وسيفيض الله عليك من كرمه وعطائه الذي لا حدود له.
والمعنى الثالث في قوله (مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها) أي حتى تتم وتنتهي كما ينبغي وكما يحب، يفيد الإخلاص والسعي الجاد والرغبة الصادقة في قضاء حاجة أخيك، وليس مجرد سعيٍ ظاهريٍ صوريٍّ، بلا قلب وبلا روح وبلا حماس حقيقي، تمامًا كما لو كانت حاجتك أنت نفسك، وأنك أنت من تتمنى نجاحها..
أما مَن فعل هذا وبذل هذا البذل الخاص، فليس له إلا أجرًا خاصًا أيضًا، ليس كأي أجرٍ، وهو تثبيت قدمه يوم تزل الأقدام.
- عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تعالى عبادًا اختصهم بحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عذاب الله).. ما أجمل هذا الحديث!، وما أروع هذه البشارة!، فمَن منَّا لا يرجو أن يكون آمنًا من عذاب الله؟، ومَن منَّا لا يفكر كيف يتجنبه؟.. ها هو الطريق.. كن ممن يفزع إليه المحتاجون، فتكون عونًا صادقًا لهم، فتأمن يوم الفزع الأكبر بإذن الله.
- عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تعالى أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحوَّلها إلى غيرهم).. أما هذا الحديث فهو جَرسُ تنبيهٍ لكلّ مضن وهبه الله نعمة ما سواء كانت مالًا أو سُلطةً أو منصبًا أو ما شابه، انتبه.. أفِق.. فهذه النعم ليست إلا لتساعد بها الناس، لا لأن تستأثر بها وتبخل بها عن غيرك، فهي دائمة معك ما دُمتَ أنت تنتفع بها وتنفع بها غيرك، أما إذا أصابك الشُّح والبخل والأنانية يومًا ما بها، فلا تلومن إلا نفسك، لأنها ستزول لتذهب إلى غيرك، مَن سيعملها ويستخدمها في إعانة الناس والتيسير عليهم.
- وأخيرًا.. عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء، وعليكم بصدقةالسر فإنها تطفئ غضب الله عز وجل)..
وفي هذا الحديث ترغيب من نوع آخر في فعل الخيرات، ومساعدة الناس، والبقاء عند حاجتهم، فيا من تستعجل جزاءك في الدنيا اطمئن، فلفعل المعروف جزاؤه العظيم أيضًا في الدنيا قبل الآخرة، وهو الوقاية من (مصارع السوء) أي الموت بشكلٍ مُفجِع أو بطريقة صعبة، كما أن صدقتك في السر ستكون لك سترًا من غضب الله عليك في الدنيا والآخرة.
• كيف أنتفع باسم الله الصمد؟
فهم معنى أن ربك (صمد)، واليقين بهذا المعنى يهون على قلب المؤمن الكثير من المخاوف، وييسر عليه الكثير من الصعاب والشدائد..
فيا من فقدَ عزيزًا، ويا مَن لا تجد سندًا، ويا من يخاف المستقبل وخباياه وابتلاءاته، ويا من تخشى الفقر، ويا من تخافي من الوحدة، ويا من يحمل هم الكبر والشيخوخة والمرض.. لا تخف، لك رب صمد تأوي إليه في الشدائد..
ويا من عندك حاجة مستعصية.. صعبة.. بعيدة المنال، يا مَن لا يجد عملًا، يا من لا تجد زوجًا، يا من لا يجد رزقًا، يا مَن لا يجد ولدًا، يا من لا يجد أمانًا ولا راحة.. أقبِل فلك رب صمد كمل في

قوته وعلمه وقدرته وحكمته وعطائه، سيعطيك كل ما ينقصك ولا يبالي، فهو من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

علاج الحيرة وكثرة المشاكل وتعقد الأمور..

(الهادي والفتاح)

مشكلتي ليس لها حل.. لا أعرف كيف أخرج من هذا المأزق.. أشعر وكأن كل الأبواب قد أُغلِقَت في وجهي..

لا أستطيع أن أفهم هذا الأمر، أو هذا الشخص، إنه غامض جدًّا، ومُبهَم إلى أبعد الحدود.. أشعر أني تائهٌ ولا أعرف أي الدروب أسلك..

تتملكني الحيرة.. لا أستطيع أن أتخذ القرار.. لا أعرف ما هو الاختيار الصحيح.. كل الطُّرُق مجهولة ومظلمة، ليس لدي أي دليل في أيهم أمشي، وأيهم أختار..

أليس هذا لسان حالنا جميعًا، ولو في وقتٍ ما في حياتنا؟، ألا يوجد في حياة كل منَّا مشكلةٌ مستعصية؟، أو عقبة عويصة؟، أو أمر محير؟، أو خطوة غامضة؟.. ألا يحتاج كل منا إلى معين يفتح له الأبواب المغلقة، ودليل يرشده إلى الطريق الصحيح؟.. إنه الله (الفتاح) (الهادي)..

- ما هو (الفتح) كما وردَ في القرآن الكريم والسنة المطهرة؟

جاءت كلمة الفتح على أكثر من معنى:

1) (النصر).. كما في قوله تعالى (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) 19 الأنفال، أي إن تستنصروا أو تطلبوا النصر.

2) (الحكم بين الناس) أو (القضاء بين الخصوم).. كما في قوله تعالى {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} (سورة الأعراف الآية 89)، أي يا رب احكم بيننا وبين من يختصمون معنا من قومنا.

3) (استخراج مغاليق الأمور) أو الوصول إلى ما يصعب الوصول إليه.. كما ورد في الحديث الشريف عن الرسول عليه الصلاة والسلام (أعطيت مفاتيح الكلم..) وفي رواية أخرى (أعطيت فواتح الكلم..)، أي يسر الله له من الفصاحة والبلاغة بحيث يمكنه التعبير عن المعاني الغامضة والعبارات الصعبة بأيسر أسلوب، وبأبسط الكلمات، وبأوجزها وأقلها أيضًا..

فعلى سبيل المثال.. عن عمرو بن سفيان الثقفي، قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: (قل آمنت بالله ثم استقم).. ففي هذه الجملة المكوَّنة من 5 كلمات فقط تعريف شامل للاسلام، وبالرغم من أنها موجزة إلا أنها واضحة ولم تخل بالمعنى، وهذا من نعم الله على النبي الكريم، فقد أوتي (مفاتح) الكلم.

- إذًا ما معنى اسم الله (الفتاح)؟

1) إنه هو من يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.. خصوماتهم.. خلافاتهم.. حقوقهم، سواء كان حكمه هذا في الدنيا أو في الآخرة.. فإذا كنت مظلومًا، أو مهضومًا حقك، أو عاجزًا عن إظهار الحق، أو غير قادر عن الدفاع عن نفسك.. فلا تخف فربك الفتاح وحده هو القادر على أن يظهر الحق، ويفصل بينك وبين خصومك.

2) إنه هو من يفتح لعباده كل مشكل ومنغلق.. فإذا كثرت عليك المشاكل، وأظلمت الدنيا في وجهك، وضاقت عليك الأرض، وأغلقت في وجهك كل الأبواب.. فلك رب سمى نفسه ب (الفتاح) حتى تلجا له في مثل هذه الأوقات.

3) إنه هو من يفتح أبواب الرحمة، والرزق، والبلاء والاختبار أيضًا..
{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (سورة فاطر الآية 22).
{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} (سورة الأنعام الآية 44).. ولنا هنا مع هذه الآية وقفة..
فالمقصود منها أي عندما نسي الناس ما كانوا يعرفونه ويذكرونه من الحق والخير والصلاح، كانت لهم عقوبة أن فتح الله عليهم كل الأبواب، وقد تكون هذه الأبواب أبواب مشاكل وعقبات، حتى ينتبه الإنسان إلى تقصيره عندما يجد أن كل شيء في حياته فجأة أصبح معقدًا ومُغلقًا، وقد تكون هذه الأبواب أبواب مِنحًا ونعمًا وعطايا، ليفرح الإنسان بما أتاه الله، وتلهيه الدنيا، ويظن في نفسه خيرًا، فينصرف أكثر عن ربه، فيؤخذ فجأة، وهو (مبلس) أي حيران ومندهش وتائه عن السبب.
ولننتبه إلى قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به).. قال نسوا، أي إنهم كانوا ممن يعرفون الحق، أي إنهم لم يكونوا جاهلين ووصلهم العلم بالله وبشرائعه وأحكامه، كما أنهم نسوا ولم يتعمَّدوا الابتعاد والإنكار والإدبار، ولكنهم نسوا أي (غفلوا).. وتلك هي آفة المؤمنين، ومَن منَّا لا يغفل إلا من رحم ربي؟، فنحن نسمع ونقرأ ونتعلم، لكننا قد يأتي علينا الوقت فتأخذنا الدنيا، ويفتر الحماس، وتقل الهمة، وشيئًا فشيئًا يبتعد الإنسان عن ربه اليوم بعد الآخر دون أن يشعر.. فيرسل الله له الرسالة تلو الأخرى علَّه يفهمها ويعود، فإن لم يحدث يفتح عليه أبواب كل شيء كما في الآية، إمعانًا في الاستدراج، وزيادة في إقامة الحجة عليه، حتى يأخذه الله فجأة في وقت ما.
• ما معنى اسم الله (الهادي)؟
هو الذي يرشد خلقه وعباده، ويدلهم على ما فيه صالحهم ونفعهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، كذلك يرشدهم إلى اتقاء ما يضرهم..
ولكن ترى هل الهداية كلها نوع واحد؟، أو بمعنى آخر: هل يتعرض كل الناس لنفس الهداية؟..
الإجابة لا، للهداية أشكال وأنواع مختلفة، لكل نوع منها هدف وغرض معين..
• فما هي أنواع الهداية؟
1) الهداية العامة: وهي هداية كل المخلوقات إلى مصالحها، وإلى كل ما يستقيم به معاشها، وهذا النوع من الهداية يشمل جميع المخلوقات.. (الذي خلَقَ فسوَّى• والذي قدَّر فهدَىَ) (سورة الأعلى الآية 2، 3)، ومنها:
هداية الرضيع فور ولادته إلى ثدي أمه، يبحث عنه بفمه وهو لا يرى شيئًا، ويلتقمه ويعرف كيف يحصل منه على اللبن.
هداية الطيور إلى كيفية الطيران، وإلى أماكن هجرتها، وإلى الطريق الصحيح إلى وجهتها المقصودة، بالرغم من طول المسافات وبُعد الأماكن.
هداية صغار الحيوانات إلى أمهاتها دون غيرها، وإلى كيفية الوقوف والحركة والركض، وإلى كيفية الصيد للمفترس منها، وإلى كيفية الهرب للأليف منها.
هداية النحل إلى أماكن الرحيق، وإلى طريق العودة إلى بيوتها، وإلى النظام الدقيق الذي تبنى به وتعيش خلايا النحل، وإلى كيفية صنع العسل.

هداية الحشرات إلى كيفية الحصول على قوتها، وكيفية تخزينه بحيث لا يفسد، وإلى طريقة البيات الشتوي والاتقاء من البرد.
هداية كل البهائم والهوام والحشرات إلى طريقة التآلف والعيش فيما بينها، على هيئة قبائل وجماعات لكل فردٍ فيها دور يعرفه ويقوم به، كما قال تعالى (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (سورة الأنعام الآية 38).. فقد هدى الله كل هذه المخلوقات وهيَّأ لها حياتها بنظام وإدارة تصلح لها وتنفعها.
2) هداية الإرشاد والبيان: وهذه الهداية تخص الثقلان فقط، أي الإنس والجن دون غيرهما من المخلوقات، لأنهما هما المكلَّفان.. إلى ماذا؟ إلى وجود الله، والايمان به، وإلى صراطه المستقيم، لهذا سمي هذا النوع من الهداية بهداية (الدلالة) أيضًا، أي أنها هداية تدل على الله عز وجل.
وهذه الهداية هي حجة الله على خلقه، فلا يحاسبهم إلا بعد أن يوصلها إليهم، وتكون عن طريق: الأنبياء والرسل، الكتب السماوية، الشرائع والأحكام الدينية التي ترسم الطريق الصحيح للوصول إلى الله عز وجل.
فلنا أن نتخيل أنه كان من الممكن أن يخلق الله الإنسان دون أن يرسل له أي رسالات أو رسل، تاركًا إياه يهيم على وجهه، يبحث وحده فيما حوله، فيهتدي مَن يهتدي، ويضل من يضل، لكن الله لم يخلق الناس وتركهم هملًا، بل رحمهم بإرسال مَن يأخذ بأيديهم ويدلهم على وجوده أولًا، وعلى تعاليمه وأوامره ونواهيه ثانيًا، وعلى طريقة الوصول إلى رضاه وجنَّتِه لمن أراد.. فيالها من هداية عظيمة، كان من الممكن أن يهلك البشر بدونها ولاشكّ.
وقد يتساءل البعض: لكن ترى هل تعرض هذه الهداية على كل الناس؟.. والإجابة أنه وكما ذكرنا من قبل أن هذا النوع من الهداية هو حجة الله على خلقه، فلا يحاسبهم بغير أن يعرضها عليهم، فهداية الإرشاد تلك تعرض على كل أحد، المؤمن وغير المؤمن، المسلم وغير المسلم، العربي والأعجمي، بطرق ووسائل ورسائل مختلفة، فنحن قد كرَّمَنا الله بأن وُلِدْنَا لآباء مسلمين فلم نبحث ونتساءل، ولم ننتظر إشارات ورسائل الهداية لنا، لكن هذا ما يحدث مع كل من لم يولدوا مسلمين.. تعرض عليهم الهداية مرات ومرات، وفي مواقف مختلفة، وبأشكال متباينة، كُلٌّ بما يناسبه ويلائم تفكيره، ولكن الناس ما بين (أعمى) لا يفهم رسائلَ ربه، أو يتجاهلها بعد أن فهمها، و(بصير) ينتبه ويلتفت عند كل إشارة، فيدخل نور الهدى إلى قلبه وعقله، فأبدًا لا يظلم الله أحدَهم، ويحاسبه بغير أن يكون قد سبق وعرض عليه الهداية مرات ومرات.. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (سورة النساء الآية 40)، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (سورة يونس الآية 44)، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة التوبة الآية 115) (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (سورة الأنعام الآية 39).
ويحكي القرآن قصص أقوامٍ عُرِضَت عليهم الهداية، فأنكروها، ورفضوها، واستحبوا الكفر على الإيمان، كما حدث مع قوم ثمود:
(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة فُصِّلت الآية 117).

وكما حدث مع اليهود من إنكار لنبوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وتكذيبهم به وبرسالته، بالرغم من أنهم كانوا يعرفون أنه هو رسول الله حقًّا؛ لأن صفاته وعلاماته موجودة عندهم في كتابهم من قبل، مما جعلهم يعرفونه جيدًا كما يعرف أحدُهم ابنَه، بل وينتظرون ظهوره طوال الوقت، لاعتقادهم أنه كان سيكون واحدًا منهم، لكن الكبر دفعهم إلى تكذيبه ومحاربته عندما ظهر من العرب وليس منهم.. {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (سورة البقرة الآية 146).

وكما حدث أيضا مع النصارى، الذين بشَّرَهم نبيهم عيسى عليه السلام بنفسه بقدوم رسول من بعده، وذكر لهم اسمه، وذلك في الإنجيل الصحيح قبل تحريفه، إلا أنهم وبالرغم من ذلك كذَّبُوه واتهموه بالسحر (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بَعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين) 6 الصف.

إذًا فالهداية تعرض على كل أحدٍ قبل أن يحاسب، ولكنه وبكل أسفٍ ليس كل من تعرض عليه الهداية يستجيب لها.

3) هداية التوفيق: وهي أن يهدي الله الإنسان لئن يعمل بما علم، أو بكلمات أخرى أن يشرح صدره لقبول الحق والعمل به، فليس كل من يعلم يعمل، وليس كل من يسمع يعي، وليس كل من يعرف يكن عنده الهمة لتنفيذ ما عرفه..

{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ} (سورة الأنعام الآية 125)، {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (سورة الأعراف الآية 178)، {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (سورة المائدة الآية 16).

لذلك فإن هذا النوع من الهداية يخص الله به عباده المؤمنين، الصادقين، المخلصين في إرادة القرب منه {إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا } (سورة الأنفال الآية 70)، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (سورة العنكبوت الآية 69).

وهذا ما وضحه الله عز وجل إلى الرسول الكريم في قوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (سورة القصص الآية 56)، أي إنك يا محمد لست أنت من يهدي الناس، فأنت عليك بلاغهم، ولكنك لا تملك شرحَ صدورهم ولا توفيقهم إلى العمل بما بلغت، وهذا أيضًا هو نفس المعنى في قوله تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) 272 البقرة، وقوله {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (سورة فاطر الآية 8).

لهذا كانت دعوة (أولي الألباب) هي {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} (سورة آل عمران الآية 8)، وكانت دعوة موسى عليه السلام {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} (سورة طه الآية 25)، ولهذا أيضًا ندعو الله كل يوم مراتٍ ومراتٍ في الصلاة حين نقول {اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ} (سورة الفاتحة الآية 6)، وكان الدعاء الذي علمه الرسول عليه الصلاة والسلام للإمام علي رضي الله عنه (اللهم اهدني وسددني).

فإذا أمعنَّا التفكير قليلًا وسألنا أنفسنا.. مَن الذي يحركنا للصلاة ولو في أقسى الليالي برودة؟، مَن الذي يقوينا على الصيام ولو في أشد الأيام حرارة؟، من الذي يرضي نفوسنا لتجود بالصدقات؟،

من الذي يزرع في قلوبنا الرغبة والحماس لمساعدة الغير؟، من الذي ييسر لنا العلم عنه؟.. لو كنت صادقًا مع نفسك ستعلم جيدًا أن كل ما وُفِّقت إليه من خير، وكل ما عصمت عنه من شر، لم يكن من نفسك، وإنما كان لتوفيق الله لك، وإرادته إياك.. ليس إلا.

4) هداية الآخرة: أما هذا النوع من الهداية فلا يحدث في الدنيا، وإنما في الآخرة حيث سيهدي الله كل إنسان إلى مقعده من الجنة أو النار، فيقال إن الفرد منَّا سيذهب إلى مكانه وإلى بيته حينها وهو أعرف به من مكانه وبيته وعنوانه في الدنيا، هكذا دون أن يسأل أو يتخبط أو يضل، سيعرفه بهداية من الله حينذاك.

• كيف نستفيد من اسم الله الهادي؟

جميعنا يعرف ما يسمى بعبادة (الاستخارة)، والتي هي صلاة ركعتان نتبعهما بدعاء الاستخارة المشهور الذي علَّمَنا إياه الرسول عليه الصلاة والسلام، والتي يصليها الإنسان قبل أن يأخذ قرارًا، أو يختار شيئًا، أو يفصل في أمرٍ، وهي تكون خاصة بموقف معين، أو بحدث محدَّدٍ..

لكن مَن منَّا يعرف شيئًا عن عبادة (الاستهداء)؟.. فلاستهداء ليست صلاة كالاستخارة، ولكنها عبادة قلبية فقط، فهي مناجاة الله وطلب الهداية منه في جميع الأوقات والأحوال والمواقف، فهي ليست مرتبطة بحدثٍ ما، ولا بزمنٍ مُعيَّن كما في الاستخارة، وإنما هي حالة من الاتصال المستمر بين العبد وربه، يطلب فيها منه الهداية إلى الخير، والإرشاد إلى الصواب، والعون على تنفيذه.

وهذا هو حالُ المؤمن مع ربه (الهادي).. يعتمل صدره، ويلهج لسانه بالاستهداء في كل وقتٍ وحينٍ، في بيته، مع أهله، في عمله، في اختياراته، في كلامه، دائمًا وأبدًا يطلب - بقلبه- الهداية من الهادي لينير له بصره وبصيرته.

• إذًا اسما الله (الفتاح) و(الهادي)..

اليقين بهما، وتدبر معناهما، والدعاء بهما هم سبُل حل كل مشكلة معقدة، وفتح كل بابٍ مغلقٍ، وإيضاح كل خفي ومبهم، واختيار الأصوب والأنفع، والتخلص من أي حيرة أو تردد أو شك.. فاللهم يا فتاح افتح لنا كل مشكل ومنغلق، ويا هادي الدنيا والآخرة اهدنا إلى كل ما تحبه وترضاه.

الخوف من الابتلاءات والمصائب..

(اللطيف)

قد يقضي الإنسان فترة كبيرة من عمره -وأحيانًا عمره كله- مترقبًا لحدوث ما يسوؤه، خائفًا من وقوع أي مصيبة، مشفقًا على نفسه وعلى أحبابه من أي شدة، قلِقًا من أن يعصف أي ابتلاء بحياته..

وكلما مَرَّ به أي مصاب زاد خوفه، واشتد ارتجافه، وارتفعت دقات قلبه تحسُّبًا لما تحمل إليه الأقدار من مفاجآت، كما تجده يتعجب كيف لأصحاب المصائب تلك -التي يهابها هو- الاحتمال؟، من أين جاءوا بهذا الجلد؟، ومتى كانوا بهذه القوة؟، ومن أين لهم بهذا الصبر والسَّكينة؟

كل هذا الخوف والجزع من الشدائد، وكل هذا التعجب من صبر وتحمُّل أصحاب الابتلاءات ، ليس إلا لأننا لم نعرف الله حقًّا باسمه (اللطيف)..

• ما معنى (اللطيف)؟

للاسم معنيان، الأول وهو العالِم بالأمور الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر وفي غاية الخفاء ومن باب أولى وأحرى علمه بالظواهر والجليات، وهذا المعنى سنناقشه بتفصيلٍ أكثر في موضع آخر مناسب له.

أما المعنى الثاني وهو الذي يعنينا في موضوعنا الآن : هو الذي يصل الى العباد بطرق لا يشعرون بها، وهو الذي يوصل الى عباده وأوليائه مصالحهم بلطفه وإحسانه من طُرقٍ لا يشعرون بها.

فالشيء اللطيف هو الشيء الدقيق يصل إلى العباد من طُرقٍ لا يشعرون بها ولا يحتسبونها، أما اللطف فهو أن الطريقة التي تصل إليك بها مصلحتك طريقة لا تشعر بها ولم تكن لتمر على خاطرك.

• ما هي آثار معرفة اسم الله اللطيف؟

• عندما يعرف الإنسان اسم الله اللطيف في الكروب، لا بُدَّ أن يحسن ظنه بربه، لأنه سمى نفسه اللطيف، أي أنه سيوصل له -من حيث لا يشعر ولا يحتسب- رحمةً تخرجه مما هو فيه، وبطريقة لم يكن يتخيلها، وينزل عليه صبرًا واحتمالًا لم يكن يعتادهما في نفسه في الأحوال العادية.

• عندما يوجد اليقين باسم الله اللطيف وأنت في قلب المصيبة ستتلمس روح الفرج ونسيمه وتتذوقه وتشعر به.. عندما توجد الثقة بالله أنه عزَّ وجل لطيف ستنتظر بكل تأكد اليسر الذي سياتي مع هذه الشدة، تصديقًا لقوله تعالى {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} (ورة التين الآية 5).

• عندما نستوعب أن الله لطيفٌ بعباده سنتأكد حينها أننا سنستطيع المرور بأي محنة قدَّرها الله لنا بسلامٍ، والخروج منها بنجاح، فهو مَن قال: {لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وسْعَها} (سورة البقرة الآية 286) فهو بلطفِه يجعل لكل إنسانٍ الابتلاء الذي يسعه تحمله، أو يجعل نفسه وسعًا لهذا الابتلاء بطُرقٍ خفية ولطيفة ودقيقة لا يعرفها حتى الإنسان نفسه.

• لذلك في الكروب لا بُدَّ أن يُحسِن العبد الظن بربه أنه لطيف سيخرجه من كربه من باب لطيف لا يقدره بعقله.

- لكن إذا كان الأمر بهذه البساطة، ما الذي يحول بيننا إذًا وبين اليقين في لطف الله؟، لماذا لا نصدق أنه سيلطف بنا إذا ابتلانا؟، لماذا لا نثق حقًّا من كل قلوبنا بأن (إنَّ معَ العُسرِ يُسْرًا)؟

أولًا: لأننا مشغولون دائمًا بالحسابات المنطقية والعقلانية، متعلقون دائمًا بالأسباب فقط، فمثلًا تجدنا نشعر بالأمان إذا كان لنا مالٌ، أو منصب، أوسلطة، أو معارف أو أو أو.. فنقول إن تلك المشكلة سيقوم بها فلان، وتلك سيحلها المال، وتلك سيتغلب عليها المنصب أو السطوة، أما إذا انعدمت هذه الأسباب نجدنا خائفين، قلقين، شاعرين بأنه طالما انعدمت الأسباب انعدم الأمان، ناسين أن مُسبِّب الأسباب هو الذي سيوجدها عند الحاجة إليها، كذلك أنه لطيف قادر على حل أي مشكلة وتجاوُز أي صعوبة بطرق لطيفة لم تكن تخطر يومًا على بال.

قد نتذكر صعاب الماضي وكيف مرت بنا، ولكننا نرجعها دائمًا خطأً للأسباب أو للظروف وقتها، فنقول مرت لأني كان عندي صحة، أو مال، أو شخص يساعدني، لكنها وفي الحقيقة مرت لأن الله دبرنا حينها بلطفه، وسخَّر لنا ما يعيننا على المرور بها بسلام، وليس للأسباب الظاهرية التي نفكر فيها دومًا.

ثانيًا: لأننا نعتقد أن الصبر والجلد والقوة والتحمل عند المصائب والشدائد تكون من الشخص نفسه، ونحن نعرف أننا ضعفاء، لا طاقة لنا بالشدائد ولا بالمصائب، لكنه وفي حقيقة الأمر آن لنا أن نعرف أن هذا الاعتقاد خاطئ كل الخطأ، وبعيدٌ كلَّ البُعد عن الواقع، "فالشدائد ليست مقياسًا لقوة الشخص، ولكنها مقياس لقوة تعلُّقه بالله"، الذي سيلطف به ويخفف عنه، ويهوِّن عليه، فيجعله يمر بها ويتحملها على عكس ما ظنَّ في نفسه من ضعف وخوف.

فنحن نقول ونكرر كثيرًا: (لا حول ولا قوة إلا بالله) دون أن نعيها، فهي إقرارٌ صريحٌ بأنه لا حائل لأي ضررٍ، ولا قوة لجلب أي نفع إلا بالله، لا بقوتنا ولا بقدرتنا ولا بإمكانياتنا البشرية الضعيفة المحدودة.

ثالثًا: لأننا نظن دومًا أن الابتلاءات شر محض، ودلالة على هوان العبد على ربه.. وهذا اعتقادٌ آخر خاطئ جدًّا، فكثير من المنح كانت المحن هي الطريق اليها، وأشد العباد ابتلاء كانوا الأنبياء والصالحين..

وفي قصة يوسف عليه السلام أكبر دليل على ذلك، حيث قدَّر الله له أمورًا كانت شرًّا وبلاءً في ظاهرها، لكنها عادت بعاقبتها الحميدة على يوسف وأبيه، فكانت في مبدئها مكروهة للنفوس، ولكن في نهايتها اتضحت فوائدها والتي هي أجلُّ الفوائد، ولهذا قال سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ} (سورة يوسف، الآية 100)، أي إن ما حدث له من رمي في البئر، وبُعدٍ عن أبيه وأهله، وعبودية ورِقّ، ومكر امرأة العزيز، وحسد إخوته له قبل كل هذا لم يكن إلا تهيئة لما سيصبح عليه ولما سيصل إليه من حُكمٍ وسُلطةٍ وجاهٍ، لهذا قيل عن يوسف عليه السلام أن (البئر كان طريقه للقصر).

كذلك في قصة موسى عليه السلام مثالٌ آخر، فقد كان إلقاؤه في البحر رضيعًا، وهو الأمر شديد الصعوبة عليه وعلى أمه، عظيم الفائدة، فائدة لم تكن تخطر لأمه على بالٍ، ولم يكن بوسعها حتى تخيُّلها؛ لأنه كان سبيله إلى قصر فرعون حيث قمة الأمان والراحة والرعاية التي لم يكن ليجدها في بيت أمه المتواضع البسيط الذي كان يضج بالخوف والترقب.

الكروب ستحدث حتمًا، والشدائد ستأتي ولا بُدَّ ، لأننا في الدنيا والتي هي دارُ ابتلاء واختبار {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (سورة الملك الآية 2) وتعب وعناء {لَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} (سورة البلد الآية 4)، ولكنها ستمر شأنها شأن أي شيءٍ، وسنخرج منها بأي حالٍ من الأحوال، لكن المهم هو على أي حال سنخرج منها؟.. هل سنخرج منها بقرب أكثر من الله، ومعرفة أكبر له، وتعلُّق أشد به، وفي هذه الحالة نكون قد نجحنا في الاختبار، أم بكبيرة من أشد كبائر القلوب وهي سوء الظن بالله، وفي هذه الحالة نكون قد سقطنا في الفتنة؟

عندما يأتيك الهاجس.. كيف سأكفي عيالي؟، أو كيف سيكون حالي إذا خسرت مالي؟، أو كيف لي أن أصمد إذا فقدت أحبابي؟، أو كيف لي أن أتحمل لو مرضت بداءٍ عضالٍ؟، أو كيف سأتحمل إذا أصابني ما أصاب غيري؟.. تذكر فورًا أن من دبَّر لك الماضي سيدبر لك المستقبل، وسيمكِّنك بلطفه وفضله ومنته من تحمُّل أي شيء كُتِب عليك، وتذكر أيضًا كم من أزمات ومواقف صعبة خرجت منها سالمًا من قبل، وأنت حتى لا تعرف كيف حدثَ هذا، إذا رجعت بذاكرتك إلى الوراء حتمًا ستجد الكثير من الدلائل والإشارات على لطف الله الذي طالما غفلت عنه أو جهلته.

عندما تجد نفسك تمر بشدة تلو الأخرى، فلتعلم أنك لست من نقصٍ إلى نقص بل من لطف إلى لطف، ولكن المهم في كل هذا أن تبصرهذا اللطف، وأن تدرك وتعي رسائل الله عز وجل لك، فالله عز وجل يريد أن يوصل لك رسالة معينة من كل شدة، فلا تتعامل مع هذه الرسالة بإغلاقها قبل فتحها؛ فهل يقوم أحدنا بإلغاء رسالة له من جواله قبل فتحها؟، أو بتمزيق مكتوب له قبل قراءته؟..

عندما نتمهل ونتدبر لطف الله بنا في ما يمر بنا من مواقف، وعندما ندرك تهيئته لنا بمثل هذه المواقف والشدائد والصعاب نكون قد فهمنا الرسالة، أما عندما لا نبصر ولا نفهم ولا نخرج منها سوى بالسخط والغضب نكون بذلك قد مزقنا الرسالة قبل قراءتها، ولم نتعلم منها شيئًا بكل أسفٍ.

لا تعامل ربك بالقلق، لا تتعامل مع الله بخوف وريبة، لأن ربك اللطيف الذي حتى وإن ابتلاك بالمصيبة فسيعينك عليها، وينزل عليك الرحمة التي تخففها من حيث لم تكن تحتسب.

علاج الغفلة والتعلُّق بالدنيا..

موعظة جبريل

أخطر حائل يحول بين الإنسان وربه هو انشغاله الدائم بأمور دنياه حلوها ومرها، غفلته عن أنه سيلقاه، نسيانه أن عمره قصير وأنه إلى نهاية، ظنه أن الدنيا هي أول وآخر المطاف..

فأغلبنا يعيش في الدنيا وكأنه سيعيش أبدًا، غير قادرين على نزع حبنا لها وتعلقنا بها من قلوبنا، ظانين أننا خلقنا لها، ناسين أنها إلى زوال مهما فعلنا.. لكن ترى هل من علاج لهذه الغفلة؟، هل من معين يضع حدًّا لهذا التعلق؟

حديث الرسول علية الصلاة والسلام: أتاني جبريل فقال: (يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، وعمل ما شئت فإنك مجزي به.. واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزة استغنائه عن الناس)..

قيل عن هذا الحديث أنه يضع قواعد الحياة، ويشملها جميعًا بالرغم من قلة عدد كلماته، ويلخصها في 4 قواعد:

1) عش ما شئت فإنك ميت.
2) أحبب من شئت فإنك مفارقه.
3) اعمل ما شئت فإنك مجزي به.
4) شرف المؤمن قيامه بالليل.

وقبل أن نناقش كل قاعدة على حدة ونحاول الانتفاع منها في علاج ما يعترينا كبشر من غفلة، هناك لفتة جميلة تحدَّث عنها العلماء في هذا الحديث، وهي أنه في هذا الحديث تكاد تكون هذه هي المرة الوحيدة التي ينادي فيها سيدنا جبريل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام باسمه، فقال (يا محمد) ولم يَقُل يا رسول الله، أو يا نبي الله، أو حتى يا عبد الله.. ترى لماذا؟.. قِيل لأنه عندما توجّه أيَّ حديثٍ لأي شخصٍ وتبدأه بالنداء عليه يجعله ينتبه أكثر، ويلتفت أكثر، لأنك تُشعِره بأنك هو المخاطب، وأن الحديث موجَّه إليه شخصيًّا وليس مجرد كلمات تقال بشكل عام، وفي هذا الحديث الذي قيل عنه أنه (يصف الحياة) أراد جبريل عليه السلام أن يجمع الرسول الكريم كلَّ سمعه وقلبه وفكره معه.

كذلك عندما قال في منتصف الحديث (واعلم) تشعرك وأنت مجرد قارئ أو مستمع عادي للحديث أنه سيأتي بعدها أمرٌ جلل، مهم وعظيم يستحق كامل الانتباه واليقظة..

فإن كان هذا ما أراده جبريل من الرسول الذي ومن المؤكد أنه كان في غاية الانتباه والتركيز في كل أوقاته مع جبريل حامل الوحي إليه، فما بالنا نحن الغافلون.. التائهون.. الهائمون على وجوهنا أغلب أوقاتنا.. ألسنا نحن أحق بأن نصغي ونعي؟

القاعدة الأولى: (عش ما شئت فإنك ميت)

- كلنا نعلم أننا سنموت، لكن من منا يتصرف على هذا الأساس؟.. بالطبع ليس المقصود من أن نعيش بهذه القاعدة هوأن نعيش في حالة حزن وكآبة في انتظار الموت كما قد يتصور البعض، لكن المرجو منها هو أن نشعر دائمًا أننا في مرحلة مؤقتة من حياتنا الحقيقية، وأنها إلى زوالٍ، وبسرعة؟.. قليلون بكل تأكيد، لماذا؟.. لأن هناك فرقًا كبيرًا جدًّا بين (العلم) و(اليقين)، فالعلم

بالشيء هو عكس الجهل به، كلنا نعرف أن الموت قادمٌ لا محالة، لكن اليقين هو أن يتحول هذا العلم إلى (عقيدة مُسيطرة على القلب) فتتحول المعلومة إلى (شعورٍ) يلازمني طوال الوقت، ثم إلى (فكرة) تسيطر على عقلي ليلَ نهار، ثم إلى (سلوك) وتصرفات أجد نفسي أقوم بها تبعًا لتفكيري وإحساسي المستمر بهذا الشيء الذي أعتقد فيه.

وهذا هو المطلوب، وهذا ما نقصده عندما نقول لأي شخص رجاء اسمعني بقلبك وليس بأذنيك فقط، فمجرد العلم بالشيء لا يكفي أبدًا إلى تحريك الإنسان، والمعلومة تصبح شيئًا حياديًّا لا نفع فيه ولا ضرر حتى تتحول إلى سلوك محسوس ينفع الإنسان.. وهذا هو المرجو من هذا الحديث -وغيره بالطبع- والذي يسمى بـ (موعظة جبريل) عليه السلام.

- في الماضي كنت أسمع كثيرًا الشيوخ يقولون (لا تتعلقوا بالدنيا) (الدنيا قصيرة) (الحياة الحقيقة ليست هي الدنيا) (الحياة دار ممر وليست مستقرًّا).. وكنت أتعجب من أقوالهم تلك، ولا أفهمها حقًّا، فقدكنت أقول في نفسي: كيف تكون الحياة قصيرة؟ إنها سنوات وسنوات، يكبر فيها الإنسان ويمر بمراحل مختلفة وجديدة طوال الوقت.. فكيف تكون قصيرة؟، وكيف لا أتعلق بها وهي كل ما أعرف؟، فمَن منّا رأى غيرها حتى لا يتعلق بها؟، وكيف أنها ليست هي الحياة الحقيقية بكل ما بها من مباهج ومُتَع ومغريات؟، أين تكون الحياة الحقيقية إذًا؟.. هكذا كنت أفكر عندما كنت أصغر من ذلك، وكنت بحاجة إلى من يجعل هذه المقولات تلمس قلبي بدلًا من أني أسمعها كثيرًا وتمر على أذني مرور الكرام..

إلى أن جاء اليوم الذي سمعت فيه أحدهم يقول: افترض أن الإنسان منَّا عاش لأطول فترة ممكنة، كم سيعيش؟ 100 سنة؟ فلنفرض، ثم ماتَ بعدها ليعيش في قبره (حياة البرزخ) لمئات أو آلاف السنين أو ربما أكثر، كما يرقد الإنسان الأول في قبره منذ مئات الآلاف من السنين، حينَها لو قمنا بعمل عملية حسابية بسيطة بقسمة المئة عام الذين عاشهم الإنسان في الدنيا على آلاف السنين التي عاشها في قبره؛ فماذا سيكون الناتج؟.. الناتج صغيرٌ وبسيطٌ جدًّا بلا شك، فما بالُنا لو قسَّمنا هذه السنوات المئة على ما لا نهاية؛ لأنه بعد يوم القيامة ستكون حياة الخلود التي لا نهاية لها، فماذا سيكون الناتج إذًا؟.. لا شيء فعلًا وصِدقًا لا خيالًا.. أليس كذلك؟.. تلك كانت المرة الأولى التي أعي فيها بالفعل أن حياتنا قصيرة جدًّا، بل جدًّا جدًّا، بحيث أنها تكاد لا تُذكَر بجوار الحياة الآخرة، التي تستحق وبجدارة أن تكون هي الحياة الحقيقية بكل تأكيد.

لهذا تقول الآيات الكريمة في سورة المؤمنون {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} (سورة المؤمنون الآية 112، 113).. فعلًا ما الحياة الدنيا في الحياة الآخرة إلا يومًا أو حتى بعض يوم.

- لهذا يقال إننا نعيش في الدنيا حياةَ (ذوق) أي تذوق لا حياة كاملة، فالألم فيها مجرد تذوق للألم الحقيقي، والفرح فيها مجرد تذوق للفرح الحقيقي، والمتع فيها ليست إلا ذوقًا لما ستكون عليه المتع في الآخرة.

كذلك شبهوا الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة بشخص غمس إصبعه في البحر، فخرج مبللًا ببعض القطرات من المياة، فالبحر هنا هو الآخرة، وتلك القطرات البسيطة التي بللت الإصبع هي حياتنا الدنيا.

- لكن هل يمكن أن يعيش سعيدًا عندما يعرف أن حياته قصيرة إلى هذا الحد؟

أغلب الناس تكره سيرة الموت، وتعبس وتتجهم عندما يذكرها أحدٌ بقرب الأجل، فلماذا أراد جبريل أن يجعلنا ذاكرين لهذا الأمر طوال الوقت؟، وهل من الممكن أن تطيب الحياة بعد أن تسيطر على مشاعرنا هذه الفكرة؟
أراد جبريل -وهو حامل وحي الله- أن يذكِّرنا بهذا طوال الوقت لأنه يجعل الإنسان يعيش أسعد في الحقيقة، فهو لن يبكي على كل شيءٍ ينقصه، ولن يندم على كل شيء يفوته، ولن يتحسر على كل شيء يخسره.. فعندما يكون الإنسان على يقين بأن الحياة قصيرة، ومؤقتة، وستمر سريعًا كيوم أو بعض يوم على ماذا سيبكي؟، ولماذا سيندم؟، وعلى ماذا سيتحسر؟
سيتذكر أنه في دار الابتلاء والنقص والفقد، فلن يضيع عمره متوقعًا لأن تكتمل، منتظرًا لأن تكون مثالية، باحثًا عن استيفاءِ كُلِّ حقوقه ورغباته ومتعه، باحثًا عن السعادة المطلَقَة..
سيكون لديه إحساس دائمٌ بأن هناك عوضًا، هناك ما هو أفضل، هناك ما هو أكثر، هناك ما هو أدوم، خاصة إذا كان ترك ما تركه أو فاته ما فاته من أجل الله، سعيًا لرضاه وتجنُّبا لغضبه، فمِن المؤكد أنه سيجد حتمًا المكافأة والتعويض يومًا ما، ولكنه ليس كأي يوم، إنه يومُ الخلود.. ألن يكون الإنسان أهدأ وأكثر اطمئنانًا بهذا؟، ألن يقل فزعه وهلعه عند كل فرصه تفوته، أو مع كل شيء يخسره؟، ألن يعيش أسعد؟..
بل إن الله عز وجل قال عن أنبيائه أنه اختصَّهم بنعمة كبيرة، وأخلصهم ونقَّى قلوبَهُم له وحدَه بأن رزقهم التذكُّر الدائم للدار الآخرة، كما في سورة ص الآية 45، 46 {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}.. هكذا أراد الله لأنبيائه أن يعيشوا، في تذكُّر مستمر للدار الآخرة ولفناء الدنيا.
- والسؤال الأهم الآن هو: ترى كيف يمكن للإنسان أن ينتفع من هذه القاعدة؟
عندما يدرك الإنسان أن وقته في الدنيا مهما طال محدودٌ، وأنه لديه مدة محددة للعمل، سيفهم أنه لا مجال للمماطلة والتسويف وتضييع الوقت، سيقدر قيمة أن كل يوم يمر عليه ينقص من عمره، ويقربه من أجَلِه.. سيشعر بمعنى أن رأس مال الإنسان في الدنيا هو وقته فعلًا، فإما أحسن إنفاقه والتصرف فيه، فاستثمره في كل ما سيعود عليه بالخير في آخرته وحياته الحقيقية، وإما أضاعه يومًا وراء اليوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة تلو السنة، بين انشغال بأمورٍ لا تفيد، أو كسل، أوتسويف، أو ما هو أسوأ من كل هذا وهو.. الغفلة، فأغلبنا إلا من رحم ربي غافلون عن أن الحياة الدنيا وسيلة وليست هدفًا، وسيلة للوصول إلى النعيم الحقيقي والحياة الخالدة الأبدية.
لو افترضنا أن متوسط عمر الإنسان في هذه الآونة حوالي 70 عامًا، فبعملية حسابية بسيطة نعرف أنه سيعيش 25550 يومًا تقريبًا.. لا أخفيكم سرًّا لقد تعجبت من ضآلة الرقم عندما رأيته، فقد كنت أعتقد أنه سيكون آلافًا مؤلفة، إلا أن الحسابات لا تكذب، وهذا للأسف هو رأس مال كلٍّ منا تقريبًا، والذي يتناقص دون أن ندرك فداحة الخسارة على حقيقتها..
فلنا أن نتخيل أن هذا الرقم إذا طرحنا منه سنوات الطفولة، ولنفرض جدلًا أنها 10 سنوات، سيصبح 21900 يومًا فقط.. وبعد 3سنوات أخرى سيصبح 20805 ليس إلا!!
لذا لا بُدَّ لأي عاقل ألا يترك أيامه تمر هكذا من بين يديه بعد الآن، فكل يوم إما إضافة لرصيدك، أوخسارة من حسابك.. فأيهما سنختار؟، وهذا ما أراده الإمام علي في مقولته الشهيرة: (ما مِن يومٍ يمر على ابن آدم إلا قال له: أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيدٌ، فقُل في خيرًا، واعمل خيرًا، فإنك لن

تراني بَعد أبدًا).. مع طلوع فجر كل يوم يومك يناديك.. أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنمني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.. فهل من مجيب؟
نحن في اختبار مدته هي أيام عمرنا القليلة كما قال عزو جل في سورة المُلْك الآية 2 {الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.. هذه هي الحقيقة مجردة، لقد خلقت الحياة والموت ليس إلا ابتلاء واختبارًا للناس، ليتميز أحسنهم عملًا الذي كان واعيًا متيقظًا، عن غيره الذي عاش ومات دون أن يلتفت إلى (عش ما شئت فإنك ميت).
- وحتى لا ينقلب الأمر إلى حالة من الفزع والهلع، والإحساس بأنه قد فات الأوان، تذكَّر أن هناك بابًا أوسع ما يكون لاغتنام كل لحظة في حياتك، وهو بابُ (النية)، فالنية تحول (العادات) إلى (عبادات) كما يقال، فقط بتعديل النوايا يصبح الإنسان مأجورًا على كل حركة، فمن يحتسب عمله على أنه إغناء لنفسه وأولاده عن السؤال، ومن تحتسب تربيتها لأولادها وعملها في بيتها على أنه (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، ومن يحتسب اجتهاده في تحصيل العلم على أنه نفع للبشرية وللمسلمين، ومن يحتسب حتى طعامه ونومه على أنه قوة له في العمل والعبادة.. كانوا جميعًا مأجورين ولا شك، فالنية الحسنة ترفع صاحبها لمكانة لا يبلغها بعمله نفسه، وهذا من رحمة الله وكرمه بعباده.
ومما يبعث أيضًا الطمأنينة والأمل في النفوس أن الحسنة بعشرة أمثالها، غلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.. فالمطلوب فقط أن نعمل، نبذل، نتحرى ألنكون من الغافلين، والرب من أسمائه (الشكور) والذي من معانيه أنه هو الذي يكافئ عباده بالكثير على العمل القليل.
القاعدة الثانية (أحبب من شئت فإنك مفارقه)
-تريد هذه القاعدة أن تجعل ابن آدم يستفيق على حقيقة أن (الحياة مبنية على مفارقة ما ومن نحب)، فكل شخص أو كل شيء نحبه إما سيفارقنا هو، أو نفارقه نحن..
والمقصود هنا طبعًا هو الافتراق بموت أحد الطرفين، لكنه وإن أمعنَّا النظر في أمور الدنيا سنجد أننا نفارق كثيرًا من نحب وما نحب لأسباب كثيرة جدًّا حتى قبل الموت، فكم من ابن فارق أبويه وسافر، وكم من ابنة فارقت أهلها وتزوجت، وكم من صديق افترق عن صديقه بعد أن بدَّل مكان عمله، وكم من جارٍ ابتعد عن جاره بعد أن غيَّر سكنه، وكم من مُحِبٍّ فصلت بينه وبين من يحب مسافاتٌ بسبب الظروف.. كذلك نجد أنفسنا وقد تركنا أشياء كثيرة كنا نحبها سابقًا إما لأنها لم تعد متاحة لنا، أو لأنه لم يعد هناك وقتٌ لها، أو لأننا كبرنا عليها، أو لأننا أصبحنا لا نقدر عليها.. إذًا فهذه هي الحياة.. فعلا مبنية أساسًا على الفراق حتى وإن طال اللقاء.
- ولننظر إلى (المحبوبات الثمانية) التي وردت في القرآن الكريم، في سورة التوبة: {قُلْ إِنْ كَانَ ابَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْ نَهَا أَحَبّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبّصُوا حَتَى يَأْتِىَ أَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (سورة التوبة الآية 24).. ماذا قال عنها الله عز وجل؟، قال إنه لو كانت هذه الأشياء أحَب إلى الإنسان من دينه فليتربص، أي فليحذر.. لماذا؟، وممَ يحذر؟
قبل أن نجيب عن هذين السؤالين ربما يسأل أحدُنا: وكيف لا نحب هذه الأشياء الواردة في الآية؟، فهي كل ما يمكن أن يحب في هذه الدنيا.. فمَن منَّا لا يحب والديه وأولاده وإخوانه وزوجه وأهله وماله وبيته؟.. وهل من المفترض والطبيعي ألا يحب المرء هذه الأشياء؟

بالطبع لا يمكن لأحدنا أن ينزع من قلبه حُبَّ هذه الأشياء، وليس هذا هو المطلوب أو المقصود من الآية إطلاقًا، بل بالعكس فإن حبك لوالديك برٌّ لهم، وحبك لأبنائك بِرٌّ بهم، وحبك لأهلك صلة رحم، وحبك لزوجك حسن عشرة، والحياة بدون حُبٍّ وبدون هذه المشاعر الإنسانية الدافئة تصبح جافة لا تطاق تمامًا كالصحراء القاحلة.

لكن المقصود من الآية ان نحب هذه الأشياء مع مراعاة نقطتين:

أولًا: ألا تكون أحب إلى أنفسنا من الله ورسوله، وشرعه ودينه، بمعنى أنه لو اختلف أمرُ الله وشرعه مع ما يتطلبه الأهل أو الزوج أو الأبناء أو مصالح العمل، أجد نفسي أغلب إرادة الله وأتقي إغضابه مباشرة وبدون تردد أوتفكير، فلا طاعة لأحدهم في معصية، ولا مداهنة لهم فيما يخالف أوامر الله ونواهيه، فقد يفتن الزوج زوجته -أو العكس- ويأمرها بعكس ما يريد الله لتثبت له أنها تحبه، كذلك قد يأمر الأهل ابنهم بما يغضب الله إثباتًا منه لهم لطاعته إياهم، أيضًا قد يضعف الإنسان ويسمح لأولاده بمخالفة ما يحب الله ضعفًا منه تجاههم.. هذا هو الحب الذي لا يريده الله، فالله يريد أن يكون هو الأحب والأولى بالطاعة والإرضاء دائمًا في قلب عبده.

ثانيًا: أن نحب هذه المحبوبات ولكن لا نتعلق بها، فهناك فرقٌ كبيرٌ بين (الحب) و(التعلق)، فالحب حاصل لا محالة بين الأقارب والأهل والأبناء والأزواج، لكن التعلق بهم هو أن يشعر الإنسان أنه سيضيع بدونهم، وأنه لا حياة له من بعدهم، وأنهم هم من يمدونه بالقوة والحياة.. فهناك من يتعلق بأبيه ويشعر انه لا سند له في الحياة بدونه، وهناك من تتعلق بأمها وتشعر أنه لن يهتم بها أحد سواها، وهناك من يتعلق بأولاده ويشعر أن حياته ليس لها معنى بدونهم، وهناك من تتعلق بزوجها وتكاد تنهار لو مات أو سافر أو تزوج بغيرها، وهناك من يتعلق بعمله ويشعر أنه لا أمان له في هذه الحياة إلا هو، وهناك من يتعلق بحسبه ونسبة وعائلته ويشعر أنهم هم مفتاح كل الأبواب المغلقة في هذه الدنيا..

و هذا ما لا يريده الله من عباده، فهو يريد لهم ألا يتعلقوا بسواه، وألا يأملوا غيره، وألا يأمنوا إلا به، وألا يركنوا ويتوكلوا إلا عليه، يريد لهم أن يعرفوا أنهم سيكونون في مأمنٍ فقط عندما يتعلقوا به وحده، ويرجونه هو وحده، ويعتمدون عليه هو وحده.. فلا أهل ولا أولاد ولا مال ولا عائلة دائمون، أو قادرون على جلب نفع أو دَفع ضر إلا بتدبير الله أولًا وأخيرًا.

- نعود للإجابة على السؤالين السابقين.. مَن كان يحب هذه المحبوبات الثمانية أكثر من الله، فلماذا يحذر؟، ومم يحذر؟

لماذا؟ لأن هذه علامة على ضعف صلته وتعلُّقه بالله، الذي خلقه وخلق له كل هذه الأشياء التي أحبها وتعلق بها أكثر من خالقها، ولأن هذا دليل على قلة معرفة العبد بربه، وبلطفه وحسن تدابيره ورحمته كما ينبغي أن يعرف المؤمن الحق.

و مم؟ عليه أن يحذر لأن من تعلَّق بشيءٍ أصبح في حالة ذلٍّ إليه، فقد يتذلل المحب لمحبوبه حتى ينول رضاه، وقد يتنازل الإنسان لمن انشغل به في محاولة لكسب وده، وقد يصبح المرء عبدًا لعمله وماله رغبة في الحفاظ عليه وزيادته، وهذا الذل وهذه العبودية لا يصح أبدًا أن تكون لغير الله، لأن في ذلك مهانة للعبد نفسه أولًا، ولأنه ما من أحد يستحق التذلل إليه بحق سوى الله، مالك المُلك، من بيده مفاتيح خزائن السماوات والأرض، ومقلِّب قلوب البشر.

فكما قال الحديث الشريف: (من تعلَّق بشيء وُكِّلَ إليه) أي أن من اعتمد على شيء، وجعله همَّهُ، ومَبلغ علمه وعنايته، وعلَّق عليه رجاءَهُ، وشعر أنه مصدر أمانه وزوال خوفه من دون الله، تركه

الله لهذا الشيء، ليذوق الذل والهوان بسببه، أو ينهار ويُصدَم إذا فقده، حتى يعي الإنسان أنه أساء الفَهم والتقدير، فقد يعتمد شخصٌ على مكانة والده وينسى أن يتوكل على الله، فإذا بوالده يعجز عن نفعه وقتما يحتاج، وقد يعتمد آخر على رعاية أولاده له في الكبر ويغفل عن رعاية الله فإذا بأبنائه يسافر كلٌّ منهم إلى بلدٍ، وقد يعتمد ثالث على ممتلكاته وأمواله التي في البنوك فإذا به يفقدها فجأة، أو تكون هي نفسها سبب قلقه ومرضه وخوفه..

- لهذا فإن هذه القاعدة (أحبِب من شئت فإنك مفارقه) تطمئن القلوب وتعطيها السكينة بالذات عند حدوث فقد لمحبوب، فهي إقرار بأن الفراق حادث وبكل تأكيد، ولكنه حتى وإن حدثَ فسيكون هناك ملجأ دائمًا لكل من يلوذ بربّه، ويفر إليه، فمقولة (إنا لله وإنا إليه راجعون) والتي نقولها دائمًا عند حدوث المصائب تُقَال أصلًا حتى تذكرنا بأننا جميعًا ذاهبون إليه، إنما بعضُنا يسبق بعضًا، ولا يهم أيُّنا سيعود أولًا، لأننا في النهاية جميعنا إليه راجعون.

وهنا نخص بالذِّكر من ابتلي بفقد فلذة كبده، تلك المصيبة العظيمة التي جعل الله لها ثوابًا عظيمًا أيضًا إذا صبر العبد واحتسب.. فلتسكن السكينة في قلبك، ولتهدأ وترضى لأنه لم يكن يومًا مِلكًا لك، وإنما كان وديعة الله عندك، وله أن يستردها وقتما شاء، فهم عارية - أي شيء مستعار- سترد إلى صاحبها حتمًا في يومٍ ما، ولأنك كنت ستفارق ابنك هذا آجلًا أو عاجلًا، سواء تركته أنت أو تركك هو أولًا، ولتكن على يقين أنك ستلقاه في الجنة بصلاحك وحُسن عملك، حيث لا فراق ولا بعد ولا شتات بعد ذلك، فالآية الكريمة تقول: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} (سورة الطور الآية 21)، أي أن إيمان وصلاح الآباء سيكون سببًا لرفع درجات الأبناء ليلحقوا بهم في الجنة، ليفرحوا معهم، ويأنسوا بهم، ثوابًا لهم وجزاء لهم على حسن صنيعهم في الدنيا.

- وأخيرًا فلنتذكر دائمًا هذا الدعاء (اللهم ما رزقني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب) ليشمل السلام والرضا قلوبنا في كل الأوضاع، وفي جميع الأحوال، سواء كنا مع من نحب أو امتلكنا ما نحب، أو فقدناهم وابتعدنا عنهم..

القاعدة الثالثة: (اعمل ما شئت فإنك مجزى به)

- الإيمان بهذه القاعدة وحدها كفيل بأن يوجد التقوى في قلب الإنسان؛ فعندما يكون حاضرًا في الذهن طوال الوقت أن كل فعل وأي فعل يصدر عن المرء سيُجَازى به، وربما في الدنيا قبل الآخرة، سيجعل الإنسان (ينقح) من أفعاله وتصرفاته، بل وأقواله أيضًا، فهي -أي القاعدة- تنبيه إلى أنَّ (لكل فعلٍ رد فعل)، ولن يفلت شيء دون حساب.

لهذا قيل عن هذه القاعدة أنها ترفع العبد إلى مقام (المراقبة)، وهو الذي فيه يعبد العبدُ ربَّه كأنه يراه، ويشعر متى رضي عليه ومتى غضب منه، وهو من أرفع مقامات العبادة ولا شكّ.

- قد يقول البعض إنهم يُحسنون إلى الجميع، وأنهم لا يسيئون إلى أحد قط، وهنا يجب أن يكون للإنسان وقفة صادقة مع نفسه ليفكر في كيفية معاملته لفئتين من الناس:

أولًا: المستضعفين عنده، فالمرأة مستضعفة عند زوجها، هل يعاملها بإحسان ويترفق بها أم يستغل وجوب طاعتها له ويفرض عليها ما لا تحب وترضى؟

والأطفال مسضعفون عند أهلهم، فهل يرحمونهم ويشعرون بهم، أم ينفثون فيهم غضبهم وحنقهم، ويهدئون عصبيتهم بإيذائهم شتمًا وضربًا وعقوبة؟

والخدم بمختلف أنواعهم (خادمة، عامل نظافة، مربية أطفال، بواب..) مستضعفون عند من يدفعون لهم رواتبهم، فهل يعاملونهم بما يُرضي الله، أم يكلفونهم ما لا يطيقون، وبما يتنافى مع الآدمية والإنسانية في بعض الأحيان؟..

ثانيًا: من لا يحبه الإنسان أو يقبله، أو من بينه وبين الإنسان سابق خلاف أو خصومة.. فهل سيشهد له كما يشهد عليه إذا تطلَّب الموقف؟، أم سيتهرب من الشهادة طالما كانت لصالح مَن لا يحب؟، هل سيعترف بصواب رأيه إذا كان معه الحق؟ أم سينكر ذلك على طول الخط؟، هل سيعدل في القصاص منه؟، أم سيجور لينتقم لنفسه؟

في هذين الموضعين بالذات، وفي كل مواقف الحياة عمومًا لا يجب أن ننسى أبدًا قول أبي الدرداء (البِرُّ لا يبلى، والإثم لا يُنسَى، والديان لا يموت، فكُنْ كما شئت كما تدين تُدان).

- كيف يجازى الإنسان على فعله في الدنيا؟.. بأكثر من صورة، على سبيل المثال:

تدور عليه أفعاله، فيجد السوء الذي فعله في فلان، أو قاله في فلان يحدث معه بنفس الطريقة، ومن أشهر وأوضح الأمثلة على ذلك أن ينتقد أحدهم عيب الآخر، فتمر الأيام ليجد نفسه مبتلى بنفس العيوب، ويفعل نفس الأفعال التي يستنكرها في أخيه.

وهذا ليجازي الله عبده المنتقد هذا على استغنائه عن الله.. وما دخل انتقاد عيوب الآخرين بالاستغناء عن الله؟.. فسرها العلماء على أنه عندما يسخر أحدُنا من عيبٍ أو نقص الآخر، فهو بذلك يعتقد أنه خلي من هذا العيب وكمل من هذا النقص بفضله هو نفسه، وبقدرته الذاتية، لا بتوفيق وتدبير الله، ولا بحوله وقوته وإرادته، فتدور الأيام ليريه الله أنه لم يسلم أبدًا من تلك العيوب إلا بفضل ومنة الله عليه، وأنه عندما يستغني عن عون الله ويظن بنفسه الخير وكأنه هو مَن وهبَه لنفسه، حينها لن يملك أن يمنع نفسه من العيوب والنقص والزلل.

وقد يكون الجزاء في الدنيا على هيئات أخرى، كالابتلاءات والمِحَن والشدائد المختلفة، لكن أيًّا كان شكل هذا الجزاء فتلك كلها رسائل تحذير أو لفت نظر كما يُقَال، لا يجب أبدًا على العاقل أن يهملها، فعليه حينها أن يراجع نفسه، ويصحح فكره وحاله، فكل شيء يحدث للإنسان هو فعلٌ من أفعال الله، ولكل أفعال الله حكمة وهدف، على المؤمن الحق أن يقرأها ويتدبرها؛ لأن الناس من حيث قراءة أفعال الله ينقسمون إلى (أعمى) وهو من لا يفطن ولا ينتبه ولا ينصلح حاله بأي فعلٍ من أفعال الله في حياته، و(بصير) الذي يحاول قراءة الرسالة من وراء كل فعل، نفعًا كان أو ضرًا، ليزيده قُربًا وصلاحًا وتقوى.

كما يقول العلماء إن من الجزاء على تصرفات الإنسان أنها إما تمنحه حسن الخاتمة، أو سوءها والعياذ بالله، فلا أحدَ يمكنه أن يأمن مكر الله، والطريقة الوحيدة لتفادي أن يمكر الله بك هو أن تكون له ومعه وكما يحب، تمامًا كما يقال (كن بجوار الرامي تسلم من سهامه).

- ترى هل نجازى على أفعالنا فقط؟ أم على ما يقع في قلوبنا أيضًا؟

يعتقد الكثيرون أن الإنسان يجازى على فعله فقط، بينما ما يدور في خاطره وعقله وقلبه فهو ليس محاسَبًا عليه، ولكن هذا الاعتقاد ليس صحيحًا بالشكل المُطلَق، فالإنسان إذا دار بفكره فعل السوء ثم دفعه فهو يثاب على ذلك، كما في قوله تعالى في سورة النازعات الآية 40 {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}، أما إذا همَّ بفعل هذا السوء يجازى على ذلك أيضًا حتى لو لم يفعله.. هذا بالنسبة للخواطر، أما بالنسبة للقلوب فبكل تأكيد نحن محاسبون عن كل ما يعتريها من مشاعر (حسد، غيرة، حقد، كبر، رياء، شرك.. إلخ)، فحتى ولم لم تترجم هذه

المشاعر إلى أفعال ملموسة؛ فالإنسان مجزي بها، فتلك هي (أمراض القلوب) التي هي أخطر وأخفى الأمراض، والتي تجر صاحبها دائمًا إلى حيث لا يتخيل الناس من حوله.
- ومِن جميل ما قيل عن هذه القاعدة (افعل ما شئت فإنك مجزي به) أن أهل النار سيحمدون الله في الآخرة حمدًا كثيرًا بالرغم ما سيكونون فيه من عذاب وألم، على ماذا؟.. على كمال عدله، لأنهم سيجدون أنهم يُجازوا على ما فعلوا كما فعلوه تمامًا، لا شيء زاد ولا شيء نقص.
القاعدة الرابعة (شرفُ المؤمن قيامه بالليل، وعزة استغنائه عن الناس)
- ماذا يعني أن شرف المؤمن قيامه الليل؟ لماذا جاءت كلمة (شرف) هنا بالذات؟
قيل لسببين..
الأول: يقال إن فلان (شريف) قومه، أي أنه عالي المكانة، رفيع الدرجة بينهم، كذلك أراد جبريل أن يخبر محمدًا عليه الصلاة والسلام، وأمته من بعده أن من يريد أن يكون عالي المكانة رفيع الدرجة عند ربه ما سبيله إلى ذلك؟.. قيام الليل، فقليل من الناس مَن يحرص على هذا الأمر، لهذا فلهؤلاء مكانة ودرجة خاصة عند الله، شرفهم عنده بقيامهم للقائه والناس نيام.
الثاني: يقال أن فلان (شريف) أو (عزيز) أي أنه لا يطلب شيئا من أحد، فهو أعف وأعلى وأعزمن أن يظهر محتاجا أمام أحدهم، فما السبيل إلى ألا يحتاج الإنسان إلى بشر مثله؟.. ليس إلا أن يقوم الليل ليدعو الله، ويضع حاجته في سجدة في جوف الليل، ثم يطمئن ويهدأ إلى استجابة الله دون أن يذل نفسه لغيره لقضاء حوائجه، فسهام الليل لا تخطئ.
فإن من أحد أعظم عطايا الله عز وجل نعمة (الثلث الأخير) من الليل، فكما أخبرنا الرسول الكريم في الحديث (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول: مَن يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له).
فعندما يعرف الإنسان منَّا أن هناك دائمًا بابًا مفتوحًا يوصله إلى جميع حاجاته في الدنيا والآخرة، ألن يحب أن يطرقه؟، وكل يوم؟.. ألن يتعلق قلبه بهذا الباب؟
وكان من الممكن أن يكون النفع الوحيد لقيام الليل هو إجابة الدعاء والاستغفار وقضاء الحاجات، ويا لهم من عطايا جزيلة في حدِّ ذاتها، وكفى بذلك نعمةً، لكن الله الكريم لم يتوقف عطاؤه عند هذا الحد، بل جعل لقيام الليل ثوابًا عظيمًا، كما في الحديث: (إن في الجنة غرفًا، يُرَى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدَّها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام)، فقائم الليل ليس فقط في الجنة، وإنما في غرف شفافة بهية، له خاصة دون غيره كما كان في الدنيا يقوم للقاء ربه دون غيره أيضًا، فكما في الآية:
{أمن هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه} (سورة الزمر الآية 9) هل يستوى هذا الذي يقيم الليل والذي لا يقوم بين يدى ربه؟، (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) بمعنى هلى يستوى من يعلم أثر القيام على مشاعره، ويعلم أنه لو ترك نومه لله سيعوضه الله عز وجل، مع آخر لا يعلم عن هذا كله شيئًا؟
لهذا حتى ولو كنا لسنا من أهل القيام بعد، فيجب ألا نترك الشوق إليه على الأقل، فالقائمون هم خاصة الله الذين اصطفاهم للقائه دون غيرهم من الخلق، وأي رفعة هذه؟، فأضعف الإيمان أن نشتاق لأن نكون من هؤلاء، ونتمنى صادقين أن ننول هذا الشرف والعز العظيم يومًا ما.
- لكن ترى لماذا كل هذه القيمة، وكل هذا الجزاء لقيام الليل؟

بالرغم من أن قيام الليل هو صلاة، لكنه ليس كأي صلاةٍ أخرى يقوم بها المؤمن خلال النهار، سواء كانت على سبيل الفرض أو النافلة، لأن قيام الليل له خاصية فريدة جدًّا عن باقي الصلوات، وهي أنه (وقتُ انقطاع علائق القلب مع الخلق)، لا بشرَ، لا ضجيج، لا لغوَ ولا لهو.. فقط المرء وربه، فيُقبَل القلب على ربه سبحانه وتعالى وحده دون أن يشوب حواره معه أيُّ انشغالٍ بأمر من أمور الدنيا، لهذا فإن لقيام الليل لذةً لا يعرفها إلا من جرَّبها، لذة هي مزيج من السكينة والهدوء والطمأنينة والصلة المباشرة بالله رب العالمين.

وفي مكة في الفترة التي سبقت فرض الصلاة على المسلمين، كان قيام الليل فرضًا على النبي عليه الصلاة والسلام، كما في بداية سورة الزمر {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}، حتى يصبح قلبه معلَّقًا بالله بشدة، وحتى يصبح قويًّا متحملًا لكل المشاق والمصاعب التي ستقابله بقوة صلته بربه التي تبلغ ذروتها بالقيام.

- ما الذي يمنعنا إذًا من قيام الليل؟

أول سبب يمنع الكثيرين من نيل هذا الشرف هو اعتقادهم أن الأمر صعب وشاق، ولا يقدر عليه إلا من هم فوق المستوى العادي إيمانيًّا.. والحقيقة أنه هناك أكثر من نقطة تستحق التوضيح في هذا الاعتقاد:

1) إن أي صلاة من بعد أذان العشاء وحتى أذان الفجر هي قيام ليل، وليس من الضروري أن يكون القيام من بعد منتصف الليل كما يعتقد البعض، ولا أن يكون ذلك في الثلث الأخير فقط من الليل، أي قبل الفجر بقليل، لهذا فباستطاعة أي إنسان أن يفوز بثواب قيام الليل بصلاة ركعتين خفيفيان بعد صلاة العشاء (في الثلث الأول من الليل) في البداية، ثم بعد فترة يستطيع أن يصليهما قبل أن ينام مباشرة (في الثلث الثاني غالبًا)، ثم بعد فترة يمكنه أن يقوم لصلاتهما في (الثلث الأخير) بأن يقوم قبل وقت قيامه لصلاة الفجر بفترة بسيطة تكفي لصلاة ركعتين، وقد كان من الصحابة مَن يقوم في أول الليل، ومنهم مَن كان يقوم آخره، ومنهم مَن كان يتناوب هو وأهله فيقوم أحدهم ثلثَ الليل ثم يوقظ زوجته مثلًا لقيام الثلث التالي، ثم توقظ أولادهما لقيام الثلث الأخير وهكذا.

2) إن كل مَن اعتادوا قيام الليل يؤكدون ويجزمون أنهم تعبوا وجاهدوا أنفسهم فقط في البداية، حتى رأى الله منهم الصدق والإخلاص في إرادة القيام قربى له، ففتح عليهم وأذاقهم المتعة واللذة التي لا يعرفها إلا مَن جرَّبها، فأصبح لديهم شوقٌ ولهفة للقيام، أصبحوا ينتظرون ساعات الليل ونوم الآخرين حتى يختلوا بربهم يناجونه ويستمتعون بقربه، تحوَّل الأمر من مشقة وعناء ومجاهدة إلى متعة وفرحة وراحة.. وهذا ليس خيالًا أومبالغة، بل حقيقة يصفها كل من عاشها.

وقد قال أحد الأئمة (عالجتُ نفسي في القيام عامًا، ثم استمتعت به عشرين عاما).. أي أنه قاوم نفسه، وجاهدها، وأرغمها عاما كاملًا، حتى فتح الله عليه وسمح له بتذوق لذة الوقوف بين يديه، والتي استمتع بها لعشرين عامًا كاملة بعدها.

وحتى وإن طالت فترة المجاهدة والتعب، فقد يكون هذا اختبارًا للصدق، وامتحانًا للتمسك والثبات، وهو أمر مأجور عليه الإنسان بكل تأكيد، فالرب شكور يشكر لعباده أفعالهم، ويثيبهم بالجزاء الكبير على العمل القليل، لهذا فإن القيام خير في جميع الأحوال، سواء وصلت لمرحلة الاستمتاع به، أو حتى قبل أن تصلها.

3) إننا نعتقد أن مَن يقوم الليل هذا يفعل ذلك لنشاطه، أو لقوته، أولقدرته على السهر والتحمل، أي لأسباب ترجع إليه نفسه، وأغلبنا يعرف عن نفسه الكسل والضعف وحب النوم، لكن كل القوامين يؤكدون أن الأمر كله ليس إلا توفيقًا وفتحًا من الله، وأنهم لو كان الأمر بقوتهم الجسدية والنفسية ما كانوا استطاعوا القيام والصلاة، لهذا فإن الأمر لن يأتي إلا بصدق الإرادة، ثم التوسل وطلب العون من الله، بل والدعاء أيضًا.

وقد يظن البعض أن الأسباب المادية وحدها كتنظيم الوقت، والنوم مبكرًا، ونوم القيلولة، والعشاء الخفيف.. كلها أمور ستكون كافية وحدها لدفع الإنسان للقيام، لكنها في الحقيقة ليست إلا أمورًا معينة وليست هي الأساس، بدليل أن هناك من يقوم الليل وهو لم يهنأ بنوم كافٍ في ليله، ولا براحة أثناء نهاره.. لأنه يستعين بحول الله وقوته ليعينه ويمده بالقوة والتحمل من عنده.

أما عن السبب الثاني الذي يمنعنا من قيام الليل هو (الذنوب) بكل تأكيد، فذنوب العبد تحرمه الكثير من الخير والعمل الطيب، لكن الذنوب مثل بقعة الدم إذا سارع الإنسان بغسلها بالاستغفار والتوبة زالت، وإن لم يفعل بقيت وبقي أثرُها على النفس.

- لكن هل من أسبابٍ تعين على قيام الليل؟.. بالطبع..

1) أولًا وأخيرًا وقبل أي شيء طلب العون من الله، والدعاء إليه.. اللهم لا تحرمنا شرف الوقوف بين يديك، وأذقنا حلاوة لقائك والقرب منك.

2) كثرة الاستغفار؛ لأنه -وكما قلنا سابقًا- الذنوب تثقل العبد، وتحرمه هذا الخير الكثير.

3) ادخار الجهد، بمعنى أن يتخير الإنسان منا الأشياء التي تستحق أن يصرف فيها طاقته خلال اليوم، فقد يشغل أحدنا نفسه بأشياء كثيرة لا فائدة منها، ويجهد جسده في الذهاب إلى أماكن غير ضرورية أثناء النهار، ليأتي الليل فيجد نفسه غير قادر على الوقوف على قدميه لصلاة الفرض حتى.. لهذا قائم الليل يحتاج إلى أن يرتب أولوياته، ويعي جيدًا فيم ينفق وقته وطاقته، كما قال أحد الأئمة (لا تكن قرطًبا بالنهار جيفة بالليل)، والقرطب هو حيوان صغير كثير الحركة، وتجده في ذهاب وإياب طوال الوقت وكثيرًا بلا هدف أوسبب، هكذا وصف الإمام الإنسان الذي يستنفذ قوته وقدرته طوال النهار في أشياء لا داعي لها، ليأتي الليل فيصبح كالجيفة أي كالميت لا يتحرك ولا يستطيع أن يقيم رأسه.

4) تذكَّر أن كم من ميت يتمنى لو استطاع أن يعود للحياة مرة أخرى ليصلي ولو حتى ركعتين خفيفتين يثقل بهما ميزانه.. فالطاعات عمومًا، والصلاة خصوصًا نِعَم متاحة لنا طالما لا زلنا أحياء أصحاء قادرين، فلنغتنمها قبل أن ينقطع عملنا من هذه الدنيا كمن سبقونا.

5) تذكَّر أنَّ قوامين الليل هم (الأشراف) الذين اختصهم الله بعلو الدرجة، ورفعة المكانة، فهؤلاء ليسوا كسائر العباد، ومَن منا لا يريد أن يكون منهم؟

6) تذكَّر أن (سهام الليل لا تخطئ)، وأن الله في الثلث الأخير من الليل هو من يقول (هل من داعٍ فأستجب له؟)، وكل ليلة.. ومَن منا ليس لديه من الحاجات والأمنيات الكثير التي يحلم بتحقيقها؟، فهل من المعقول تضييع مثل هذه الفرصة؟

7) معرفة أن الملائكة ترى البيوت التي يقام فيها الليل ويقرأ فيها القرآن، كما نرى نحن النجوم في السماء، من كثرة نورها، فتكون بيوتًا مميَّزة، متفردة بضيائها بين غيرها المُظلمين الذين يغط أصحابهم في سباتٍ عميقٍ.

فيقول الشيخ (عمر عبد الكافي): البيوت التي يُصلّى فيها قيام الليل يشع منها نورٌ يراه أهل السماء (الملائكة) كما ننظر نحن إلى السماء ليلًا لنرى نور النجوم، والأعجب والأجمل من ذلك أن الملائكة إذا اعتادت على رؤية نور بيتك كل يوم، ولم تصلِّ قيام الليل يومًا تسأل عنك لأنها رأت بيتك مظلمًا؛ فيقال لهم إنك لم تقم لأنك مريض أو مهموم أو غير ذلك، فتدعو الملائكة لك بالشفاء أو تفريج الهم أو على حسب حاجتك، شوقًا لرؤية نور بيتك المضاء بسبب صلاتك.. هذه المعلومة وحدها تكفي أي إنسان ليشتاق أن يكون ممن يقومون الليل ولو حتى بركعتين خفيفتين، وفي أي وقت من أوقات الليل.

وأخيرًا.. هل يمكن لمن يستحضر في ذهنه باستمرار هذه القواعد البسيطة التي تصف الحياة، أن يبقى دائمًا وأبدًا متعلقًا بهذه الدنيا؟؟

علاج الغضب والسخط على الأقدار..

(الودود الرءوف)

لا تخلو الدنيا من ضيقٍ وهَمٍّ، من ابتلاءات ومصائب، من مشاكل وأقدار مؤلمة.. لأنها خُلِقَت من أجل ذلك، من أجل أن تكون دار ابتلاء واختبار، وتمييز بين العبد المؤمن وغيره (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملا) (سورة الملك الآية 2).

لكن ترى هل يتقبل الإنسان أقداره التي لا يرضى عنها بصدر رحب ونَفسٍ راضية؟، هل يحمد الله في الضراء كما في السراء؟، هل يرضى عن أفعالِ الله به؟، ويسلم بحكمته في قضائه؟.. بكل أسفٍ لا؛ فقليلون هم من يفعلون، أما الأغلب فتظل تغلي صدورهم بالغضب من أفعال الله، والسخط على أقداره، ولا يتورعون عن اتهامه - ولو سِرًّا- في حكمته وتدبيره، ويسيئون الظن به وبحبه لعباده ورحمته بهم.. لأنهم لم يعرفوا الله باسميه: (الودود) (الرءوف)..

أولًا: اسم الله الودود

• ما الفرق بين الود والحب؟

1) المودة هي المحبة الشديدة، أي أن علاقة الود أقوى وأوثق من علاقة الحب؛ لذلك قال تعالى في وصف العلاقة الوطيدة بين الزوجين: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (سورة الروم الآية 21).

2) الود معناه الحب مع المعية والمصاحبة والمرافقة والتواصل المستمر، فالعرب إذا قالوا عن شخصٍ أنه (ودَّ) فلان أي إنه صديقه الصدوق، الذي يرافقه دائمًا في كل الأماكن وكل الأوقات، كما في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (إن أبَرَّ البِر أن يصل الرجل ود أبيه).. أي إنه من أعظم أعمال البر أن يصل الإنسان أصحاب والده، خاصة بعد وفاة هذا الوالد.

3) الحب هو المشاعر التي تكون في القلب، أما الود فهو ما ظهر على السلوك من أفعال؛ فالشعور بالميل نحو شخصٍ ما حب، أما الابتسامة في وجهه أو منحه هدية أو تقديم مساعدة له فذلك هو الود، فالحب لا يزيد عن كونه مجرد شعور داخلي، أما الود فهو ترجمة هذا الشعور من أفعال، لهذا فإن كل ودود مُحب، لكن ليس كلُّ محبٍّ ودودًا؛ لأنه قد لا يظهر حبه في سلوكه.

و على هذا فإن الودود أقوى وأعمق وأكبر بكثير من مجرد المحب، هذا في حق البشر، لكن ماذا عن (الودود) عندما تقال في حق الله؟

• ما معنى اسم الله (الودود)؟

1) المعنى الأول أنه هو المُحِب لعباده، الذي يحبهم ويتودد إليهم، وأشكال وده كثيرة سنتعرض إليها تفصيلًا بعد قليل، وفي هذا المعنى قال ابن القيم: (ليس العجب من مملوك يتذلل لمالكه، ولا يملّ من خدمته، إنما العجب للمالك يتحبب لمملوكه بصنوف إنعامه مع غناه عنه)، كذلك كان يقول أحد الصالحين (ليس العجب من حبي لك أنا العبد الفقير، إنما العجب من حبك لي أنت الملك القدير).. أي إنه من الطبيعي والمنطقي أن يحاول العبد التقرب والتودد إلى مولاه ليل نهار، لأنه أسير عنده، أمره بيده، ولأنه في حاجة إليه، لكن العجيب والجميل أن يتودد المالك إلى عبده، الذي لا يملك له ضرًا ولا نفعًا، كما يفعل الله مع عباده.

وكذلك قيل (نتودد إلى من يجافينا، ونجافي من يتودد إلينا).. أي إننا طوال الوقت نتقرب ونتودد وربما نداهن وننافق الناس، علهم ينفعوننا، إلا أنهم يقابلون حاجاتنا بالإهمال أو التعالي أو الجفاء، وننصرف عمَّن يفتح لنا بابه لندعوه فيستجب لنا طوال الوقت، وخاصة في الثلث الأخير من الليل، كما في الحديث (ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجب له، مَن يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى ينفجر الفجر).
2) والمعنى الثاني أنه هو الذي يوده عباده ويحبونه، كما في الآية الكريمة:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (سورة المائدة الآية 54).
3) أما المعنى الثالث للودود أنه هو الذي يودد أحباءه المؤمنين إلى خلقه، فيزرع محبتهم في القلوب، وقبولهم في الصدور، كما في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) (مريم 96).
• كيف يتودد الله إلى خلقه؟
أو بمعنى آخر: ما هي أشكال ود الله لعباده؟
أولًا: تودُّده إلى عباده الطائعين:
يتودد الودود إلى أوليائه بمعرفته، والقرب منه، وسابق محبته لهم فيحبونه، ويأنسون به، ويشتاقون إليه، فتنشرح صدورهم للطاعات، وتسهل عليهم مشقتها، وتنفر نفوسهم من المعاصي، ويصعب عليهم اقترافها، فتعلو الدرجات، وتعظم الأجور.. وكل ذلك مبدأه ومنشأه أنه هو مَن تودَّد إليهم في الأصل، وأحبَّهم أولًا..
ففي القصة المشهورة عن المرأة التي سمعها زوجها تدعو الله في جوف الليل وتقول (بحبك لي ألا غفرت لي)، قال لها لماذا تقولين هذا؟، فالأوجب أن تقولي (بحبي لك اغفر لي)، فردَّت عليه قائلة (ألم تسمع قول الله تعالى فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه؟)، فإن لم تكن سبقت محبته لي ما أحببته!!
كذلك في قصة أخرى كان يقصها قاضي البصرة، أنه انتبه ذات ليلة من نومه فسمع جاريته تقوم الليل وتدعو الله (بحبك لي اغفر لي)، فسألها وكيف عرفتِ أنه يحبك؟، فقالت له (حبه لي أيقظ عيني وأنام عينَك)، أي أنه لولا أن الله أحبها ما كان أقامها لتقف بين يديه، تصلي وتدعو بينما نام الآخرون.
لذلك قيل عن الودود عزَّ وجل: سبحانه تسبق محبته لعباده محبتهم له، فمدحهم على ما وهبهم، واشترى منهم ما أعطاهم، فباهى بهم الملائكة في طاعاتهم، ثم أثابهم على ما منحهم.
فمَن الذي منح القدرة والطاقة والهمة لقائمي الليل؟، وصائمي النهار؟، والساعين في حوائج الخلق؟، والمجاهدين في تعلُّم العلم؟، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس؟.. وحده الودود الذي ودَّهم وأحبهم، فأحبوه، وبذلوا إليه وفيه، فأثابهم في النهاية على ما تفضل عليهم به.
ثانيًا: تودده إلى عباده العاصين:
يتودَّد الودود إلى من عصاه بالحلم عليه، بأن يظل يرزقه النعم، والعطايا، والمنح الواحدة تلو الأخرى وهو يعصاه، فلا يحرمه ولا يمنع عنه، ولا يعاجله بالعقوبة، عله يفيق ويعود.

ويتودد إليه أيضًا بالرسائل والعلامات والإشارات المتتالية، عله يتعظ من غيره، وينتبه ويفهم، بغير عقوبة أو مصيبة أو ألم، علَّه يعي أن الله يرده إليه ردًّا جميلًا.
يُحكَى أن أحد العابدين كان قد عذَّبَه أحد الظالمين بسبب إيمانه، فقطع يديه وقدميه، فذهب له أصحابه يعزونه ويواسونه، فردَّ عليهم بأنه في أحسن حال، وأنه الآن يشعر بالقرب من الله كما لم يشعر من قبل، فقال: (إلهي أنت تتودد بنعمك إلى من يؤذيك، فكيف توددك إلى من يؤذى فيك؟).. أي إنه على يقين من ودِّ الله له، لأنه سبحانه وتعالى يتودد حتى إلى عباده العاصين، الذين يؤذونه بمعاصيهم وفجراتهم وذنوبهم، فمِن باب أولى أنه سيتودد إلى من يحبونه ويؤذون بسبب إيمانهم به).
ثالثًا: تودده إلى عباده المذنبين:
يتودد إليهم الودود بأن يرزقهم التوبة أولًا، ثم يغفر لهم، ويسامحهم ثانيًا، متى عادوا، ومهما فعلوا.. فتوبة العبد أساسًا هي نعمة ومنحة من الله، كما في الآية الكريمة (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (سورة التوبة الآية 118)، فحتى يتوب العبد لا بُدَّ وأن يسبق ذلك توبة الله عليه، أي أن يرزقه التوبة، ويحرِّك قلبه نحوها، ويأذن له بها، فيجد المذنب قلبَه يؤلمه من المعصية، ويجد نفسه تحثه على العودة إلى الله من جديد؛ لهذا فإن التوبة النصوحة رزقٌ من الله، وهو من أعظم ما يتودد به إلى مَن أذنب في حقه، لأنه ما إن أذِنَ له بها حتى يقبلها منه، ويغفر له، بل وقد يبدِّل سيئاته حسنات أيضًا..
ليس هذا وحسب، بل إن الله يفرح بتوبة عبده المذنب كما في الحديث الشريف (إن الله عز وجل يفرح بتوبة عبده، كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها).. ليس هذا وحسب، بل إن الله يحب عبده المذنب إذا تابَ، كما في الآية الكريمة {اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (سورة البقرة الآية 222).
فما أجمل هذا الرب الودود؟، الذي لا يرفع وده حتى من عصاه وأذنب في حقه، فهو لا يزال يحبه ويتودد إليه، فيرزقه التوبة، فيقبلها منه، ويفرح به وبها، بل ويحبه بعدها أيضًا، بل وفي بعض الأحيان يصبح ود الله لعبده بعد التوبة أعظم وأقوى من قبلها، بقدر صدقه وإخلاصه في توبته.
• كيف أتودد إلى الله؟
سُبُل التودد إليه سبحانه وتعالى لا حصر لها، فبابه دائمًا مفتوح، يقبل من عباده القليل ويشكرهم عليه، فإذا تقرَّب إليه عبده شبرًا، تقرَّب عز وجل إليه ذراعًا، وإذا أتاه عبدُه يمشي أتاه عزّ وجلَّ هرولة..
لكن دعونا نوجز بعض الأمور التي قيل عنها إنها تُورِّث محبة الله لعبده، فمثلًا:
1) التعرف إلى الله حقًّا، بالتعلم عن أسمائه وصفاته وأفعاله، فكيف يحب الإنسان مَن لا يعرفه؟.. فمن عرف الله أحبَّه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه كان من خاصته وأحبته.
2) استشعار نعم الله عليك.. {وأمَّا بنعمَةِ رَبِّكَ فَحدِّث} (سورة الضحى الآية 12)، خاصةً وإن حدثت بها نفسك، فعندما يتذكر الإنسان دائمًا نعمه التي لا تحصى، ويستحضر فضله عليه باستمرار يحبه، ويبوء له بالفضل والمنة، لذلك قال عمر بن عبد العزيز: (التفكر في نعم الله أفضل عباده).

3) كثرة الذِّكر، فقد قال ذو النون: (مَن شغل قلبه ولسانه بالذِّكر، قذف الله في قلبه الاشتياق إليه).. فأي شعور أجمل من الشوق إليه عزَّ وجل؟، فلا يزال لسانك رطبًا بذِكر الله.
4) قراءة القرآن بتدبر، فذلك يورِّث فهمه والتعلق به ومحبته، ومَن أحب كلام الله أحبه الله، كما في الحديث الشريف : (إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا في سَرِيَّة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ (قُل هو الله أحد) فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي، فقال: سَلوه لأي شيءٍ يصنع ذلك؟، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي: أخبروه أن الله يحبه).
وشرح ُالحديث أن رجلًا قاد بعض المسلمين في سَرية (ما يشبه الغزوة)، فكان يصلي بأصحابه فيقرأ ما تيسر من القرآن ثم يختم قراءته بسورة الإخلاص دائمًا في كل ركعة، فلما عادوا من السَّرية بلَّغ الصحابة الرسول بهذا الأمر خشيةً أن يكون في ذلك بدعة أو ما شابه، فقال لهم اسألوه لماذا فعل هذا؟، فردَّ عليهم بأنه يفعل ذلك فقط لأنه يحبها لأنه تجمع صفات الرحمن، فما كان من الرسول إلا أن أقرَّهُ على فعله، بل وبشَّره أن الله يحبه كما أحب هو هذه السورة.
5) الانكسار والذُّل بين يديه، فالله لا يحب لعبده أن يُذَلّ أو أن يشكو ضعفه وحاجته للخلق، يريد له أن يبقى عزيزًا بين بني البشر، ولا ينكسر أو يضعف إلا أمامه وله وحده.
وإظهار الافتقار إلى الله، والانكسار بين يديه من أكثر الأشياء التي تُقرِّب العبد من ربه، وتحبب ربه فيه، فمنن الله تفيض على المنكسرين، كما في الآيات الكريمة: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (سورة آل عمران الآية 123)، {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} (سورة القصص الآية 5)، وقد قيل عن موسى عليه السلام أنه قال: (يارب أين أبغيك؟) أي أين أجدك؟، فقال له سبحانه وتعالى (عند المنكسرة قلوبهم).
6) التقرب إلى الله بالطاعات، وخاصة بالفروض قبل النوافل، كما في الحديث الشريف (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته).
7) الخلوة لمناجاة الله، ولتلك الخلوة لذةٌ ومتعة لا يعرفها إلا مَن جرَّبها، حين تكون أنت وربك فقط، تكلمه وتناجيه، حتى ولو بلُغتك العامية أو بالأدعية البسيطة، فغير أن اعتياد مثل هذه المناجاة يخلق الحب بين العبد وربه، فهي أيضًا سببٌ لنجاة العبد من العذاب، كما قالت الآية: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ} (سورة القمر الآية)، أي إن مناجاتهم ربهم في وقت السحر - وهو آخر الليل قبل بزوغ الفجر- كانت هي سبب نجاتهم من العذاب.
8) تركك لشيء تحبه إذا كان يغضب الله، أو فعلك لشيء لا تحبه إذا كان يرضي الله، فقط ابتغاء لمرضاته، فقد قال أبو حازم (خصلتان من تكفل بهما تكفلت له بالجنة.. تركك ما تحب، وتحملك ما تكره إذا أحبه الله).. فلتجرب التخلي عن شيء اعتدته أو أحببته وهو لا يرضي الله، وانظر إلى آثر ذلك على بقية حياتك، من محبة وود الله لك.
ثانيًا: اسم الله الرءوف
• ما هي الرأفة؟

- قيل إن الرأفة هي المنزلة التالية للرحمة، فقد قيل إن المشاعر تبدأ بالرقة، فتتطور إلى رحمة، فتتطور إلى رأفة، لهذا فإن الرأفة أشد وأقوى من الرحمة.
- وقيل إن رأفة الله تكون بعباده المؤمنين، أما رحمته فهي لسائر عباده ومخلوقاته.
- وقيل إن الرأفة هي نوعٌ خاصٌ من الرحمة، وهي (رفع البلاء، وإزالة الضر والإيذاء) عن الخلق.
• ما معنى اسم الله (الرءوف)؟
للرأفة في حق الله عدة معاني، منها:
1) الرءوف أي الرحيم بعباده، العطوف عليهم، المتناهي في اللطف بهم، فهو أرحم بعبده من أمه وأبيه بل ومن نفسه، وهو من لا غاية له من وراء رحمته، والرءوف صيغة مبالغة على وزن (فعول) تفيد شدة الرحمة.
2) أما المعنى الثاني للرءوف أي من لا يضيع جهد وتعب وأجر العاملين له، كما في الآية الكريمة {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} (سورة البقرة الآية 143)، وسبب نزول هذه الآية أنه صلى الرسول عليه الصلاة والسلام باتجاه بيت المقدس 16 أو 17 شهرًا قبل تحويل القبلة، فسئل (وماذا عن أجر الصلوات السابقة؟، وماذا عن أجر المؤمنين الذين كانوا يصلون لبيت المقدس وماتوا قبل تحويل القبلة؟)، فكانت إجابة الله أنه لا يضيع أجر أو جهد من عمل خيرًا أبدًا، لأنه هو الرءوف بعباده.
ونخرج من هذا المعنى لاسم الله الرءوف بفائدة عظيمة، وهي ألا ييأس المؤمن أبدًا ويحبط ويترك العمل الصالح إذا لم تظهر نتائجه سريعًا، فحتى لو لم تظهر له نتائج فهو حتمًا لن يضيع، فالرب رءوف لا يضيع أجر من بذل له وفيه..
فقد تفقد الأم الأمل في صلاح أولادها إذا ربت وتعبت ولم تجد لتربيتها أثرًا فوريًا، وقد ييأس الزوج من إصلاح زوجته إذا جاهد في تقويمها وإرشادها ولم يرَ تغييرًا سريعًا، وقد يحبط الداعية أو المعلم أو فاعل الخير إذا اجتهد وتعب وبذل، ثم لم يجد لتعبه أثرًا على مجتمعه ومن حوله.. لكل هؤلاء نقول: كونوا على يقين بأن ربَّكُم رءوف لن يضيع أجركم أبدًا، وستجدون لإحسانكم أثرًا حتمًا يومًا ما، فقط كل في حينه.
3) كما قيل في معنى اسم الله الرءوف أنه: (الرحيم بخلقه رحمة خاصة في الآخرة).
4) والرءوف في معنى آخر أنه هو من يرحم عباده بالتخفيف عليهم، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون، كما في الآية {لا يكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وِسْعَهَا} (سورة البقرة الآية 286).
5) وأخيرًا قيل عن الرءوف إنه الذي يرحم عباده المذنبين، ويعطف عليهم، فيفتح لهم باب التوبة والاستغفار، ويقبلهم ويقبل منهم، دائمًا وأبدًا وفي كل وقت حتى يموت العبد كما في الحديث الشريف (إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)، أي طوال حياته، وطالما أنه لم يدخل في سكرات الموت بعد، وإلى قيام الساعة، كما في الحديث: (إن اللهَ عزَّ وجَلّ يبسط يدَه بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويُبسِط يدَه بالنهار ليتوب مُسيء الليلِ، حتى تطلع الشمس من مغربها).
أما وبعد كل هذا.. لماذا تسيء الظن بربك أيها الإنسان؟، لماذا تعتقد أنه ابتلاك لأنه لا يحبك، أو لأنك لا تهمه، أو لأنه يبخل عليك، أو لأنه يحب ألمك وعذابك؟
لماذا تقول (الحمد لله) بلسانك أمام الناس، بينما يمتلئ قلبك بالغضب من ربك، وبالسخط على أقداره؟ لماذا تلومه على أفعاله معك؟، وتتهمه في أقداره التي كتبها عليك؟

لماذا لا تجرب أن تنظر للأمور من عدسة جديدة.. عدسة علمه فهو أعلم بما يصلح لك، وعدسة حكمته فهو أعلم بمتى وكيف يأتيك به، وعدسة ودّه فهو يحبك في جميع حالاتك طائعًا ومذنبًا، وعدسة رأفته فهو رءوف بك وأرحم بك من أمك وأبيك.

إذا كنتَ في ضيقٍ أو هَمٍّ أو غَمٍّ، وإذا أصابك ابتلاء أو مكروه فلتفكر في أنه أراد أن يختبر إيمانك، وأن يرفع درجاتك حتى مع عملك القليل، وأن يردك إليه، حتى يسمع صوتك تناجيه، فمَن مِنَّا يستطيع إنكار أن أغلب البشر لا يذكرون ربهم ولا يعودون إليه إلا عند الشدائد والصعاب، كما في قوله تعالى {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (سورة الأنعام الآية 43)، أما عندما ييسر عليهم، ويغدق عليهم من نِعَمه ينصرفون إلى غيره، ويبتعدون عنه، ويشعرون بالاستغناء عن خالقهم، كما في الآية {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} (سورة الإسراء الآية 83).

فلتخلع منظارك الأسود هذا من الآن فصاعدًا، وأحسِن الظنَّ بربك، فكما قالوا: (سوء الظن بالمعبود يغلق باب الجود).

علاج النقص والانكسار..

(اسم الجبار)

مَن مِنَّا يشعر بأن حياته كاملة؟.. مَن منا لا يظهر في حياته نقص ما ينغصها عليه بين الحين والحين؟.. من منا لم يمر بلحظات ضعف وانكسار وفقر مادي أو معنوي؟

لكل فردٍ فينا تجربته الخاصة التي شعر فيها بالعجز، فقد يجد نفسه غير قادر على الحصول على ما يريد، أو على دفع ما لا يريد، أو على جذب من يحب، أو على تحمُّل مَن لا يحب، أو على جلب ما ينفع، أو على طرد ما يضر.. لكل منا مصابه الخاص، الذي قد يأخذ وقتَه ويرحل، أو الذي قد يظل حيًّا في القلب ولا يرحل أبدًا مهما مرت السنين.. فما الحل؟

ليس لها من دون الله كاشفة، ولا أحدَ قادرٌ على جبر كسر أي إنسان سوى الله، الذي سمَّى نفسه ب (الجبار)، هذا الاسم الذي طالما اعتقدنا أنه يعني القوة والسُّلطة والجبروت فقط، إلا أنه حان الوقت لنعرف الوجه الآخر لهذا الاسم، لنعرف كيف السبيل إلى جبر قلوبنا الكسيرة.

• ما معنى اسم الله (الجبار)؟

في البداية يجب أن نعرف أن أسماء الله عَزَّ وجَلَّ مُقسَّمة عند أهل العلم إلى قسمين: أسماء جمال وأسماء جلال.. أسماء الجمال هي التي تدل على الرحمة وما يدور حولها، وأسماء الجلال هي التي تدل على العظمة وما يدور حولها، فأسماء الجمال تُسَبِّب التعلق بالله، وأسماء الجلال تُسبّب التَّعظيم له.

ويدخل اسم (الجبار) تحت النوعين معًا، فالجبار له معنيان:

- بمعنى الإصلاح (جبر الكسر)، وفي هذه الحالة هو من أسماء الجمال.
- وبمعنى قهر الخلائق على مشيئته، وهنا هو من أسماء الجلال.

أولًا: معنى الإصلاح:

الجبار صيغة مبالغة من اسم الفاعل (الجابر)، وهو الموصوف بالجبر، ومنها جَبَر العَظم أي أصلحه إذا كسر، وحتى عندما نقول في الرياضيات: (اجبر الكسر)، أي كَمِّله، فلو كان الكسر واحدًا ونصفًا، فجبر الكسر يعني تحويل النصف هذا إلى واحد كامل فيصبح اثنين.

وهو معنٍ به ما به من اللطف والرحمة، فالجبار سبحانه هو الذي يجبر الفقر بالغنى، والمرض بالصحة، والخيبة والفشل بالتوفيق والأمل، ويجبر الخوف والحزن بالأمن والاطمئنان، فهو جبَّار -بصيغة المبالغة- لأنه متصف بكثرة جبره حوائج الخلائق.

• متى تحتاج لهذا المعنى من اسم الله الجبار؟:

- في حالة التعرض لأي إهانة أو جرحٍ أو ظلمٍ من أحد، قد يستجمع الإنسان شجاعته، ويرتب كلماته، ويذهب ليواجه مَن جرحه أو ظلَمه، ظنًّا منه أنه سيتفهمه، وسيشعر بخطئه، ويصلح من الموقف ويجبر بخاطر المظلوم، ولكنه كثيرًا ما يحدث العكس؛ فإذا بالجرح يزداد عمقًا، والأمر يزداد تعقيدًا، والموقف كله يتحول من سيءٍ إلى أسوأ.. لماذا؟.. لأنه سلك الطريق الخطأ، اعتقد أن البشر يملكون جبر القلوب المكسورة، انتظر الفرج ممن لا يملكه، فالناس خُلِقوا ناقصون، وأولهم نحن، فكيف لناقصٍ أن يُكمِل ناقصًا مثله؟، وكيف لفقيرٍ أن يعطي فقيرًا يشبهه؟

لننظر إلى الآية الكريمة {إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا} (سورة النساء الآية 35)، والتي تتحدث عن الزوجين المتخاصمين؛ فماذا قالت؟.. إذا أرادا الإصلاح يوفق الله بينهما، ولم تقل إذا أرادا الإصلاح فسيحققانه بنفسيهما، فتوفيق الله هو السبب في جبر قلوبِ كلٍّ منهما، وبالتالي الإصلاح بينهما، فأنواع الإحسان التي تأتي من الخلق هي لُطفٌ يجريه الله تعالى على ألسنتهم مِن عنده سبحانه وتعالى، وليس مِن عند أنفسهم.

وكونك تعتقد أن حوائجك لا يجبرها إلا الله، يجعلك لا تقف بحوائِجك إلا عند باب الله، وهذا الفارق بين مَن عَلِمَ عن الله وبين مَن جَهِلَ عنه، فالذي يعلم عن الله قلبه مُعلّق أنَّ العطاء مِن عنده وحده، والجاهل ينتظر جَبْره مِن أسباب نقصه!!، فمَن سبب النقص في حياتك؟ زوج؟ أبناء؟ صاحب العمل؟ أهل؟ أهل زوج؟.. الجاهل هنا ينتظر جَبْره مِمّن كان سبب نقصانه.

- في حالة وجود نقصٍ ما، فهناك قاعدة أساسية للحياة في هذه الدنيا، وأغلبنا يعرفها، لكننا نرفض أن نصدقها، ونعيش نحلم بأن نكسرها، وهي (أن استيفاء الحقوق دربٌ من دروب المستحيل)، فلا يمكن لحياة أحدنا أن تكتمل في الدنيا، لا بُدَّ وأن يشوبها نقصٌ ما، فقد يعيش أحدنا بمرضٍ ما، أو في وضع مادي صعب، أو مع شريك حياة قاسٍ، أو بلا زواج، أو مع ابن مخالف، أو بلا أبناء.. إلى آخره من أوجه النقص، ونظَلُّ نتساءل: لماذا وضعنا في هذا الموقف؟، لماذا نعاني من هذه النقائص؟.. والحقيقة أن كل هذه الحاجات وُجِدَت مِن أجل أن نطلب من الله أن يجبرها بداخِلنا، من أجل أن نلجأ إلى الله ليجبر لنا ما هو واقع من نقص فينا وفي مِن وفيما حولنا.

لكن الإشكال أن الله يجبرنا ونحن لا نَقبل بِجبره أحيانًا كثيرة، فنحن نريد حُبَّ شخص معين ولا نقبل إذا وجدنا الحب من غيره، ونريد عملًا مُحددًا ولا نرضى بغيره، ونحلم بحُلمٍ بعينه ولا نفرح بغيره، نحن نريد وننتظر دائمًا الجبر الذي نريد، حتى نشعر بأن الله قد جبرنا وكان معنا، في حين أن هذا ليس شرطًا على الإطلاق؛ لأن ليس كل ما نتمناه ونريده لأنفسنا هو الأصلح لنا دائمًا.

- عندما يجد الإنسان حوله أناسًا يحترمونه أو يُحبونه أو يقدّرونه، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لا يستحق كل هذا في الحقيقة، حينها يجب أن يرى كيف أن الله تعالى قد جبر نقائصه، وجمَّل صورته في أعين الناس.

- عندما يتكرر الفشل في شيءٍ ما، فمثلًا يعاني البعض من الرفض المتكرر عند البحث عن فرصة عمل، والبعض الآخر يعاني من فشل الأطباء المستمر في علاجه، أو تعاني بعض الفتيات من تكرار عدم إتمام فُرَص الزواج، أو بعض السيدات من تكرار حالات الإجهاض عند كل حمل، وغيرهم من الأمثلة الكثيرة التي يشعر فيها الإنسان أنه كلما اقترب من هدفَه وأصبح بينهما بضع خطوات، فإذا به يبتعد فجأة في كل مرة، ليجد نفسه يبدأ من الصفر من جديد..

قد يظهر لك أحد أو شيء فتظن أنت أنه من الأسباب لتيسير الأمر، ثم تذهب مع هذا السبب فتجد أن الطريق مسدود، فتعود مرة أخرى إلى باب الله، ثم يأتيك أمرٌ آخر وتعتقد أنه سببٌ جديدٌ فتَسير وراءه ثم تجده يوصلك للا شيء، هذه كلها فِتن، تختبر صدق تعلُّقك بالله، واخلاصك في طلب الجبر منه وحده، فالانسان منا يظل يدعو ويدعو ويطلب طالما انعدمت أمامه الأسباب، لكن بمجرد ظهور أحدها في الأفاق يلتفت فورًا عن الله ويجري خلف الأسباب، فتغلق في وجهه المرة بعد المرة ليربينا الرب، ويخبرنا أنه لا جبّار لما نحن فيه من عسر أو مشاكل إلا هو.

عندما تكون في فِتنة (الفشل المتكرر) لا بُدَّ أن يكون إحساسك بالأسباب حياديًّا قدر المستطاع، بمعنى أنك تيأس مِنها يأسا تامًا، ثم إذا أتى أمرٌ في ظاهره أنه سبب، تُبقِي قلبك مُعلقًا بالله، تَسأل

الله إن كان سببًا يرضيه أن ييسر لك الاستمرار فيه، وإن كان سببًا لا يرضيه أن يصرفه عنك.. أمر ليس سهلًا.. أليس كذلك؟، لكنه سهلٌ بل وطبيعيٌّ جدًّا عند القلوب التي توقن بأن الجبار وحده هو من سيجبر كسرها ونقصها وأزمتها.

• (الجبر الخاص).. من ألطف وأجمل أفعال الله:

لماذا توجد الفوارق بين الناس؟، فهناك أُناسٌ مِن أول ما تنزل عليهم المصائب يلجأون إلى الجبار فيجبر قلوبهم، وهناك أُناس متوسطون، فمع مرور الأيام والليالي عليهم كأن قلوبهم حصل لها الجبر، أما القسم الثالث فتجدهم بعد سنين ولا زالت آلامهم كما هي.. ماذا فعل هؤلاء القوم- الصنف الأول- في أنفسهم؟ ، كيف يصلون إلى حالات الرضا والسلام الداخلي بالرغم من شدة مصابهم وصعوبة مواقفهم؟

هذا لأن هناك نوعًا آخر من الجبر يُسمَّى بالجبر (الخاص)، الذي يخص الله به عباده الصادقين في التعلُّق به وحده، فيدربهم ويجهزهم في الموقف بعد الموقف بأن يقع في قلوبهم الشعور بالنقص مرةً ثم يُجْبَر مُباشرة، ثم مرة ثانية ويجبر أيضًا، ثم ثالثة، ثم رابعة، إلى أن تكتمل قوةُ تعلُّقهم بالله، فيصبح إقبال الدنيا عليهم أو ذهابها سواءً في نفوسهم، لأنهم أصبحوا على يقين بأن الله سيجبرهم دائمًا وأبدًا، سواء بالشيء أو الطريقة التي يتمنونها أو بغيرها.

لهذا عندما تقع عليهم المصائب والابتلاءات الشديدة بعد ذلك تجدهم راضين أكثر وأسرع من غيرهم، لأنه ينزل مع الأخذ الجبر، فجَبَرَ قلوبهم عن النقص الذي حصل في حياتهم، فَتسكَنَ آلامهم.

في هذا النوع الخاص من الجبر، يدفع الله عن عباده المؤمنين الشعور بالنقص والفقد والخسارة، يجبر القلوب بالانشغال عن النقائص، وبالانصراف عنها، فما يشعرون أن هناك شيئًا ينقصهم، فلا يتعلقون بالنقائص، ولا يتذكرونها طوال الوقت، وقد يَجبر قلوبهم أيضًا بأنواع المعارف والعلم عنه، فيجدون لذائذ في ذلك تبرِّد قلوبهم وتَشرح صدورهم، وتلهمهم الصبر والسلوى عمّا ينقصهم في الدنيا.

فعندما يفتح الله عز وجل لك بابًا من العِلم وأنواعًا من المعارف تجد نفسك تستحقر الناقص عندك مع الوقت، فتراه ليس بشيءٍ، بل مع الأيام قد ترى أن هذا الناقص كان فتحًا للكمال، لأنه ترك في حياتك فراغًا تملأه بالعلم عن الله والقرب منه، تمامًا كم يطلب الداعي في الدُّعاء الشهير (اللهم ما رزقتني مما أُحب فاجعله قوةً لي فيما تحب، اللهم ما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب).

أما إذا بقيت تُشْعِل في نفسك نار النقص، وتُذكِّر نفسك بالنقائص، فلن يكون هناك مجال لهذا الجبر أن يأتيك، أو تعرف له سبيلًا، وتبقى دائمًا شاعرًا بالنقص.

وقد يأتي الجبر أيضًا بشكل آخر، وبطريق غير مباشر كأن تجد قومًا يشتكون لك نَفس حالك، فتجد نَفسَك تكلمهم تُصبرهم، وكأن تصبيرك لهم تصبيرًا لنفسك، لأن أقرب أذن سامعة للمتكلم هي أذنه.

ثانيًا: معنى القدرة والقهر:

- يأتي هنا الاسم بمعنى علوِّه سبحانه وتعالى على خلقه، ونفاذ مشيئته في ملكه، فلا غالب لأمره، ولا معقب لحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

أي إنه القاهر لكل شيء، الذي دان له كل شيء وخَضَعَ له كل شيء، فالمخلوقات كلها قد خضعت في حركاتها وسكناتها وما تأتي وما تَذر لِمليكها ومُدَّبِرها، فليس لها من الأمر شيءٌ، ولا مِن الحُّكم شيء، بل الأمرُ كله لله والحُكم كله لله، لا حاكم إلا هو.

• متى تحتاج إلى هذا المعنى من اسم الله الجبار؟

- عندما تقابل أشخاصًا ذَوي نفوذ أو سلطان في الدنيا، فاعلم حينها أن سلطانهم هذا أصلًا لم يستطيعوه وحدَهم إنما أعطاهم الله تعالى إياه - فمهما كانوا أقوياء لا تعظِّمهم في نفسك، بل اعلم أن الله تعالى أعظم وأجل، فلا يقع في قلبك الخوف مِن غيره.

- عندما يكون في حياتك شخصٌ متسلط له حُكم أو سلطة عليك، فتجد نفسك دائمًا تخافه وتحمل همَّه، وتفكر فيه.. لا تتصور أن أحدًا في الدنيا لا منجى ولا ملجأ منه، كل أهل الدنيا وكل شيء غير الله لك منه منجٍ، فهذا العظيم الذي تخاف منه، اعلم أن الله قادر على قهره ودفعه عنك بجبروته وقدرته.

- عندما تتعلق بشخصٍ ما، وتبني عليه آمالاً عريضة، ويخيب ظنك، كأن تحب زوجة زوجها وتتوقع منه أن يبادلها الحبَّ والحنان ولا يفعل، أو يقصد أخٌ أخاه ليحل له مشكلته فيتخلى عنه، أو يعجز عن مساعدته، أو تنتظر أم التقدير والبر من أولادها بعد الكبر ولا يفعلون.. تعلُّقك بالأشخاص يجعلك دائمًا في حالة من النقص لا تُسَد ولا تُجبَر، فعندما تتعلق بالشخص أصبحت رهينة له، لكن تعلَّقْ بالله، والله عز وجل سيُخَرِّج من هذا الشخص ما يجبر به نقصك.

لا تشكُ إلى الناس حاجتك إليهم، فهم لن يفهموك، ولن يشعروا بك، بل وقد يستثقلونك ويتهربون منك، اعلم أنه لا يعلم ما بقلوب العباد إلا خالقهم، اشكُ له وحده ما تفتقده وما تفتقر إليه ليجبرك هو بقدرته وقهره للعباد فيسخرهم لك، ويصلحهم لك، ويجعلهم يمنحونك ما تريد بأفضل وأنسب صورة، بل وأكثر مما كنت تريد حتى.

علاج اليأس والإحباط.. أسماء الله الكريم

(الوهاب، المجيب)

أشد المشاعر إيلاما هي مشاعر الإحباط، واليأس من تحقق ما نتمناه، وفقدان الأمل في أن تصبح أحلامنا في يومًا ما حقيقة.. فمنا مَن لا يجد عملاً، ومنا من لا يستطيع الزواج، ومنا من لا يقدر على إعالة أسرته وكفايتها، ومنا من لا يمكنه حتى مجرد التفكير في مستقبل أفضل.. كل هؤلاء لا يهنأون بشيء، ولا يشعرون بأي نعمة بكل أسف؛ لأن الإحباط يكسو الحياة بلون قاتم لا يمكن لأي بصيص ضوء الظهور بجانبه.

ولكن ألا يوجد حل؟.. لماذا يستطيع البعض البقاء متفائلين مستبشرين، بينما يدمر اليأس نفسيات البعض الآخر؟، لماذا يقوى البعض على الصبر وتحمُّل أصعب الظروف، بينما لا يستطيع البعض الآخر الانتظار لليوم التالي؟.. ما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء؟.. ما السر؟.. الفرق أن البعض يعرفون (الحل السحري) لجميع مشاكل الحياة مهما كانت، وهو: الدعاء. فكيف لا يطمئن ويستبشر ويتفاءل مَن عرف عظمة هذا السلاح؟

يظن الكثيرون أن اللجوء إلى الدعاء هو حلٌّ (نظري)، أو أنه حيلة الضعفاء، أو أنه مجرد مسكِّنٍ وقتيٍّ للفشل والإحباطات، ولكن كل هذا ليس إلا لأننا لم نعرف الله بعد بأسمائه (المجيب والكريم والوهاب)، فمعرفة هذه الأسماء معًا حقَّ المعرفة قوةٌ ما بعدها قوة، تبث اليقين في قلب كل محبط أنه لا زال هناك أمل، وأن الغد سيأتي بكل الخير لا محالة لكل من عرف ربه، ولنبدأ بمعرفة معنى هذه الأسماء..

• معنى اسم الله (المجيب):

- هو من دائمًا يقابل السؤال والدعاء بالعطاء والقبول.

- ومعناه أيضًا أنه المجيب لكل من ناداه، سواء في السر أو العلن، أيًّا كان هذا الداعي وأيًّا كانت صفاته.

• أما اسم الله (الكريم): فلَهُ أكثر من معنى، لكُلٍّ منهم جماله الخاص، لهذا علينا أن نمرر كلًّا منهم على قلوبنا ولا نقرأهم فقط سريعًا بأعيننا.. الكريم هو:

- الصفوح، أي كثير الصفح.

- سريع الإجابة لمن سأله.

- كثير العطاء والنفع، بسهولة وطيب نفس.

- الذي يعطي لا لعوض، أي الذي لا ينتظر مقابل ممن يعطيه، لا شكر ولا طاعة ولا غيره.

- يعطي بغير سبب، فهو كريم بذاته، ولا يحتاج إلى مبررات لعطائه.

- لا يحتاج إلى الوسيلة، أي وسيلة لتوصيل النعمة، وكذلك لا يحتاج إلى التوسل، فهو كريم يعطي كثيرًا بدون حتى سؤال.

- لا يبالي لمن أعطى (مؤمنًا أو كافرًا)، وكم أعطى.

- الذي يعم عطاؤه المحتاجين وغير المحتاجين.

- الذي يعطي حتى من يلومه أو يتهمه بالإهمال والنسيان.

- الذي لا يعاتب ولا يعاقب على ذلك.

- الذي يعطي حتى قبل السؤال.
- الذي يعطي بالتعرض، أي لأي شخص تعرض لكرمه وبركاته، حتى وإن كان غيرَ صالحٍ أو مستحق.
- الذي إذا قَدِر عفى.
- الذي إذا وعدَ وفى.
- الذي يحب أن يُسأَل في كل الأشياء صغيرها وكبيرها.
- الذي لا يرد من سأله، ولا يخيب من يلجأ إليه.
• أما اسم الله (الوهاب) فهو يعني:
- الوهاب أي كثير الهبة والمنّة والعطية، والوهاب صيغة مبالغة مما يفيد الكثرة والتنوع والتوالي والسعة.
- والهبة هي المنح بلا مقابل، وبدون وجه استحقاق أيضًا، وعليه فإن الله عندما يسمي نفسه بالوهاب، فهذا إقرارٌ منه بأنه يمنح بدون مقابل، وبدون سابق استحقاق للعبد، أي أنه يهب فقط لأنه من صفاته أنه كثير الهبة، وليس لأن عبده مؤمن أو صالح أو يستحق النعم والعطايا من عدمه.
• متى أدعو بهذه الأسماء؟
لا شكَّ أن لكل منا حاجته الخاصة، ومطلبه المختلف عن الآخرين، فلنا أن ندعو الله بهذه الأسماء -وغيرها- في كلِّ وقتٍ، ومن أجل أي شيء، فمثلاً:
1) لطلب الهداية والرحمة:
كما في قولة تعالى على لسان المؤمنين: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ }آل عمران8.
2) لطلب الملك أو السلطة:
وهو الشيء الذي قد يعتبره البعض أمرًا مُستَنكرًا، أو غير محمود، أو لا يجوز طلبُه، ولكنه ليس كذلك بكل تأكيد؛ لأن نبي الله سليمان دعا للحصول عليه، كما في الآية: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} (سورة ص الآية 35)، وأيضا في قوله تعالى: وقال تعالى {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (سورة الشعراء الآية 83)
3) لطلب الذُّرية: فالدعاء بهذا الخصوص مشهور جدًّا:
- {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (سورة الفرقان الآية 74).
لأن الأولاد والذُّرية من أعظم هبات الله، كما تضح في الآيات:
- {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا} (سورة ص الآية 43)
- {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ } (سورة الأنبياء الآية 72)
- {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} (سورة اللأنبياء الآية 90)
- {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (سورة ص الآية 30).
- {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، أو يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } (سورة الشورى49، 50)
وهنا توجد ملحوظة لطيفة.. وهي أنه عندما يستحضر الإنسان في ذهنه دائما أن أولاده هبة من الله، يجب أن تهون عليه متاعبهم وأعباؤهم والجهد المبذول معهم، لأنهم نعمةٌ لم تُوهَب للكثير.

وباستحضار ذلك أيضًا يجب أن تتغير فكرة البعض عن إنجاب البنات، على أنه نقصٌ أو خزي، أو هَمٌّ لا نهاية له، فهن هبة الله لعبده، وفيهن قيل الحديث الشريف:
(مَن كان له ثلاث بنات فصَبِرَ عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابًا من النار يوم القيامة)([5])
4) لطلب الزواج: وهو ما قد يتحرج منه البعض، وخاصة الفتيات ممن يعانين من تأخُّر زواجهن، مع أنه من أكثر الأمور استحقاقًا للدعاء في طلبها، كما في الآية:
{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (سورة الفرقان الآية 74).
5) كذلك يمكن استخدام هذا الدعاء لإصلاح الزوج أو الزوجة، فقد يكون شريك الحياة من ذوي الطباع الصعبة، أو غير متوافق مع شريكه الآخر، فنحاول معه تلميحًا وتصريحًا، نتحاور تارة، ونتشاجر تارة، نطلب أحيانًا، ونرجو أحيانًا، بل ونتوسل ونتذلل أحيانًا، وبلا فائدة، حينها ييأس الإنسان من أن ينصلح الحال، ومن أن يجد الوفاق والسعادة يومًا ما مع شريك حياته، لأننا ننسى أن السعادة والهناء وقرة الأعين من الأمور التي يهبها الله، والتي تُطلَب منه وحده، لا من البشر.
لهذا لنا أن ننتبه من الآن فصاعدًا أن أقصر وأسرع وسيلة لتحقيق المُرَاد من أي شخص هو التوسُّل إلى الوهاب الذي يملك هذا الشخص ويملك قلبه، لا التذلل للأشخاص الذين لا يملكون شيئًا، فضلاً على أنهم لا يملكون أنفسهم.
*وماذا يهب الوهاب أيضًا؟
- الأهل (أب ، أم، أخ، أخت، أقارب) كلهم من هبات الله، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} (سورة مريم الآية 53)
- الشكر على النعمة، وهو السبيل لدوامها وزيادتها، كا في الحديث:
روى ابن أبي الدُّنيا في كتاب الشُّكر عن بكر بن عبد الله قال: "ما قال عبد قطّ الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله، فما جزاء تلك النّعمة؟ جزاؤها أن يقول: الحمد لله، فجاءت الأخرى، ولا تنفد نعم الله -عزّ وجلّ-"([6]).
• أغلب الناس لا ينكرون أيًّا من هذا على الله، ولا يجادلون فيه، لكنهم ومع ذلك لا يستفيدون منه، لا يطبقون، لا يدعون، لماذا؟، ترى ما الذي يمنعنا من الدعاء والطلب من الله طالما أننا نعرف أنه مجيب، كريم، وهَّاب؟؟؟
1) لأننا نفتقد إلى اليقين وحُسن الظن في الله، لأننا لا نعرفه حقًّا، ونجهل عنه الكثير؛ لهذا فإن هذا الأمر لن يتغير إلا بالتعلم عن الله، ومعرفته بأسمائه وصفاته الجميلة، التي كانت السبب في قوة إيمان وشدة يقين الأولين، فاليقين يحتاج إلى تعلُّم كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام (تعلموا اليقين كما تعلموا القرآن حتى تعرفوه فإني أتعلمه).
2) لأننا لا نعتقد أن الله سينجينا نحن بالذات، لأننا قد نكون مذنبين أو مقصرين، أو بعيدين عن الله..
وهذا من أكثر المعتقدات شيوعًا بين الناس، وأكثرها خطأ أيضًا، فكما سبق وعرفنا من معاني الله الكريم أنه يعطي كل من سأله، وليس الصالح منهم فقط، وإلا ما كان أعطى كافرًا شَربة ماء في هذه الدنيا.

فقد قال الله عن نفسه: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) (سورة النمل الآية 62)، قال إنه يجيب المضطر، أي مضطر، ولم يقل المؤمن أو الصالح أو العابد فقط، لأنه من صفاته المجيب، ولأنه يعطي بفضله، لا باستحقاق السائل أو بحسن عمله.
فالله يجيب أي سائل حتى ولو كان كافرًا، بل والأكثر من ذلك أنه أجاب إبليس نفسه في طلبه من الله عَزَّ وجَلّ بأن يمهله ويؤخره إلى يوم القيامة ليفتن بني آدم ويردهم عن الله، فاستجاب له الله، وأمهله ليفعل، كما في الآية: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} (سورة الإسراء الآية 62).
غير أن مجرد الانطراح على باب الله، واللجوء إليه، وسؤاله هي أسباب لتكفير الذنوب، وغفران الخطايا، فرب دمعة صادقة، أو سجدة خاشعة كانت سببًا لمحو كل ما فات مهما كان ومهما بلغ.
3) لأننا نخجل من أن نطلب، أو نتكاسل عن جمعِ قلوبنا، وبذل الجهد في الدعاء المخلص إلى الله، فالمناجاة الصادقة لا تأتي مصادفة، وإنما تحتاج إلى السعي والتعمد وتفريغ النفس والروح، ففي الآية: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (سورة غافر الآية 60)، وصف الله مَن لا يدعوه بأنه يستكبر عن عبادته؛ لأن الدعاء هو العبادة، ولأنه يحتاج إلى بذل واجتهاد وصبر على التكرار.
4) اعتقاد أن الزهد في الإجابة هو الصواب:
فالزهد في الدعاء ليس من التواضع، بل بالعكس، ارفع سقف مطالبك في الدعاء سواء للدنيا أو للآخرة، فعباد الله يثقون به، وفي قدرته، وفي أنه أكرم من أن يرد سائلاً، وأقدر من أن يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فاسمع دعوة سيدنا سليمان.. ماذا طلب فيها.. (قال رب اغفر لي وهَب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب).. فماذا كانت إجابة الدعاء؟، أن جمع الله له النبوة والمُلك والعلم والحكمة، وسخَّر له الريح والجن والطير.. حقًّا ملك لم يبلغه أحدٌ من بَعده عليه السلام، يا صديقي، عباد الله العارفون به يسألون الله المستحيل ولا يبالون، لأن إجابة الدعاء على قدرِ المجيب لا على قدر السائل، وإلا ما رزق الله الكافرين والغافلين شربة ماء في هذه الدنيا.
5) لأن الإجابة تتأخر أحيانًا، وقد لا تحدث، ولأن كثيرين دعوا ولم يحدث لهم شيءٌ، ولم يتغير لهم حال؟ فلماذا إذًا؟
في هذه النقطة بالذات نحتاج إلى الكثير من التفصيل..
• ترى لماذا تتأخر الإجابة؟
1) أول سبب لتأخير الإجابة هو اختبارُ صبر الإنسان، وامتحان ثقته بربه وحُسن ظنه به، فتأخر الإجابة قد يكون ابتلاءً في حدِّ ذاته قد ينجح فيه الإنسان أو يرسب، فالله يريد أن يعرف أننا نثق به، ونصدق وعده ، ونوقن بما عنده تمام اليقين، حتى وإن تأخر الفرج، وحتى ولو لم تظهر أي بشرى.
فنبي الله (أيوب) لم يعافَ، ونبيه (يعقوب) لم يرد إليه ولده يوسف، ونبيه (موسى) لم ينصر على فرعون عدوه إلا بعد سنوات من الدعاء، كذلك أم المؤمنين (عائشة) لم تظهر براءتها في حادثة الإفك إلا بعد دعاء طويل دام لما يقرب من الشهر أو يزيد.. كُلُّ هذا ولم يفقد أحدُهم ثقته، ولم يفتر صبره، ولم ييأس من روح الله.

2) حتى يشعر الإنسان بمشاعر الضعف والحاجة والانكسار إلى الله، التي لا يشعرها إلا في مثل هذا الموقف، فلا شيء حقًّا يقرب العبد من ربه أكثر من الإحساس بالحاجة والافتقار، والعجز وقلة الحيلة عن الوصول إلى المراد.

3) حتى ترفع الدرجات، وتعلو المقامات، فحتى وإن لم يكن لتأخير الدعاء فائدة غير أن يعتاد المرء الوقوف على باب الله؛ ففي ذلك فائدة عظيمة لهذا الإنسان؛ لأنه سيزداد قُربًا، ويعلو مقامًا، ويصبح ممن يذكرون الله كثيرًا، فيذكرهم هو أيضًا، وماذا بعد ذلك من فضل؟

4) لمراجعة النفس، فقد يحتاج البعض إلى مثل هذه الوقفة حتى يراجع ما سبق في حياته، ويصحح من عمله، ويصلح من أخطائه، ويعدل عن ذنوبه، فمن منا يلتفت إلى هذا إلا إذا تعقدت الأمور وأجبرته الظروف على الوقوف وإعادة التفكير؟

هذا عن الأسباب، لكن الأكثر من ذلك أنه لنا أن نعرف أنه أحيانًا قد يكون لتأخير الدعوة فوائد كثيرة وعظيمة، ونحن لا نعرف عنها شيئًا أو نغفلها..

فوائد تأخير الدعاء

1) قد لا يشعر الإنسان بقيمة النعمة إذا جاءته سريعًا، أو بدون انتظار، ولا يُقدِّرها حقَّ قدرها إلا إذا تأخرت عنه لبعض الوقت، فكثيرون هم من يتململون من أزواجهم، بل ويندبون حظهم لأنهم تزوجوا مبكرًا، ناسين أن هذه نعمة، وهناك من يشكون ليل نهار من أولادهم الذين أنجبوهم سريعًا، ناسين أن هذه نعمة، وهناك من يتضجر من عمله الذي وظَّفه فيه والده فور تخرجه، ناسيًا أن هذه نعمة.. فنحن البشر هكذا عندما نحصل على النعم فورًا نفقد الإحساس بها، ونغفل الشكر عليها، ولا نقدر قيمتها بصدقٍ إلا إذا أتعبنا تمنيها والتطلع إليها.

2) إذا كان كل دعاء الإنسان مستجابًا قد يغتر الإنسان بنفسه، ويعتقد في نفسه وعمله شيئًا إذا أجابه الله في كل ما يطلب، وفور طلبه، مما قد يهلكه لأنه سيظن أن له مكانة أو كرامة عند الله فيركن إلى ذلك.

3) وإذا كان كل ما يتمناه الإنسان مجابًا لكان ذلك سببًا للاستغناء عن الله، والبُعد عنه عند الإحساس بعدم الحاجة إليه، كما في الآية: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) (سورة الإسراء الآية 83).

4) إذا كان الإنسان مجاب الدعاء دائمًا وأبدًا، وبشكل فوري، سيكون ذلك سببًا لحب الدنيا والتعلق بها، ونسيان أنها ليست دار قرار، فعندما نشعر بالتعب والنقص واستحالة اكتمال الراحة والسعادة في الدنيا تتوق أنفسنا إلى الآخرة، حيث الحياة الأبدية، ونجتهد للسعي لها.

5) قد يكون تأخُّر إجابة دعوة ما، هو سببٌ لدفع سوءٍ ما نحن لا نعرفه ولم يخطر لنا على بال، فكما بشَّرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن الدعوة إما تُجاب كما هي في الدنيا، أو يدفع بها سوء، أو تختزن للعبد فتجاب له يوم القيامة.

فمِن كل ما سبق يجب أن نتأكد من أن لتأخر الإجابة أو حتى لعدم حدوثها من الأساس حكمة، لا يعلمها إلا الله الحكيم، الذي لا يسئل ولا يراجع في أفعاله، فإذا ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى- أنه قد مرض أحدُنا وذهب إلى الطبيب، هل يملي المريض على الطبيب العلاج؟، هل يشترط دواء معينًا؟، هل يصر على أن يكتب له الطبيب تركيبة بعينها؟.. أبدًا، فقط يسلم نفسه للطبيب، ويترك له التقدير وكامل الاختيار فيما سيكتب من علاج، ولا يناقشه في التوقيت الذي سيستمر فيه على العلاج، فإذا قال له استمر على هذا الدواء لأسبوع أو لشهر أو حتى لسنة سيفعل، وبكل استسلام، لأنه موقن بأن الطبيب يعرف ما يفعل، فلماذا لا نفعل المثل مع الله؟، ولماذا لا نصدق أنه ما منع عنا إلا لصالحنا، ولأنه الخير لنا؟، و(أن الله يمنع الدنيا عمن يحب كما يمنع أحدكم سقيمه الماء) كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام؟

فأبدًا لا يجب أن نسمح للشيطان بأن يوهمنا بعد الآن بأن الله أخَّر عنا أو حرمَنا لإهمالٍ أو لغفلة أو لبخل، فها هو الحديث يقول:

(يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده)([7])، أي إن الله ينفق على عباده ويجيبهم ليل نهار، وأكبر دليل على ذلك كل ما أنعم عليهم من نعم ومنحهم من عطايا منذ خلق الخليقة وحتى يوم الدين، أيفعل هذا بخيل؟

وبعد كل هذا.. هل لا زال لدينا شك في قدرة الله؟، وفي عطائه وكرمه وإجابته؟، هل يمكن أن يكون لليأس والإحباط الغلبة على قلوبنا بعد أن عرفنا هذا السر الأعظم ألا وهو الدعاء؟

علاج اليأس والتشاؤم

(المنَّان)

هناك قلوبٌ طال انتظارها، وفاض رجاؤها، وأنهكها التمني.. فتبدل الأمل باليأس، وانقلب الحلم إلى إحباط، ولم يعد هناك مجال لما يتحدث عنه الناس هذا.. الذي يسمونه التفاؤل..

ولكن مهلاً.. فمعرفة الله باسمه المنَّان ستقلب كل الموازين، وستضع نهاية لكل هذا الظلام، فحقًّا وصدقًا: (ألا بذِكر الله تطمئن القلوب)..

اسم الله (المنان)

- لم يرد اسم الله (المنان) كاسمٍ في القرآن الكريم، وإنما وردَ كثيرًا كفعلٍ (من الله، يمن عليكم..) في 11 موضعًا من القرآن، وسنعرض الآيات التي ورد فيها تفصيلاً بعد قليل، لكنه ورد كاسمٍ صريحٍ في السُّنَّة النبوية المطهرة، عندما سمع الرسول الكريم أحدهم يدعو الله بهذا الدعاء (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، بديع السماوات والأرض، الحنَّان، المنَّان، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم) ، فبشَّر الرسول هذا الرجل وقال له لقد دعوت الله باسمه الأعظم، أي باسمه الذي إذا دُعي به أجاب، وقد اختلف العلماء حول ما هو هذا الاسم تحديدًا، لكن ما يهمنا في هذا المجال أن اسم الله (المنَّان) من الأسماء المتفق عليها من أسماء الله الحسنى ولا جدال.

- ما معنى (المنان)؟

المنَّان اسم له أكثر من معنى، ويختلف معناه كثيرًا في حالة أنه في حق الله، عن كونه في حق البشر.. كما يلي:

أولاً: المنان في حق البشر أو (كوصف للإنسان):

- المَنُّ هو أن يعد أحدهم النعمة على الشخص الذي أنعم عليه، وأن يتحدث بها على الملأ بصورة تؤذي مشاعره من ساعده، بل وتقريع هذا الذي ساعده أحيانًا بسبب منته عليه.

- ويقال أيضًا إن المَنَّ هو الانقطاع، كما قال تعالى في سورة التين (فلهم أجرٌ غير ممنون) أي أجرٌ غير مقطوع، ولهذا فإن المنَّان من البشر معناها هو من يقطع الإحسان إذا أعان أحدًا بالمنِّ عليه وإشعاره بتفضله عليه.

- كذلك جاء في حديث الرسول الكريم (لا تزوِّجوا المنانة)، والمنانة من النساء هي المراة كثيرة المال التي تساعد زوجها بمالها ثم تمنُّ عليه عونها ومساعدتها ورفعها له، فتؤذيه وتجرح مشاعره.

- والمَنُّ في حق البشر صفةٌ مذمومةٌ، وأمرٌ مستقبح، وفعله يحبط العمل أي يبطله ويجعله بلا أجرٍ أو ثواب؛ لهذا جاء في أكثر من موضع في القرآن الكريم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ} 264 البقرة، {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (سورة البقرة الآية 262).

بل إنه من الكبائر التي توجب غضب وعذاب الله، كما في الحديث الشريف (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنان بما أعطى، والمنفق سلعته بالكذب)، وفي حديث آخر (ثلاثة يشنؤهم -أي يكرههم- الله: التاجر الحلاف، والفقير

المختال، والبخيل المنان)، فكم من منانٍ لم يتخيل قط أن مجرد منه على غيره سيكون هو السبب لئلا ينظر إليه الله ولا يكلمه بل ويكرهه يوم القيامة!!

- وقد يكون المن إحساسًا داخليًّا لدى الشخص صاحب العطاء أو المنة، دون أن يظهره قولاً أو فعلاً، فقط بأن يشعر في نفسه أنه أفضل وأعلى ممن ساعده أو أعطاه، أو بأن يتوقع أن يشكره هذا الشخص، أو يوقره أو يبجله أو يبذل له أي نوعٍ من الاحترام الزائد.. وهذا كله يعتبر من المن أيضًا، وهو مذمومٌ بلا شك، حتى ولو لم يكن واضحًا أو ظاهرًا، كما جاء في سورة الإنسان (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا).. فالآية توضح أن انتظار الشكر أو التوقير أو ما شابه أشياء تشوب العمل وتنقص منه، بل وتحبطه تمامًا في بعض الأحيان إذا كان ذلك هو الهدف من العطاء في الأصل.

ثانيًا: المنان في حق الله عز وجل أو (كاسمٍ من أسماء الله الحسنى):

أما (المنان)في حق الله فيختلف كل الاختلاف، إلى حد النقيض، وله أكثر من معنى:

1) المنان هو المعطي ابتداء، أو الذي يجود بالنوال قبل السؤال، أو بمعنى أبسط هو الذي ينعم على الإنسان ويعطيه قبل حتى أن يسأله، فيعطيه نعمًا لم يكن قد خطر بباله طلبها من الأساس، فمَنْ مِنَّا مثلاً كان قد طلب من الله أن يولد مسلمًا وأن ينعم عليه بنعمة التوحيد؟، مَن مِنَّا كان قد سأل الله نعمة الصحة والعافية؟، مَن مِنَّا كان قد دعا الله أن يجد من يطعمه ويكسيه ويرعاه وهو رضيع ضعيف لا حول له ولا قوة؟، مَن مِنَّا كان قد تمنى من الله أن يكون له أن يكون له أبٌ وأم وأهل؟.. المنان بفضله وعطائه ومَنِّه قد رزقك كل هذا ابتداء، من قبل أن تسأله، وحتى دون أن يخطر ببالك أن تدعوه وتطلب منه.

2) المنان هو الذي ينعم عليك بمنته ولا يتنظر عليها جزاء، ولا مقابل، وحتى وإن كنت لا تستحق، فهو يرزق الناس جميعًا المؤمن والكافر، البار والفاجر، الملتزم والفاسق، المأوى والمأكل والملبس والصحة والمال والأهل والذرية و.. و.. و.. سواء كانوا يستحقون أو لا، ودون أن ينتظر منهم حمدًا أو شكرًا أوحتى اعترافًا بالجميل والنعمة، فهو مُحسِنٌ يحسن إليك غير معتد بإحسانه، أي لا يعده ولا يحسبه عليك.

3) المنان هو (كثير النعمة وعظيمها)، فالمنة في اللغة هي (النعمة العظيمة الثقيلة)، كما يقال إن فلانًا قد منَّ على فلان بأن صنعَ فيه معروفًا أو أعطاه منحة لا يستطيع أن يوفيه شكره عليها من عظمتها وكثرتها وثقلها، كذلك الله يمن على عباده بنعمٍ ومِنَن كبيرة وعظيمة وكثيرة لا يمكنهم أن يشكروه عليها حق الشكر لعظم قدرها، ولكن الإنسان للأسف قلما يلتفت إلى هذه النعم والعطايا إلا إذا فقدها أو سُلِبَت منه، فيشعر بمنة الصحة عند المرض، ومنة السعة عند الضيق، ومنة الأهل عند الاغتراب أو عند رحيلهم؛ لهذا قال تعالى في سورة النحل الآية 18 {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، ولهذا أيضًا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لربه في مناجاته له (لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)، أي لا أقدر على مدحك وشكرك وحمدك كما تستحق، أنت وحدك يا الله من تستطيع.

- ولنتدبر بعض منن الله علينا كما وردت في القرآن الكريم:

1) قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (سورة النساء الآية 94)..

في هذه الآية ينهي الله المؤمنين عن أن يتهموا غيرهم بعدم الإيمان، فيذكِّرهم (ذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ) أي إنكم أنتم أنفسكم لم تكونوا مؤمنين من قبل، لكن الله هو الذي منَّ عليكم بالإيمان والإسلام..

أيضًا في الآية 17 من سورة الحجرات {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}

فما أعظمها من نعمة وما أثقلها من منة؟، فحقًّا لا شيء يعادل نعمة أن يُرزَق الإنسان الاسلام، وأن يعيش ويموت على الإيمان والتوحيد، ليلقى ربه راجيًا متأملاً في الجنة ونعيمها، بينما يموت غيره لينتهي حظه من النعم والخيرات إلى الأبد، مهما كان منعَّمًا سعيدًا في الدنيا، فيلقى ربه ليتلقى حسابه العسير ويوفى جزاء كفره بالله أو شركه به.

وهنا توجد لفتة هامة جدًّا تلفت انتباهنا إليها آية سورة النساء السابقة، وهي ألا يتعامل أيٌّ منَّا مع الآخرين على أنه أفضلهم، أو أكثرهم إيمانًا أو طاعة أو قربًا، أو أعلاهم درجةً، أو(خير منهم)، فهذا هو مبدأ الشيطان حين قال (أنا خير منه)، أما المؤمن الحق يجب أن يكون مبدأه عكس ذلك تمامًا، فيتعامل على أساس (هو خير مني)، (أنا من ذنوبي على يقين ومن ذنوب غيري في شك)، (قد يرزقه الله توبة نصوحة فيرفعه، وقد لا يقبل توبتي).. فاعتقاد الإنسان أنه مُقرَّب أو أفضل أو أعلم آفةٌ خطيرة تحطمن شأن صاحبها لا العكس.

2) قال تعالى (فمَنَّ اللهُ علينا ووقَانَا عذابَ السمومِ) (سورة الطور الآية 27).. أيُّ نعمة أكبر من أن ينجي الله الإنسان من النار؟، ويقيه عذابها وجحيمها؟، أي منة أفضل من أن يرحمه ويتجاوز عن سيئاته ويغفر له ذنوبه وتقصيره، فيجنبه الخزي والعذاب ويكتبه من أهل الجنة ونعيمها؟.. أليست حقًّا تلك هي نعمة النعم ومنة المنن؟.. فمَن مِنَّا سيستحق أن يُزحزَح عن النار ويدخل الجنة إلا بمنة المنان وحده؟.. لا بعمل ولا بعبادة ولا باجتهاد، إلا أن يتغمده الله برحمته وعفوه ومغفرته ويمن عليه بكرمه.

4) قال تعالى لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (سورة آل عمران الآية 164).. في هذه الآية تتضح منة أخرى عظيمة من منن الله على عباده المؤمنين، وهي (الرسول) عليه الصلاة والسلام، وقد لا يشعر البعض بهذه النعمة العظيمة لأنه لم يتخيل فقدانها، فلنتصور أن الله قد ألزمنا بالإسلام والإيمان، ثم تركنا هكذا كُلٌّ منا يعبده ويتقرب إليه على طريقته الخاصة، صابت أو خابت، ولن يعرف نتيجة عمله إلا بعد مماته حين يلقى الله، وبعد أن يكون قد فات الأوان..

إلا أنه من رحمة الله بعباده أن بعث إليهم رسولاً بَشرًا مثلهم، يوضح لهم الطريق الصحيح إلى الله، في كل شيء وبأدق التفاصيل، سواء في العبادات أو التعاملات أو الأخلاق أو حتى العادات اليومية، ولم يترك عباده يتخبطون ويجربون، يصيبون مرة ويخطئون مئة مرة.. تمامًا كالمدرس - ولله المثل الأعلى- الذي يضع امتحانا، ويعطيك نموذجًا لطريقة الإجابة قبل الامتحان، حتى يكون لديك المثال الذي تحتذي به، فلا تتعب ولا تحتار، ولا تكون في ريبةٍ من أمرك طوال الوقت هل أحسنت أم أسأت الإجابة.

هذا بخلاف أن وجود الرسول الكريم أثناء حياته بين أصحابه كان له عظيم الأثر عليهم وعلى تربيتهم وتكوين شخصياتهم على الإسلام، الشيء الذي لا نتصوره نحن لأننا حُرِمنا وجوده بيننا في عصورنا هذه، لكننا وبالرغم من ذلك لم نحرم هديه وإرشاده، اللذين حفظا لنا في السنة النبوية الشريفة حتى الآن.

5) قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) (سورة الأنعام الآية 53).. المنة المقصودة هنا أيضًا هي الإيمان والإسلام، فكما تقول الآية أن الأغنياء من الكفار والذين كانوا يعتبرون أنفسهم علية قومهم تعجبوا واستنكروا عندما هدى الفقراء والضعفاء إلى الإسلام، فكانوا يتساءلون في سخرية واستنكار أهؤلاء الذين هم أقل منا بكثير اصطفاهم الله ومَنَّ عليهم بالإسلام من دوننا؟.. والآية بها معنى جميل لا يجب إغفاله أبدًا، فقد قيل عن هذه الآية أنها وحدها كفيلة بأن تعلم الحاسدين أن يكفوا عن حسدهم لأي شخص وعلى أي شيء.. كيف؟

ماذا كان رد الله على استنكار هؤلاء القوم الذين كانوا يستعظمون أنفسهم؟.. قال لهم (أليس الله بأعلم بالشاكرين؟)، فيا أيها الحاسد الحاقد الناقم، الذي تعتقد أنك أفضل من غيرك، وأنك أحق منه بأي نعمة، والذي تتعجب جدًّا من فعل الله وإنعامه على من تراهم أنت أقل منك.. أليس الله بأعلم بالشاكرين؟، وهذا التعقيب له معنيان:

الأول: أي أليس الله اعلم بمن هو صابر في الضراء والشاكر في السراء، فيجزيه ويثيبه وينعم عليه كيفما يشاء؟، فقد تكون أنت يا مَن ترى أنك أغنى، أو أقوى، أو أجمل، أو أعز، أو أشرف لست شاكرًا حامدًا صابرًا مثله، فلماذا تعطي نفسك حقَّ توزيع النعم والأرزاق؟، ألا تتركها لمن هو أعلم بما يدور في نفسك ونفوس غيرك؟

والثاني: إن الله وحده يعلم من الذي سيشكره على نِعَمه إذا منحه إياها، فيمنحها له، ويمنعها عن من يعرف أنه لن يشكر، حتى لا يعاقب على عدم شكره وتقديره للنعمة، وهذا ما يسميه العلماء (المَنُّ بالمنع)، أي أنه منعك ليجنبك عقوبة عدم شكرك على النعمة، لأنه أعلم بك وبحالك وبأنك لن تكون من الشاكرين.

6) قال تعالى (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (سورة طه الآيات 36: 39)..

في هذه الآيات تتضح منن الله عز وجل على عبده ونبيه موسى عليه السلام، فأولها أنه هو من ألْهَمَ أمه كيف تتصرف لتنقذ طفلها من فرعون، فأنقذه الله من الموت وهو لا زال رضيعًا لا حول له ولا قوة، وثانيها أنه هو من ألقى عليه محبته، أي زرع محبة الله في قلبه، فجعله عبدًا مُحبًّا مشتاقًا متعلقًا بالله، ويا لها من نعمة ومنة، وثالثها أنه صنع سيدنا موسى وخلقه (على عينه)، وفي آية أخرى من نفس السورة (واصطنعتك لنفسي) أي أنه ولَّاه عناية ورعاية خاصة في خلقه، وكفاه شرفا وعزًا أن قال اللإ أنه اصطنعه له عز وجل.

وفي آية أخرى قال تعالى: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) (سورة الصافات الآية 114، 115).. فهذه منة جديدة من الله على عبده موسى وأخيه هارون، إذا حفظهما ونجاهما من فرعون وبطشه وتجبره، ففرعون لم يكن كأي طاغية، فهو لم يكتفِ بالحكم والهيمنة والملك، بل ادعى الألوهية، وقال أنا ربكم الأعلى، الشيء الذي لم يجرؤ أعتى جبابرة التاريخ على قوله، لهذا قيل إن سيدنا موسى كان في فتنة من أشد الفتن، وفي خطر من أعظم الأخطار؛ لأنه كان من المتوقع أن يكون فرعونًا جبَّارًا في بطشه بسيدنا موسى وأخيه عندما يذهبان ليقولا له أنه ليس بإلهٍ ولا بِرَبٍّ، وأنه مخلوقٌ مثله مثل بقية

البشر، بل ويدعونه للدخول معهم في التوحيد، ولكنَّ الله (المنان) مَنَّ على موسى وهارون بالنجاة من هذا الطاغية، بل ونصرهم عليه، وأغرقه وجعل منه عبرة لمن يعتبر.

7) قال تعالى {نُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} (سورة القصص الآية 5)..

توضح هذه الآيات الكريمة منة الله العظيمة على بني اسرائيل، الذين كانوا مستضعفين من فرعون، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم كيف يشاء، فإذا بنعمة الله الثقيلة عليهم بأن نجَّاهم من فرعون، بل وجعلهم هم الأعلى شأنًا بعد أن كانوا ضعفاء فقراء أذلة، بأن جعلهم أئمة للخير ودعاة له، وأورثهم الأرض بعد هلاك فرعون وهامان الطغاة الذين كانوا يظنون أنهم ليسوا إلى زوال، وأن أعمارهم ومُلكهم وسُلطانهم لا نهاية لهم.. فلنتدبر هذه المنة التي لا يقدر على منحها سوى الله المنان القدير، الذي بقدرته وحده أن يقلب الموازين فتصبح كفَّة المستضعفين هي الراجحة بعد أن كان مجرد نجاتهم حلمًا مستحيلاً وبعيدَ المنال؛ لهذا فهي منة وليست مجرد نعمة؛ لأنها كبيرة وعظيمة وثقيلة، كما أنها محض عطاء من الله، فلم يكن يحلم بها أو يتمناها بنو إسرائيل أو حتى خطرت ببالهم قبل حدوثها.

8) قال تعالى: {قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (سورة يوسف الآية 90)..

وفي هذه الآيات يحدِّث سيدنا يوسف بمنة الله الخالصة عليه إذا جمع بينه وبين أخيه بعد طول فراق، وبعد أن ظنَّ أن اللقاءَ مستحيلٌ، ليس هذا وفقط بل وكتب سبحانه وتعالى ليوسف النجاة من فِتَنٍ كثيرة، بداية من إلقائه بالبئر، وفتنة امرأة العزيز، وفتنة السجن، ليس هذا وفقط بل والأكثر والأغرب من ذلك أن جعل له (خزائن الأرض) وسُلطان وملك وجاه لم يكن ليتخيل أن يصبح له وهو الصبي الصغير الوحيد الضعيف الذي بيع كعبد منذ بضع سنوات..

ويعقب سيدنا يوسف على هذا بأنه مهما اشتدت المِحَن وكثرت البلايا فإن الله لا يضيع أجرَ المحسن الذي يتقي ويصبر، ويحسن الظن بربه وينتظر الفرج مهما اشتدت الأزمات.

9) قال تعالى {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (سورة إبراهيم الآية 11)..

في هذه الآية يرد الرسل على أقوامهم الذين كذَّبوا بهم وسخروا منهم، واستنكروا أنهم بشر مثلهم وليسوا ملائكة منزلين مثلاً؛ فقال الرسل نعم نحن بشر مثلكم بالفعل، ولكن منة الله علينا كانت اختياره واصطفاءه لنا من بينكم، وتشريفنا برسالاته وحمل دينه، والدعوة إليه، وهي منة ما بعدها منة، فمن منا لا يتمنى لو أن الله استخدمه في الخير لينال شرف أن يكون من جنده في الأرض؟، ليجمع بين خيري الدنيا والآخرة، فيكون من السعداء في الدنيا، ويكون من الآمنين يوم الفزع الأكبر.

10) قال تعالى: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} (سورة القصص الآية 82)..

أما في هذه الآية فتتضح منةٌ مختلفة من بها الله على عباده الذين كانوا يعيشون في عصر قارون، ويحسدونه على ماله وثرائه وجاهه، ويتمنون سرًّا وعلانية أن يكونوا مثله، فبعد أن خسفت به

وبداره الأرض أفاق الناس، انتبهوا إلى رأفة الله بهم، ونعمته ومنته عليهم بأن كان حليمًا عليهم، لم يأخذهم بما كان في قلوبهم، ولم يعاقبهم لحظيًّا على تمنيهم أن يكونوا في مكانِ قارون، ولكنه أمهلَهُم، وأراهم عاقبة تجبُّر قارون أمام أعينهم، ليلقِّنهم الدرسَ دون أن يصيبهم همٌّ مكروهٌ أو أذى، فيتعظ من يتعظ، ويستغفر مَن يستغفر، ويتوب من يتوب، وقد كان سبحانه وتعالى قادرًا على أن يخسف بهم الأرض هم أيضًا، وأن يأخذهم أخذَ عزيز مقتدر فورًا وعلى حين غفلة منهم.

• ما علاقة اسم الله (المنان) بعلاج اليأس والتشاؤم؟

يفقد الإنسان منَّا الأملَ عندما يشعر أن ما يتمناه بعيد المنال عنه جدًّا، أو أنه شديد الصعوبة، أو شِبه مستحيل، فييأس، ومع طول فترة يأسه يصبح متشائمًا يتوقع الفشل والخذلان في كل شيء، لشعوره بأن كل شيء صعبٌ ويحتاج إلى معجزة لحدوثه..

فمن يبحث عن عملٍ منذ سنوات، ومَن تعاني تأخُّر زواجها، ومن أنهكه مرض مستعصٍ، ومن أتعبها طباعُ زوجها الصعبة.. و.. و.. و.. كل هؤلاء يأتي عليهم وقتٌ يفقدون الأمل في أن ينصلح حالهم في يومٍ ما، فكُلٌّ منهم يرى مشكلته صعبة، وحلها بعيد أو غير ممكن، فيسكن اليأس القلب، ويسيطر الإحباط على العقل، ويصبح التشاؤم سيد الموقف..

لكننا عندما نتذكر أن لنا ربًّا سمى نفسه بـ (المنان).. أي من ينعم على عباده بالنعم العظيمة الثقيلة الكبيرة، التي لم يكونوا يتخيلونها يومًا ما، ودون مقابل أو وجه استحقاق، ودون حتى أن يطلبوها هم منه.. يتغير الحال، ويدبُّ الأمل في النفوس من جديدٍ، فتأخُّر الفرج ليس لصعوبة ما نريد، أو لاستحالة حدوثه، أو لأنه أكثر مما نستحق، التأخر ليس إلا اختبارًا ليميز الله الصابرين من غيرهم، وابتلاء ليفرق بين من يحسنون الظن به من سواهم؛ لهذا قال (ابن القيم) إن القلب يُذهَل عندما يستحضر معنى اسم الله (المنان والأول) لشدة ما يبثونه في الروح من يقينٍ وطمأنينة وتفاؤل حتى في أحلك الظروف.. ولنتذكر دائمًا أن (العطايا بعد البلايا مدهشة) وأن (الله إذا أعطى أدهش).. لأنه حقًّا منَّان..

فالذي مَنَّ عليك بالإسلام قبل أن تطلبه، وبالصحة قبل أن تقدِّر قيمتها، وبالأهل بغير أن تسأله، وبالعقل دون أن تدعوه به.. ومَنَّ على يوسف بالنجاة والمُلك وتغير الحال، ومَنّ على بني اسرائيل بالتمكين ووراثة الأرض، ومَنَّ على موسى بالثبات والانتصار.. قادرٌ على أن يمنَّ عليك، ويمنحك كل ما تريد مهما كان حجمه، ومهما بلغت عظمته أو صعوبته، ولكن فقط في وقته المناسب وبالكيفية التي يريد والتي هي الأفضل لك.

علاج ضيق الرزق

الرزاق

الماديات.. أرَقٌ لا ينتهي، مشاكل لا تتوقف في أغلب البيوت؛ فهذا يعاني البطالة ككثير من الشباب هذه الأيام، وهذا يعمل ولساعاتٍ طويلة من اليوم ومع هذا فالعائد لا يكفي لأن يتزوج ويفتح بيتًا، وهذا يعمل بدلاً من الدوام اثنين ولكنه أبدًا لا يوفي متطلبات أولاده، وهذه تعمل صباحًا خارج البيت ومساء داخله في محاولة لزيادة دخل أسرتها، وهذا يضيق على نفسه ويحرمها ليعلم أولاده، وهذه تستدين وتتسلف لتزوج ابنتها، وهذا يبحث عن سفرٍ لأي مكان راضيًا بالغربة أملاً في بعض السعة.. وهذا وهذه وهذا.. السعي وراء المال، والجهد وراء أبواب الرزق أصبح الشغل الشاغل للجميع، حتى الغني منهم فهو لا يتوقف أيضًا عن التفكير في كيفية إنماء واستثمار أمواله حتى تزيد وتكبر مع الأيام لتحقق له مزيدا من الأمن والاستقرار..

ولكنَّ الأمرَ أصبح شبيهًا بالصداع المزمن، أصبح التفكير فيه أمرًا يطاردنا منذ أن نصحو من نومنا حتى نخلد إليه مرة أخرى، حتى صار اللهاث خلفه يستهلك كل طاقاتنا الجسدية والعقلية والنفسية والروحية أيضًا.. ولكن هل مِن معين؟

أكبر مشاكلنا في موضوع السعي في الرزق هذا هو أننا نشعر دائمًا أننا نحن من نرزق أنفسنا، أننا المسئولون عن خَلْق الفُرَص وعن اغتنامها وعن التوفيق والنجاح فيها، أننا نسعى ونركض ونجتهد لننتزع قوتنا من أفواه الغير قبل أن يأخذوها هم ويتركونا نحن محرومين، أننا نعيش في هذه الدنيا -أو الغابة- بقوة أذرعنا وأنه علينا أن نصارع ليل نهار لنحصل على ما نريد وإلا متنا جوعًا.. ولكن الأمر ليس بهذه المشقة أبدًا، فنحن علينا السعي والاجتهاد والعمل لا شكَّ، لكننا لسنا نحن من ندبر لأنفسنا أرزاقنا، لسنا نحن من نطعم ونكسو أولادنا، لسنا نحن من يؤمن لذوينا الأمان والسكينة.. لسنا نحن، فنحن لا نعيش هذه الحياة بمفردنا، لنا ربٌّ سمى نفسه ب (الرزاق).. ولكننا لم نتفكر ونتدبر معنى هذا الاسم حقَّ تدبُّره بما يكفي، لنهدأ ونطمن، ونسعى في الحياة بقلب واثق، وعقل هادئ، ونفس مطمئنة.

• ما معنى اسم الله (الرزاق)؟

هو (المتكفل بأرزاق العباد القائم على كل نفسٍ بما يقيمها من قوتها).. فربما المعنى ليس بغامضٍ، وربما يكون ليس بحاجة إلى شرحٍ أو بيانٍ، ولكننا نحتاج حقًّا إلى فَهم المعنى الحقيقي للأرزاق..

فترى ما هو الرزق؟

الرزق كلمة واسعة المعنى جدًّا، بشكلٍ قد يستحيل معه تعريفها بشكل كامل وتام، فكل شيء في حياة كل إنسان منا رزقٌ؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر:

- الأبوان والإخوة والأهل رزق.
- شكل الإنسان ومواصفاته الخارجية رزق.
- طباعُ الإنسان وسماته الشخصية من عيوب ومميزات، رزقٌ.
- الإمكانيات العقلية والقدرات الذهنية زادت أو قلَّت، رزقٌ.
- أيام عمر الإنسان طالت أو قصرت، بل وعدد أنفاسه زادت أو نقصت، رزق.
- الصحة والعافية، أو الأمراض والأسقام، رزقٌ.

- المال، والطعام والشراب، والملبس والمسكن والمركب زادوا أو نقصوا، رزقٌ.
- الزواج من عدمه رزق.
- الذرية من عدمها رزق.
- الزوج - أو الزوجة- الصالح الملائم أو عكس ذلك، رزقٌ.
- الأبناء البارون المريحون أو عكس ذلك، رزقٌ.
- المكانة والطبقة الاجتماعية علَتْ أو انخفضت، رزقٌ.
- حُب الزوج، حب الأبناء، حب الجيران، أو أي حب وتقدير من الناس، رزقٌ.
- الصديق المخلص المعين، رزقٌ.
كما أن هناك نوعًا آخر من الأرزاق لا ينتبه إليه الكثيرون..
- انشراح الصدر وراحة البال وطمأنينة القلب، رزقٌ.
- كل علم يتعلمه الإنسان يقربه لربه، وينفعه في آخرته، رزقٌ.
- كل صاحب يأخذ بيدك لعمل الخير، رزقٌ.
- كل محتاج يطرق بابك لتساعده رزق.
- كل صاحب حاجة يلجأ إليك لتقضي له حاجته، رزقٌ.
- قيام ركعتين في جوف الليل، رزقٌ.
- تدبُّر آية وفهم معناها والرسالة التي تحملها، رزقٌ.
- ورود ذِكر الله على لسانك، رزقٌ.
- ورود خشية الله ومخافته عند التعرض للفتن، رزقٌ.
- محبة الله والتعلق به وتذكره والتفكير فيه، رزقٌ.
• نقطة لطيفة:
كيف يتصرف الناس وكيف يفكرون عندما تغلو الأسعار وتشح السلع؟.. ألا يشكون الحكومة أو الوزراء أوحتى سوء حالة الاقتصاد؟، يلتفت ذهنهم أول ما يلتفت إلى البشر أمثالهم اعتقادًا منهم بأنهم في إمكانهم المساعدة، وفي أيديهم تغيير الأحوال.. أليس كذلك؟
لكن مَن منَّا يفكر في اللجوء إلى الله في مثل هذه المواقف؟، وربما يسأل أحدهم وما علاقة ذلك باللجوء إلى الله؟، ولكن العلاقة ستتضح بشدة بعد فَهم هذا الحديث، الذي وللعجب يصف حالنا تمامًا هذه الأيام، ولكننا وللأسف لا نعرف عنه شيئًا؛ لأنه ليس من الأحاديث المشهورة..
الحديث:
(غلا السعرُ على عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فقالوا يا رسولَ اللهِ لو سعَّرتَ فقال إنَّ اللهَ هو القابضُ الباسطُ الرازقُ المسعِّرُ وإني لأرجو أن ألقى اللهَ عز وجل ولا يطلبني أحدٌ بمظلمةٍ ظلمتُها إياه في دمٍ ولا مالٍ).([8])
ففي هذا الحديث نجد الناس يشتكون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام زيادة أسعار احتياجاتهم الأساسية - كحالنا الآن- ففكروا في اللجوء إلى المسئول عنهم أو ولي أمرهم حينها - كما نفكر نحن أيضًا- وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، وطلبوا منه أن يقوم هو بوضع الأسعار للسلع والبضائع، فماذا كان رده؟.. قال لهم اسألوا الله، فهو القابض الباسط المسعر، أي إن الله هو وحده الذي بيده هذا الأمر، فكيف ذاك؟

لماذا تغلو سلعة معينة؟، لقلة الموارد أولاً، ولكثرة المحتاجين لها ثانيًا، ومَن الذي بيده زيادة الموارد سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية أو صناعية غير الله؟، ومن بيده أن يدبر الرزق لكل إنسان مهما زادَ عددُ الناس غير الله؟.. لهذا كان رد الرسول الكريم في غاية الاختصار والمباشرة: "لا تسألوني ولا تسألوا بشرًا أمثالكم، اسألوا الله الذي بيده الأرزاق، والوحيد القادر على القبض والبسط، والإكثار من أي شيء أو جعله نادرًا شحيحًا".

• كيف أتصرف عندما أعاني حالة من حالات ضيق الرزق؟

وكما ذَكَرنا من قبل؛ فإن ضيق الرزق ليس مقصورًا فقط على نقص المال، فمَن تأخر زواجها، ومن اعتلَّت صحته، ومن اضطربت نفسيته، ومن تعطَّل عمله، ومَن أتعبها عيالها، ومن ضايقته زوجته، ومن افتقد صديقه، ومن نقص إيمانه، ومن فترت همته، ومن شغلته دنيته عن ربه.. كل هؤلاء يدخلون تحت مسمَّى ضيق الرزق، وكلهم لا مخرج لهم سوى اللجوء إلى الله والتوسل إليه باسمه (الرزاق).

وحتى يكون الأمر أكثر وضوحًا؛ فكل من يعاني ضيقًا في الرزق بأي صورة كان، عليه أن يقوم بعملين:

أولاً: عمل الجوارح.. أو العمل البدني، وهو السعي بكل طريقة، والأخذ بكل سببٍ يبدو أنه سيوصل للهدف المرجو، فمثلاً:

لمن يشكو البطالة عليه التعلُّم وزيادة واكتساب المهارات المطلوبة في سوق العمل، والبحث عن مكانٍ يحتاج إلى مؤهلاته، والتقدم لأي فرصة متاحة، بل والاستعانة بمَن قد يستطيع المساعدة وتسهيل الأمور أيضًا..

وطالب النجاح عليه تنظيم وقته، وبَذْل الجهد في التعلم، والتركيز في التحصيل والمذاكرة، وعدم إهمال أي وسيلة نَفع مساعدة أيًّا كانت..

والباحث عن الزواج عليه الاجتهاد في التفكير وتحديد المواصفات التي يحتاجها والتي تُناسبه، ثم البحث بنفسه أو بمساعدة أهله في الأوساط المحيطة، ثم التدقيق والحرص في السؤال عن من يقع عليها الاختيار..

والتي تنتظر الزواج عليها الاهتمام بنفسها قلبًا وقالبًا حتى يكون بها ما تخطب من أجله، وأن يكون لها مجتمعٌ ولو محدودٌ ليعرفها الناس من خلاله، وأن تفكر جيدًا في مواصفات شريك حياتها الذي تريد، وأن تتأكد هي وذووها من صِدق مَن يأتي طالبًا يدها..

أي إن كل شخص عليه فعل كل ما يستطيع فعله باختصار، بحسب ما تيسَّر له وعلى قدر استطاعته ، دون تكلُّف المشقة، ودون المغالاة في الفعل أو البحث، أما حينما لا يوجد شيءٌ يمكن فعله -وهذا يحدث فعلًا في كثير من الأحوال- فلا عمل للجوارح وقتها، وليس صحيحًا أن يكلف الإنسان نفسه فوق طاقتها اعتقادًا منه أنه بهذا سيصل إلى ما يريد، فهناك مقولة جميلة جدًّا تقول:

(ولا ينقص التأني من الأرزاق، ولا يزيد في الرزق العناء)

فلا حرج من التأني والانتظار إذا انعدمت أمامك الأسباب، وانقفلت في وجهك الطرق والأبواب، وليس صحيحًا أن تعتقد أن ما تطلب وما ترجو سيجيئك بالمعاناة والتعب الذي لا تطيق ولا تحتمل.

ثانيًا: عمل القلب.. وهو قطع التعلق بأي شيء غير الله، أي لا تتوكل على كل ما أخذت من أسباب، فلا تركن إلى شخصٍ وعدَكَ بالمساعدة، ولا إلى مهاراتك وقدراتك المتميزة، ولا إلى

دراستك وشهاداتك العلمية، ولا إلى لباقتك ومهاراتك الاجتماعية، ولا إلى خبرتك وكفاءتك، ولا إلى ذكائك، ولا إلى حُسن خلقتك وجمال مظهرك، ولا إلى عائلتك ومكانتك الاجتماعية، ولا إلى أي سببٍ أيًّا كان.

فقد قال أحد العلماء في هذا الصدد إنه عليك أن تأخذ بكل الأسباب ببدنك، لكن عليك أن تيأس من جدواها ومن قدرتها بقلبك، وتؤمن وتوقن دائمًا وأبدًا أنها لن تنفع إلا بإذن الله، وفقط إذا أراد، وأنها لا قيمة لها حتى لو اجتمعت جميعها لصالحك إذا لم يشأ الله.

فقد يشعر أحدهم بالثقة في كفاءته المهنية، وخبرته العملية، وإنجازاته وتاريخه في العمل، ويشعر بأنه في مأمن من فقدان عمله لأنه ليس له بديل، ولأنه متميز حقًّا في مجاله، فإذا به يفيق على صدمة أنه تم الاستغناء عنه في العمل!!

أو يحس الآخر بالراحة والطمأنينة، وأنه يضمن مستقبله ومستقبل أولاده، لأنه لديه الأموال والعقارات والشركات، ولأنه لا يوجد شيءٌ لا يمكنه اقتناءه أو شراءه، وإذا به عاجزا عن الاستمتاع والانتفاع بأيٍّ مما يملكه هذا كله بسبب مرض مزمن أو علة مقعدة!!

أو تركن أخرى إلى جمالها، وحسبها ونسبها، وثراء أهلها، وربما إلى مستواها العلمي أيضًا، فتعتقد أنها ستتزوج بمن تريد ووقتما تريد، فإذا بها يتأخر زواجها كثيرًا، وربما تسبقها قريناتها الأقل منها في كل شيء!!

أو قد يتكل أحدهم على وسامته، وشبابه، وامتلاكه لقلب زوجته، فيظن أنه يملك مفاتيحها، وأنه سيعيش معها أجمل وأسعد وأيسر حياة، فإذا بهما ينفصلان سريعًا أو يعيشان حياة مليئة بالمشاكل والمنغصات!!

لماذا كل هذا؟.. لأنهم تعلقوا بالأسباب، وركنوا إلى ما يملكون وإلى ما يستطيعون فعله، أو بمعنى آخر اعتمدوا على توفُّر الأسباب فقط، وغفلوا تمامًا عن أنه قد يتوفر السبب ولا يتوفر التوفيق، فالله وحده هو الذي يملك النفع من عدمه.

ففي أحيانٍ كثيرة يغتر الإنسان بما أعطاه الله ويتصور أنه يملك القدرة، ولا ينتبه إلى أن الله قد عامله (بمنِّه) بأن ملكه الشيء قبل أن يطلبه وبدون حتى أن يسأله، ولا يفكر في أنه يعامله عز وجل (بحلمه) بالرغم من أنه -أي الإنسان- ينسب إلى نفسه ما هو فيه من نِعَمٍ وعطايا ومِنَح، حتى يأتي الوقت الذي تسلب فيه النعمة أو يضيق فيه الرزق، فيتوقف الإنسان ليتساءل في ذهول: ألم أكون قادرًا مستطيعًا مالكًا من قبل؟، ما الذي حدثَ؟.. ما حدثَ هو أن الله أعطاكَ وحلم عليك حتى اغتررت أيها الإنسان، واعتقدت أن صحتك وقوتك وطاقتك ومالك وأهلك وعيالك منك، ليس منه هو وحده الرزاق.

و هذا ما يتضح في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : ((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها))..

ما السبب في أن هذا عمل يسبب رضا الله؟، ما هي العلة؟، لأن العبد نسب لله النعمة، واعترف إنما هو محض رزق من عند الله عز وجل ليس إلا.

لهذا فنحن علينا تعديل فكرنا، وإعادة توجيهه من جديدٍ نحو الاتجاه الصحيح.. نحو الله، في كل احتياجاتنا ومطالبنا، صغيرها وكبيرها، حتى وإن توفرت لدينا الأسباب.. فمَنْ منَّا مثلاً يسأل الله أن يطعمه إذا جاع؟، كلنا يتوجه تفكيرنا نحو (الثلاجة) الممتلئة بأصناف الطعام، مَن منَّا يطلب مِن الله أن يكسوه إذا شعر بالبرد؟، جميعنا يفكر في أي قطعة سيختار من دولابه وانتهى الأمر، لأننا

نشعر أننا نمتلك الأسباب، فلا حاجة لنا لمسبب الأسباب.. لكن هل يا ترى سيكون هذا هو نفسُ تفكيرنا إذا شعر أحدنا بالجوع أو العطش وهو في سفر طويل مثلاً وقد نفدَ منه الطعام والشراب ولا يوجد مكان يمكنه الشراء منه في الطريق؟.. هل سيكون هذا هو نفس تفكيرنا إذا شعرنا بالبرد أو إذا انقطع ثوبنا ونحن في الشارع مثلاً وليس معنا ما يكفي لشراء ما نرتديه؟..

ففي الحديث الشريف:

عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّهُ قال: "يا عبادي إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم محرَّمًا . فلا تظَّالموا. يا عبادي !كلكم ضالٌّ إلا من هديتُه. فاستهدوني أَهْدِكم. يا عبادي !كلكم جائعٌ إلا من أطعمتُه. فاستطعموني أُطعمكم. يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوتُه. فاستكسوني أكْسُكُم. يا عبادي! إنكم تُخطئون بالليلِ والنهارِ، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعًا. فاستغفروني أغفرُ لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني . ولن تبلغوا نفعي فتنفَعوني . يا عبادي ! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنْسَكم وجِنَّكم . كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم . ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخركم. وإنْسَكم وجِنَّكم. كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ. ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم. وإنسَكم وجِنَّكم. قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني. فأعطيتُ كل إنسان مسألتَه. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم. ثم أوفِّيكم إياها. فمن وجدَ خيرًا فليحمدِ اللهَ. ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسَه". وفي روايةٍ: "إني حرَّمتُ على نفسي الظلْمَ وعلى عبادي. فلا تظَّالموا".

فلنلتفت إلى قوله تعالى (كلكم جائع إلا من أطعمته) و(كلكم عارٍ إلا من كسوته).. ألم يُنسِنا وجود الطعام وتوفر الملابس في بيوتنا طوال الوقت هذه الحقيقة؟، مع أن من رزقنا هذا الطعام وهذا الكساء، ومن كان سببًا في وفرته لدينا من الأساس هو الله، وفقط لأنه أراد وليس لأننا مميزون عن غيرنا أو مفضلون عنهم، فقد يعتقد البعض أنه يأكل أفخر الأصناف ويرتدي أغلى الماركات؛ لأنه ماهرٌ ومُحترَفٌ في عمله، وبالتالي فهو يكسب الكثير من المال الذي يمكنه من شراء ما يريد.. ولم يتذكَّر أن من رزقه هذا العمل، ووفقه فيه، ووسع عليه منه هو الله أولاً وأخيرًا.

- ولكن أليس للإنسان قدرة وإرادة؟

هذا السؤال كنت أسأله لنفسي كثيرًا، وطالما احترت في إجابته.. هل الإنسان مسئولٌ فعلاً عن كل ما يحدث في حياته، وعن كل ما يصير إليه مستقبله، كما يقال؟، هل يستطيع فعلاً الوصول وحده إلى كل ما أريد، ومنع كل ما لا يريد؟، هل يستطيع التحكم في الظروف فعلاً؟، وفرض إرادته ومشيئته عليها وخلق الحياة التي يريدها لنفسه؟

إذًا فالفقير فقير لأنه مسئول عن ذلك، ومن تأخَّر زواجها هي نفسها السبب في ذلك، والمريض هو من أمرض نفسه، والمصاب هو من ابتلى نفسه، وهكذا؟

اشتدَّ رواج هذا المفهوم مؤخرًا بعد أن أصبح مبدأ من مبادئ (تنمية الذات).. أنت من تريد، أنت حيث تريد، أنت كيفما تريد.. أنت مالك لزمام الأمور، وقادر على فعل كل شيء.. فقط إذا أردت، وبمجرد أن تأخذ القرار.. وبعد أن صدقت هذه الفكرة واعتنقتها لفترة ليست بقصيرة، اكتشفت أنها لا تعمل دائمًا؛ لأنها وبكل أسفٍ ليست صحيحة بشكل مُطلَق؛ فهي صحيحة إذا كانت تقصد أن كل إنسان عليه أن يتحمل المسئولية، وأن يأخذ بكل الأسباب، أن يفكر ويخطط ويحدد هدفه، أن يكد ويسعى ويعمل، أن يبذل كل ما يستطيع للوصول إلى ما يريد دون أي تكاسُل أو تخاذل، لكن كون

أن يصل إلى حيث يريد أو لا.. هذا ليس بإرادته، كون أن يتحقق هدفه أو لا.. هذا ليس بمشيئته، كون أن ينجح فيما خطط له أو لا.. هذا ليس عمله، ولا يحدث بـ (شطارته) وكفاءته وحُسن تدبيره.. من أين أتيت بهذا الكلام؟.. من كتاب الله:

قال تعالى في الآية 188 من سورة الأعراف: {قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}، من قائل هذا الكلام؟، إنه نبي مؤيد، ورسولٌ مُرسَل، هل تعتقد أنه كان يفتقد إلى الحكمة أو إلى الاجتهاد أو الكفاءة أو أي من هذه المؤهلات؟.. لا يمكن، ولكنه ومع ذلك يؤكد أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا -لا بشطارته ولا باستحقاقه- إلا أن يدبر له الله ويشاء.

وفي الآية 28 من سورة النساء، يقول تعالى : (يُريدُ اللهُ أنْ يخفِّفَ عَنْكُم وخلقَ الإنسانَ ضَعيفًا).. هل هناك إقرار أوضح من ذلك بأننا ضعفاء ولا نستطيع أن نكون ما نريد أو نحصل على ما نريد لمجرد أننا أردنا وسعينا، حتى إننا نحن أنفسنا نقول ذلك مئات المرات عندما نردد: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، أي إننا نتبرأ من حولنا وقوتنا ونصف أنفسنا بالضعف وبالعجز وبعدم القدرة إلا أن يعطينا الله، وأننا نذكر أنفسنا دائمًا بأنه لا (حائل) أو مانع للشر غير الله، ولا قوة أو قدرة على جلب النفع والخير إلا بالله، لكننا لا نشعر بما نقول عادة لأننا لا نفقه ولا نفهم ما نقول بكل أسف.

أيضًا في دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث أصلِح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا لأحد من خلقك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وخطيئة، وأنا لا أثق إلا برحمتك).. فها هو الرسول الكريم يطلب من الله ألا يتركه لنفسه ليتدبر شأنها ولو لطرفة عين، ويقر لنفسه ولنا جميعًا من بعده أنه من اتكل واعتمد على نفسه من دون الله لن يجد سوى الضعف والخذلان والخطأ، فليس لنا أن نثق في أنفسنا أو فيما نملك أبدًا من دون الله، وإلا ما كان الرسول أكد في آخر دعائه (وأنا لا أثق إلا في رحمتك).

والثقة بالله والاعتماد عليه ليست دعوة إلى أن يكون الإنسان متواكلاً متخاذلاً، لأنه مأمور بالسعي وبالأخذ بالأسباب، لكنها دعوة إلى العمل مع ترك النتائج لله، فإن نجحت المساعي فذلك بتوفيق الله وإرادته، وإن لم تنجح فهذا لأنه لا يريدها لنا بحكمته، ربما أرادها في وقتٍ آخر، أوبشكلٍ آخر، أو ربما أراد ما هو خير منها.

ولننظر إلى هذا المثال في سورة الحج الآية 73 {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.. ففي هذه الآية يوضح الله عجز وضعف الإنسان الذي قد يتجبر ويعتقد أنه قادر على الاستغناء عن الله، في التحدي في قوله (وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ) أي إنه ما من أحد يستطيع أن يسترد ما تأخذه الذبابة من طعامه عندما تقف عليه!!.. أهناك أكبر من هذا دليل على أنه لا حول ولا قوة لك أيها الإنسان؟؟

وبشكل عام فالإنسان كغيره من المخلوقات.. أضعف ما يكون مهمَا بدا لهم من قدرة وقوة كما وضحت الآية 60 من سورة العنكبوت في قوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، أي إنها حتى وإذا وجدت رزقها أمامها فلا تستطيع أن تحمله بذاتها، فمَنْ ذا الذي يسوق الرزق إليها سوى اللـــه؟

• ما هي آثار اليقين باسم الله الرزاق؟

1) الاطمئنان النفسي والسلام الداخلي الذي نبحث عنه جميعًا، حتى وفي أشد حالات الضيق والحاجة، فأكثر ما يتعب الإنسان اعتقاده أنه هو من يدبّر حاله ويرزق نفسه، لكنه عندما يستقر في قلبه أنه عليه السعي لا الرزق سيطمئن ويهدأ بعد أن يفعل ما بوسعه، لأنه سيترك الباقي على الله الذي قدَّر لكل مخلوق رزقه من قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، عندما أمرَ القلم بأن يكتب كل الأقدار.. ففي سورة هود الآية 6: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا}، ما دلالة (وما من دابة)؟.. تدل على أن كل شيءٍ وأيَّ شيءٍ وجميع المخلوقات؛ إنسهم.. جنهم.. عالم البحار.. عالم النبات.. عالم الحيوان.. عالم الحشرات.. وكل ما يدب على الأرض على الله رزقه، وأنه آتيه لا محالة، ولا أحد يملك تغيير ذلك أو منعه.

فيا من لا تجد عملاً، ويا من لا يكفيه دخله، ويا من تأخَّر زواجها، ويا من احتار الأطباء في مرضه.. اعمل ما عليك وخُذ بالأسباب التي في يديك وفي استطاعتك، ثم اهدأ واطمئن، فالباقي ليس عليك، لك رب رزاق هو من سيتولاك كيفما يشاء وفي الوقت الذي يراه مناسبًا لك، واعلم أن رزقك يركض وراءك، ويبحث عنك، تمامًا كما يفعل أجلك.

2) الكرامة والعزة والاستغناء عن الناس: فأكم من أشخاص ذَلوا أنفسهم، وتنازلوا عن كرامتهم وعزة نفسهم اعتقادًا منهم أن رزقهم بيد الآخرين، وأكم من أناس نافقوا وتملقوا غيرهم ظنًّا في أنهم يملكون زمام أمورهم وقضاء حوائجهم، وأكم من بشرٍ خافوا مِن غيرهم وحسبوا لهم حسابًا تصورا لأنهم يستطيعون قطع أرزاقهم أو مَنع الخير عنهم.. هوِّن على نفسك يا أخي، وارفع رأسك، ولا تذل ولا تخاف، ولا تحسب حسابًا إلا لخالقك، فحقًّا ويقينًا وصدقًا لا قولاً فقط (الأرزاق على الله).

وللرسول الكريم حديثٌ رائع بهذا الصدد، وهو "مَن تعلَّق بشيء وكل إليه" فسبب الضيق والحالة النفسية السيئة التي يكون الإنسان عليها إذا تعلَّق بأحد من الخلق أنه يتوكل عليهم، وهم بهم ما بهم من صفات النقص والشح والبخل والكبر.

3) انحسار وقلة المشاكل والخلافات الزوجية: وأنا أعني هنا المشاكل الزوجية بالذات لأن الإيمان والتصديق بأن سعة الرزق أو ضيقه من الله، وأنه هو من يقبض ويبسط سيمنع كثير من المشاكل أمثال:

- شكوى الزوجة من قلة دخل زوجها، وشجارها المستمر معه لهذا السبب.. {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (سورة الزمر الآية 52).

- مقارنة أحد الزوجين أو كليهما لحاله بحال الآخرين سواء في المال الوفير، أو الشريك المريح، أو الذرية الجيدة أو.. أو.. أو فهذه كلها أرزاق، ولن يستطيع أحد أن ياخذ رزقَ غيره، كما أن الله أعلم بأن رزق كل إنسان هو الأنسب والأصلح له حتى وإن لم يعِ هو نفسه ذلك.

- خلاف الزوجة مع زوجها إذا كان ينفق من دخله على أهله، خاصة إذا لم يكونوا يحتاجون لهذا.. فهي قد تعتقد لضعف معرفتها بالرزاق أن هذا ينقص من نصيبها هي وأولادها، ولا تفهم أن رزقهم المقسوم مِن دخل الزوج لن يزيد أو ينقص سواء أنفق الزوج على أهله أم لا؛ لأنه مقدر ومكتوب من قبل أن يُخلَقوا جميعًا، وأنها لن تأخذ أكثر من رزقها ونصيبها مهما حاولَتْ أو فعلَتْ.

كذلك ستعي أن (البرَكة في الرزق) هي أيضًا رزق، وأنه ربما يبارك لها في رزقها القليل هذا ليعود عليها بنفعٍ كثيرٍ، أكثر بكثير من النفع الذي كان سيعود عليها لو لم ينفق زوجها على أهله،

وخصها هي وأولادها وحدهم بكل دخله، فالعِبرة ليست بكثرة الأعداد أو الكميات، وإنما العبرة (بالنفع والنماء) اللذين يأتيان من البركة.

4) السعادة في جميع الأوقات والأحوال: فعندما يكون لدى الإنسان قناعة دائمة بأن كل ما هو عليه الآن هو رزقه الذي أراده الله له سيرضى بحاله، ولن يضيع عمره وصحته في الندم والحسرة على ما ينقصه أو ما فاته؛ لهذا قالوا إن (القناعة كنز لا يفنى).. لماذا هي كنز؟ لأن القنوع راضٍ عن ربه، مستمتع بحاله وبرزقه أيًّا كان وعلى جميع الأحوال.

• بقي سؤال واحد: ترى لماذا يقبض الله الرزق ويضيقه في بعض الأحيان؟

لا أحدَ يملك إجابةً قاطعةً لهذا السؤال، ولكن كل ما نملكه هو الثقة بأنه يفعل ذلك سبحانه وتعالى لحكمة وليس عبثًا أو بخلاً أو شحًّا معاذ الله؛ فالله (سلام) من أي نقص وعيب، و(سلام) من أن يبخل على عباده أو أن يمنعهم ما فيه صالحهم، لكنه ربما..

- يريدك أن تناجيه وتناديه وتتقرب أكثر إليه، يريد أن يسمع صوتك وأنت تدعوه وتتودد إليه.

- يريدك أن تعرفه، وتعرف أن الأرزاق بحكمة، وأنك يجب أن تثق في هذه الحكمة وترضى بها.

- يريدك أن تفيق من غفلة، أو أن تترك معصية، أو أن تتوقف عن ذنبٍ ما، فكثيرٌ منَّا لا ينتبه إلا إذا ابتلي، ولا يفهم إلا إذا تألم.

- أو أنه ابتلاك ليختبر صبرك، ورضاك عنه في السراء والضراء، ويختبر حسن ظنك به، وهل أنت على يقين بأن ما قسمه لك خير لك أم لا؟

فأيًّا كانت الأسباب، وسواء عرفناها أم لم نعرفها ليس لنا إلا أن نكون على يقين بأنها هي الخير لنا، وفيها نفعنا وصلاحنا.. هذا هو ظننا بالله الرزاق الحكيم.

علاج قلة الحيلة والإحساس بالعجز

الأول والآخر

كثيرة هي أحلامنا وطموحاتنا وأمانينا، ومِنَّا مَن يوفق إلى ما يتمناه، ومِنَّا مَن لا ينوله، ولكل مِن هذين الفريقين آفة..

فالفريق الأول الذي يتمكن من تحقيق أحلامه، آفته أن يظن أنه وصل إلى ذلك بجهده، وتعبه واجتهاده، ولأنه اخذ بالأسباب فنال المراد.. ناسيًا أن لا شيء من كل هذا كان سينفع لولا إرادة الله لأن ينفع، وأنه كان من الممكن أن يفعل كل هذا ولا يصل إلى شيء في النهاية، فالنتيجة والفلاح والتوفيق بيد الله أولاً وأخيرًا، بصرف النظر عن توفر الأسباب من عدمه؛ لهذا فإن هذا الفريق من البشر في حاجة إلى التذكر المستمر لذلك وإلا كان نجاحهم ووصولهم إلى ما يطمحون فتنة لهم، لا نفعًا بهم.

أما الفريق الثاني الذي لم يتمكن من الوصول إلى ما يريد، فآفته أن يظن أنه لم يستطع ذلك لأنه لم تتوفر الأسباب، أو لأن غيره أفضل منه في القدرة على السعي والتحصيل والكسب، فيظل يبحث عن الأسباب، ويطلبها، ويلهث وراءها، ثم يحبط ويعجز ويشعر بقلة الحيلة والهوان عندما لا يجدها، أو يصعب عليه إدراكها.

وكلا الفريقين في حاجة ماسة إلى معرفة معنى اسمي الله (الأول) و(الآخر) حتى يتمكنا من فهم الأمر بشكل صحيح، وحتى يحميا أنفسهما من آفات النفس.

أولا: اسم الله (الأول):

• ما معنى اسم الله (الأول):

الأول هو الذي ليس قبله شيء، وعليه فهو (الذي كل شيء آتٍ منه)، وهذا يعني أنه وحده سبحانه وتعالى الذي: - يسبب الأسباب.

- يسخر ويهيئ الظروف.

- يوفق في استخدامها، وينفع بها.

فكون أنه سبحانه وتعالى كان ولم يكن شيئًا قبله، إذًا فكل ما في هذه الحياة جاء منه وحده؛ لهذا فهو الذي يسبب أسباب وجود كل شيء، ويهيئ ظروف حدوث كل شيء، ويملك وحده النفع أو عدمه بهذه الظروف والأسباب.

• بماذا أستفيد من اسم الله (الأول):

1) عندما تُغلَق في وجهي كل الأبواب، وتسد أمامي كل السبل إلى ما أريد، وعندما لا يكون باليد حيلة، ولا أعرف طريقًا للوصول إلى المراد.. لن أيأس، لن أحبط، لن أظن أني ضعت لا محالة، لأني قد أكون لا أملك الأسباب لحدوث ما أتمناه، أو لا أعرفها، ولكني أعرف (مسببها)، والذي بيده كل شيء، والذي كل شيء هو آتٍ منه في الأصل، وأعرف أن ربي هو (الأول)، فسأدعوه وأتوسل إليه بهذا الاسم ليرزقني السبب، ويهيئ لي الظروف، ويدبر لي الأمر، حتى أصل إلى ما أريد، فلا تجعل افتقارك إلى السبب أو الوسيلة يجعلانك تفقد الأمل، وتسيء الظن بالله؛ لأنه قادر على تبديل الأحوال في لحظة، ولأنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

فالأول هو (خالق الأسباب والقوانين)، فهو القادر على منحها أو حتى المنح بدونها؛ لهذا لا يمكن أن تجد المؤمن الحق يائسًا من روح الله، كما كان سيدنا يعقوب عليه السلام حينما فقدَ ابنه يوسف لسنوات (يقال 30 أو 40 سنة)، ولم يكن لديه أي دليل يدله عليه، ولا وسيلة للوصول إليه، ولكنه وبالرغم من ذلك قال لأولاده {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (سورة يوسف الآية 87)، فكان يطلب منهم الذهاب والبحث عن يوسف وأخيه موقنًا في أنه سيجدهم، حتى وبعد كل سنوات الغياب تلك، وحتى ومع انقطاع كل الأسباب به.

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى قال: (وعزتي وجلالي لأرزقن مَن لا حيلة له حتى يتعجب أصحاب الحيل).. فها هو الله يقسم بأنه سيرزق من لا سبب عنده، ومن لا حيلة في يده، حتى يتعجب مَن بيدهم الحيل والسُّبُل والأسباب كيف حدثَ ذلك، حتى يذكِّر الله عباده باستمرار أن نَيل المراد ليس بحولهم وقوتهم، ولا بالأسباب التي يملكونها، وإنما فقط لأنه أراد حدوث ذلك.

وجاء في الآية الكريمة {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}(سورة يس الآية 28)، فحدوث الأشياء وكونها يتوقف فقط على (الإرادة الإلهية) لا على توفُّر الأسباب أو الظروف؛ لذلك قيل في الآية (أراد) وكفى، فمجرد الإرادة وحده هو ما يجعل الأشياء تحدث وتتحقق.

فلا تعتقد أنك لن تعمل لأنه ليس لديك (الواسطة)، أو أنك لن تتزوجي لأنك لست جميلة، أو أنك ستشيب وحيدًا لأنه ليس لديك أبناء، أو أنك ستحتاجين في الكبر لأنه ليس لديكي مصدر دخل.. تحقيق الأشياء وحدوثها منه وحدَه، لا من الأسباب.

2) وأيضًا عندما أبدأ في فعل شيء أو السعي لشيء لن أفزع أولاً إلى الأسباب، أي لن أبدأ سعيي بالبحث عن الأسباب، وإنما سأفزع أولاً إلى الاستعانة برب الأسباب، وسأطلب منه العون والتوفيق قبل أي شيء، وقبل أن أضع أي خطة، وأبحث عن أي خطوة.

3) وبالعكس؛ فعندما أمتلك الأسباب، وعندما تكون كل الظروف مهيأة لحدوث ما أريد، لن أطمئن إلى الأسباب، وأركن إلى قدراتي وإلى إمكانياتي، وحولي وقوتي، ولندقق النظر والفهم في الآية الكريمة {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا} (سورة طه الآية 114)، مَن الذي يزيد العلم؟.. الله وحده، لهذا دعاه الرسول الكريم، وطلب منه واعتمد عليه، ولم يركن إلى جده واجتهاده وصدقه وإخلاصه.. كذلك يجب أن أفعل، حتى وإن كنت أبذل الجهد وأمتلك القدرة على التعلُّم والفهم، وتتوفر لي جميع الوسائل المساعدة، لأني أعرف في قرارة نفسي أن التوفيق والنفع بكل هذا ليس إلا من الله وحده، وأنه قد تتوفر كل الأسباب ولا يحصل المراد بالرغم من ذلك، فكم من ثريٍّ غير سعيد، وكم من جميلة غير موفقة في زواجها، أو لم تتزوج من الأصل، وكم من صاحب نفوذ لا يستطيع نفع ابنه.. لماذا؟؛ لأنهم اطمأنوا إلى وجود الأسباب، ولم يفكروا في الله، ولم يطلبوا منه تدبير أمورهم، والتوفيق والسداد منه.

لذا عليك أن تشعر بالأمان من مخاوف المستقبل لأنك تعرف ربك، ليس لأن لك مدخرات في البنك، وأن تسعدي في حياتك الزوجية لأنك تستمدين العون من ربك، لا لأنك جميلة وذات حسب ونسب، وأن توقن بالشفاء من المرض لأنك تعتمد على رحمة ربك، لا لأنك تذهب لأحسن طبيب وتشتري أغلى وأحدث العلاجات.

4) لن أتعلق بغيره سبحانه وتعالى، لا أهل ولا قريب ولا معرفة ذو نفوذ أو سُلطة؛ فقد أستعين بهم أخذًا بالأسباب؛ لأن الإنسان مأمورٌ بالسعي، ولأن الكون مبنيٌّ على التسبب، لكني لن أترك قلبي يتعلق بأحدهم قط، فأظن أن قضاء حاجتي في يده، أو أنه الوحيد القادر على تحقيق مرادي، وأنه إن تركني أو تخلى عني سأضل وأضيع.. لن يكون قلبي راجيًا سوى (الأول) وحده الذي يستطيع تسخير الأسباب والظروف والبشر لمن يريد وقتما يريد.

لذا جاء في الآية الكريمة: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (سورة التوبة الآية 24).. قيل عن هذه الآية إنها تضم المحبوبات الثمانية لأي إنسان، وفيها يخبر الله المؤمنون بأنه إذا كانت هذه المحبوبات أَحَبّ إليهم من ربهم ورسولهم ودينهم فلينتظروا العقاب من الله، والآية هنا لا تمنع من أن يحب المرء هذه الأشياء، ولكنها تستنكر (التعلق) بها من دون الله، فلا يجب أن يعتقد أحدنا أن سعادته سببها أهله أو ماله أو ممتلكاته، وأنه بدونها سيشقى، بل عليه دائمًا استحضار معنى أن الله وحده هو من بيده الإسعاد والإشقاء، {وأَنَّهُ هُوَ أَضحَكَ وأَبْكَى} (سورة النجم الآية 43)، توفرت الأسباب والإمكانيات أو لم تتوفر.

5) وفي معنى مقارِب لما سبق أيضًا، لن أذل أو أفتقر لغير الله، فمن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر).. قد يظن أغلبنا أن الدين المقصود هنا هو الدين المادي أو المالي، لكن الدين هنا أشمل بكثير، فالمقصود به هو (كل الحقوق الواجبة على الإنسان)، ففروضه وعباداته لربه دَين في رقبته تجاه ربه، وأداء عمله على أكمل وجهٍ دينٌ في رقبته تجاه صاحب العمل، وبِرُّ أهله وصلة رحمه دين في رقبته تجاه أهله، وحسن معاملة ومعاشرة زوجه دَينٌ في رقبته تجاه زوجه، وتربية أبنائه وتعليمهم دينهم دين في رقبته تجاه أولاده وو و.. إلى آخره من الواجبات التي على كُلٍّ مِنَّا، والحقوق التي للآخرين عليه، كل هذه ديون يجب أن يستوفيها الفرد قبل أن يلقى ربه، حتى لا يعود إليه وهو مدان لأحدهم فيقتص منه يوم القيامة.

ولأهمية هذا الأمر، ولكثرة هذه الحقوق، ولصعوبة استيفائها بشكلٍ كامل كان يدعو الرسول الكريم ربه بهذا الدعاء، طلبًا منه أن يعينه على (أداء كل الحقوق) وأن يقضي عنه النقص والتقصير فيها.

كذلك قد يعتقد الكثير أنه بقوله (وأغنِنا من الفقر) فهو يقصد الفقر المادي أيضًا، أي قلة الأموال، ولكن الفقر المقصود هنا هو الفقر إلى غير الله، أي الذل للعباد، والاحتياج لهم، والطلب منهم، فدعا الرسول ربه أن يغنيه من الفقر لغيره، وأن يجعل حاجته له وحده، وذله وعوزه بين يديه وحده.

ولنا أن نلاحظ علاقة أسماء الله الحسنى التي وردت في أول الدعاء (الأول، الآخر، الظاهر، الباطن) بمعنى الدعاء نفسه، لماذا ذكَر الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الأسماء بالذات هنا في هذا الموضع؟..

ذلك لأنه يعرف أنه سبحانه وتعالى (الأول) الذي بيده توفير الأسباب، وتهيئة الظروف، وتيسير الأمور، والتوفيق والسداد لأي إنسانٍ حتى يستطيع الوفاء بكل ما عليه من ديونٍ تجاه الآخرين؛

لهذا فهو لا يريد أن يفتقر أو يُذَلّ لسواه، ويطلب من ربه ألا يجعل حاجته في يد غيره من البشر، وألا يجعل قلبه معلقًا بأي منهم.

ثانيا: اسم الله (الآخر):

• ما معنى اسم الله (الآخر)؟

الآخر هو :

1- الذي كل شيء راجع إليه (وإليه يرجع الأمر كله) 123 هود، وهو المعنى المقابل لاسم الله (الأول) الذي هو كل شيءٍ آتٍ منه.

2 - الذي بيده عواقب الأمور.

• وماذا يعني هذا؟

1) إنه هو الذي ينفع بالأسباب: هو من بيده (النفع) و(التوفيق) بالأسباب، فمهما اجتمعت الأسباب، وتهيأت الظروف، وتوفرت الوسائل لحدوث أي شيء، لا يمكن له أن يحدث سوى بإرادة (الآخر)، وكثيرة هي القصص والمواقف التي يتوفر لها كل شروط التحقق والنجاح، ولا تكتمل لعدم توفر أهم عامل وهو التوفيق من الله الآخر.

2) أنه هو من يعطل عملَ الأسباب: فقد يُبطِل عمل الأشياء كما حدثَ في:

- عُطل النار عن إحراق سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام.

- عُطل معدة الحوت عن هضم سيدنا يونس عليه السلام.

- عُطل البحر عن إغراق سيدنا موسى عليه السلام.

بل والأكثر من ذلك أنه قد (يعكس الأسباب) أيضًا، فيكون مال الرجل مثلاً هو سبب مرضه وشقائه، أو جمال المرأة هو سبب تعاستها وفشلها في الحياة، أو جاه وسلطة أحدهم سبب اكتئابه وحزنه، وهكذا.

وفي الآية الكريمة {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} (سورة الأنعام الآية 65)، قال الله عن نفسه إنه فالقُ الحُبِّ والنوى ليلفت نظر الناس إلى أنه هو وحده مَن يملك أن يجعل الحب والنوى الذي يُوضَع في التربة أن ينفلق، فينمو وينبت، وهو أيضًا القادر على تعطيل حدوث ذلك حتى مع توفر التربة والمناخ والمياه وكل لوازم الإنبات، لهذا قال تعالى في الآية (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} (سورة الواقعة الآية 64)، فجاءت بصيغة الاستفهام حتى ينتبه المستمع ويفكر ويبحث عن الإجابة الصحيحة، وهي أن الله وحده هو الذي ينفع بالأسباب فينبت زرع أحدهم، ويعطل الأسباب فلا ينمو زرع الآخر.

3) إنه هو من يعطي النتائج بلا أسباب: فقد ييأس الإنسان من حدوث الشيء، لعدم توفُّر أي سببٍ من أسباب حدوثه، لكنه حتى ومع هذا فلا شيء يعجز خالق الأسباب؛ لذا فهو قادر على أن يخلق النتيجة دون السبب، فمثلاً:

- حينما تعجبت زوجة سيدنا إبراهيم من أنها ستنجب {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} (سورة هود الآية 72)، فهي كانت تفكر في أن الأسباب الطبيعية والمنطقية للإنجاب قد انقطعت بالنسبة لزوجين في مثل عمرها هي وزوجها، ولكن الله (الآخر) يعطي حتى وبلا أسباب.

- وحينما تعجبت السيدة مريم أيضًا من أنها سترزق الولد: (قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر)؟، ردَّ عليها سبحانه وتعالى في نفس الآية قائلاً: {كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (سورة آل عمران الآية 47).

- وهذا ليس مقصورًا على الأنبياء فقط، فنحن نرى بأعيننا كل يوم مثالاً على ذلك، مِن مريضٍ يشفى بعد أن عجز الأطباء في علاجه، وضال يعود لأهله بعد أن تقطعت به السبل، وفقير يرزق قوته وكسوته من حيث لا يحتسب، وناجٍ ينجو من حادث حتى ومع جزم الجميع بأنه هالك لا محالة.

• لفتة هامة:

قد يتساءل بعضُنا؛ إذا كان الأمر كله بتوفيق من الله، فكيف إذا يوفق المؤمن الغافل البعيد عن ربه، أو حتى غير المؤمن، بدون طلب العون من الله؟

عندما يمنح الله الأسباب لعبده يكون في ذلك اختبارٌ له، هل سيركن إلى ما بيده من أسباب، ويستغني بها عن الله؟، أم سيدرك أنها أولاً وأخيرًا لن تنفع إلا بإرادة وعون مُسبِّب الأسباب؟

وقد يرسب المرء في الاختبار، ويكتفي فعلاً بأنه يملك الأسباب، ويظن أنه لا يحتاج ربه في شيء، ، وأنه وحده قادرٌ على الوصول إلى ما يريد بإمكاناته وحوله وقوته، فيمهله الله، ويعامله بحلمه عليه، فلا يؤاخذه، أو يعاقبه، ولا يحبط عمله، عله يفيق ويدرك أنَّ كُلَّ ما هو فيه من نعمة وتيسير إنما هو أساسًا من الله.

و قد لا يحدث، ويستمر المرء في استغنائه، وإعراضه، فيزيد الله في توفيقه وإنجاح عمله استدراجًا له، حتى يتوهم في نفسه أكثر وأكثر، وحتى يظن أنه وحده قادر على فعل ما يريد وقتما يريد، فيأخذه الله بغتةً، أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

فليس دائمًا التوفيق والنجاح في الدنيا علامة من علامات صلاح العباد، بل على العكس، قد يكون حجة على الإنسان، ودليلاً على إدانته.

أما وبعد ما عرفناه عن ربنا (الأول) و(الآخر).. هل لا زال هناك مجالٌ لليأس والقنوط؟، هل لا زال العجز يمكنه أن يتملكنا؟، هل لا زالت قلة الحيلة تستطيع أن تسيطر على مشاعرنا؟

علاج اليأس من دخول الجنة بسبب كثرة الذنوب..

(العفو، الغفور، البر، الشكور)

قد تأتي على الإنسان مِنَّا لحظاتٌ يشعر فيها كم هو بعيد عن الله، وكم هو مُقصِّر في حقه، ومَن منَّا لا يفعل؟، لكن المشكلة كل المشكلة من أن يلعب الشيطان معنا لعبته حينها، ويقذف في قلوبنا اليأسَ من رحمة الله، والقنوط من قبوله لنا بسبب كثرة ذنوبنا وشدة معاصينا، حتى يبعدنا أكثر وأكثر، ويدفعنا دفعًا لمزيد من العصيان والذنب، فعندما يشعر المرء أنه هالكٌ لا محالة، لن يمتنع عن فِعل أيِّ مُنكَر، ولن يفكر في فعل أي معروف، فما الجدوى إذا كان يعتقد أن الجحيم هي المأوى؟

لكنَّ الأمر سيختلف تمامًا عندما نعرف أنَّ لنا ربًّا سمَّى نفسه (العفو) و(الغفور) لأنه يمحو ذنوب عباده وكأنها لم تكن، بل وقد يبدلها لهم حسنات.. وسمى نفسه (الشكور) (البر) لأنه يجازي عباده بالكثير على القليل من العمل..

أولاً: اسم الله (الغفور):

• ما هي (المغفرة)؟

- الغفران في اللغة هو (الستر) أو (التغطية)، يقال فلان غفر شيبه بالخضاب، أي غطى بياض شعره بالحناء.

- والمغفرة أيضًا جاءت من نبات معروف قديمًا عند العرب يسمى (الغفر) بفتح الغين، وقد كان يستخدم لمداواة الجروح، وهذا لأن الذنوب تجرح وتشوه نفوس البشر وقلوبهم، كما في الآية الكريمة (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء..) 21 الجاثية، ومغفرة الله لهم تداوي وتعالج هذه الجروح تمامًا كما يفعل نبات (الغفر) مع جروح الجسد.

• و ما هي المغفرة في حق الله؟

- أما أن يغفر الله لعباده أي أنه (يسترهم) ولا يكشف ذنوبهم في الدنيا، بألا يفضحهم بعد ارتكابهم للمعاصي، وهو قادر على أن يفشي سر كل إنسان، وجعل كل من حوله يعرفون أخطاءه وخباياه وكل ما يرتكبه في السر، بل وكل سوء يدور في خاطره أيضًا..

وفي الآخرة أيضًا، حين تكون الفضيحة على رؤوس الخلائق أجمع، فحينها يغفر الله لعباده المؤمنين بأن يسدل عليهم ستره، ويعاتبهم على ما ارتكبوه دون أن يعرفه غيرهم، عتابًا جميلاً رقيقًا، فيقول رب العزة لعبده: (قد سترتك في الدنيا ولم أفضحك، واليوم أغفرها لك).. ما أجمل هذا الرب!!

- ولله اسمان فيما يخص فعل المغفرة:

الأول: الغفور.. ومعناه الذي يغفر الذنوب (الكبيرة والعظيمة)، أي إنه واسع المغفرة.

الثاني: الغفار.. ومعناه الذي يغفر الذنوب (الكثيرة)، أي إنه كثير ودائم ومتكرر المغفرة.

• بماذا يخبرك الله عن غفرانه؟

1- {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} (سورة النجم الآية 32)، فتلك بشرى عظيمة لكل من يجتهد في تجنب الكبائر والذنوب العظيمة، بينما يقع في الذنوب

الصغيرة التي يلم بها الكثيرون، بأن الله سيحمل عنه، ويجبر نقصه وزلته، ويغفر له الصغائر، والهفوات، والزلات.

2- {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (سورة الزمر الآية 53)، أما هذه الآية فهي طوق النجاة لكل من أسرَف في الذنوب والمعاصي، والغفلات والزلات.. مهما كانت ومهما كان عددها، فكلمة (أسرفوا) هنا تفيد الكثرة الشديدة في ارتكاب الذنوب، فحتى يا بني آدم ولو كنت كثير الذنوب، شديد البعد عن الله، فليس لك غيره أيضًا، لا تخف، ولا تيأس، ولا تعتقد أنه لا مجال للعودة، وأنه قد فات الأوان في يومٍ ما، فالله (يغفر الذنوب جميعًا) مهما كان عددها، و(إنه الغفور) أي يغفر الذنوب الكبيرة مهما كان حجمها، طالما ندمت بصدق، وعدت إليه راجيًا رحمته وغفرانه.

3- {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} (سورة آل عمران الآية 133).. في هذه الآية يخبرك الله كم هو مشتاق إليك أيها التائب المستغفر، بقوله تعالى (وسارعوا) أي إنه يريدك أن تعود له بسرعة، فهو يحبك ويحب أن يغفر لك، ويتوب عليك، وأن يدخلك جناته التي أعدها خصيصًا لك ولعباده إذا اتقوه، وفي الآية أيضًا تنبيه إلى أن عمرك يا ابن آدم قصيرٌ، ونهاية أجلك مجهولة لك، فلا تسوف أو تؤجل أبدًا عودتك لربك، فقد يسبقك القدر، وتندم حين لا ينفع الندم بعدها.

4- {إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ} (سورة طه الآية 82).. في هذه الآية يوجز ربنا (أسباب المغفرة) ليعرفها كل إنسان، ويأخذ بها حين يرجو مغفرة ربه، فإذا أردت أن يقبلك ويغفر لك ما عليك إلا أن تتوب عما تفعل من الذنوب، ثم تؤمن أي تجدد إيمانك وتقويه وتزيد منه، ثم تعمل الصالحات فالحسنات يذهبن السيئات.. هكذا بمنتهى السهولة واليسر، حتى لا يأتي يومٌ ويعتقد أحد أن ذنوبه ومعاصيه ستحول بينه وبين الله، أو أن مغفرة الله بعيدة عليه.

5- {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ..} (سورة عمران الآية 135).. وفي هذه الآية أيضًا أمل جديد لكل من ارتكب ذنبًا كبيرًا، فالآية تقول (فعلوا فاحشة) أي معصية عظيمة، وليست أي معصية، ومع ذلك فغن الله يفتح لهم بابه من جديد، ويدلهم على الطريق إليه، بأن يتذكروا أن لهم ربًا وإلهًا، ويذكروه، ثم يستغفروه عما فعلوا، ولتأكيد قبول الله لهم قال تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله؟) أي إلى من ستذهب يا عبدي دوني؟، فهل يملك أحد أن يغفر لك سواي؟.

وفي الآية أيضًا معنى آخر جميل، فعادة إذا أخطأ البشر خطأ كبيرًا في حق بعضهم، لا ينسون الإساءة والخطأ، مهما مَرَّ من زمن، الناس لا يسامحون، ولا ينسون، ولا يغفرون، بينما ربك وحده هو الذي يفعل (ومن يغفر الذنوب إلا الله؟).

6- {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (سورة المائدة الآية 74)، جاءت بعد الآية {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}، والآية {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}، وهنا تخبرنا الآية أنه حتى من كفروا بالله، وأشركوا به، وادعوا له الولد، وزعموا أنه ثالث ثلاثة -وهي كلها ذنوب عظيمة كبيرة ليس بعدها ذنوب- حتى هؤلاء دعاهم الله إلى التوبة والمغفرة، فيأتي السؤال (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟)، وتذيل الآية بإخبار الله عن نفسه (والله غفور رحيم) زيادة في طمأنتهم أنهم لو عادوا لقبلهم، وغفرَ لهم، ورحمهم.. فمن هذا الذي ييأس من مغفرة الله له بعد كل هذا؟

7- (ذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)، (سورة طه الآية 42، 43)، وهنا أيضًا يأمر الله موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى أكبر مذنبٍ عرَفَته البشرية، فهو لم يخطئ، أو يشرك، أو حتى يكفر.. بل قال ما لم يقُله غيره، قال {أنا رَبُّكُم الأعْلَى} (سورة النازعات الآية 24) و (ما علمت لكم من إله غيري)، فمَن مِنَّا سيكون ذنبه أكبر من ادّعاء الألوهية؟؟، ومع ذلك لم يهمله الله، وأرسل له رسله، وطلب منهم أن يقولوا له قولاً (لينا) ، أي أن يدعوانه بالحسنى، لعلَّه يعود فيقبله الله ويغفر له.

8- الحديث الشريف (قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة).. لا يحتاج الحديث إلى شرح أو تفسير، لا يحتاج منَّا إلا إلى الحمد والشكر أن إلهنا هو هذا الإله الغفور الغفار، الذي يغفر الذنوب ولا يبالي.

9- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما يَئِسَ من رحمته أحدٌ)، وفي رواية أخرى (لم ييأس من الجنة)، فحتى الكافر الذي لم يُؤمِن بالله قَط يقول عنه الرسول عليه الصلاة والسلام أنه لو عرف حجم وقدر مغفرة الله لعباده، ما يئس من أن يسامحه ويغفر له كفره وبعده إذا عاد إليه وآمن به.. حتى الكافر ليس ببعيدٍ عن رحمة الله وغفرانه.

10- الحديث الشريف (حدث أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإني غفرت لفلان، وأحبطت عملك)، وفي هذا الحديث قصة رجل كان يعرف رجلاً عاصيًا مذنبًا خطَّاءً؛ لذا كان يقسم إنه لا يمكن أن يغفر الله له من شدة فجوره وعصيانه، لكن الله أبى ألا يكون واسعَ المغفرة، فغفر لهذا المذنب، وأحبط عمل هذا الذي كان يقسم على عدم غفران الله لعبده العاصي.

11- الحديث الشريف أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: (أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلَّها، فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل من توبة؟، قال عليه الصلاة والسلام: فهل أسلمت؟، قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسول الله، قال: نعم، تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن، قال: وغدراتي وفجراتي؟، قال: نعم، قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى.. في هذا الحديث المأمن لكُلِّ مِنَّا مهما بلغت ذنوبه، فقد أتى رجلٌ كثير الذنوب ليسأل الرسول الكريم، فقال له إنه لم يترك ذنبًا إلا وفعله، ولم يترك خطيئة إلا ووقع فيها، فهل يمكن أن يقبله الله بعد كل هذا؟، فأجابه الرسول بأنه ما مِن مؤمنٍ مُسلمٍ إلا ويقبل الله توبته، ودلَّه على الطريق إلى ذلك بأن يترك المعاصي ثم يفعل الخيرات، فلن يقبل وتكتب له الحسنات حينها فحسب، بل ويبدل الله سيئاته حسنات، فأراد الرجل أن يؤكد على الرسول أن ذنوبه ليست كأي ذنوبٍ، وأراد أن يطمئن إلى أن الله سيغفرها بالرغم من ذلك، فأعاد السؤال (وغدراتي وفجراتي؟)، أي هل سيغفر لي حتى كبائر ما فعلت، فردَّ عليه الرسول عليه الصلاة والسلام بِنَعَمْ، ففرح الرجل وتهللت أساريره واطمأن قلبه فأخذ يُكبِّر حتى اختفى عن العيون.

لذلك فقد قال (ابن العباس): (فمن أيس عباد الله من التوبة بعد ذلك فقد جحد القرآن) ، أي إنه من سيحاول جعل الناس أن ييأسوا من قبول الله لهم بعد كل هذه الآيات الواردة في القرآن، وبعد كل ما أخبر الله عن نفسه وعن واسع مغفرته، فقد جحد القرآن أي لم يؤمن به.

• بشرى لنا ولك:
ديننا الجميل مملوء بالمنح والعطايا التي منحها الله لعباده المؤمنين، حتى يتغمدهم برحمته وغفرانه، فيكافئهم بالأجور الكبيرة على أبسط الأعمال وأهونها وأيسرها، فعلى سبيل المثال لا الحصر:
الحديث الشريف (مَن أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه، ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه).
ثانيًا: اسم الله (العفو):
• ما معنى (العفو)؟
للعفو معانٍ كثيرة في اللغة، منها:
1) (كف الضرر مع القدرة عليه)، فيقال عفا فلانٌ عن فلانٍ فلم يؤذِه مع أنه كان قادرًا على فعل ذلك، كذلك هو (الإعفاء من العقوبة حتى مع استحقاقها) كما يقال (عفوٌ عامٌ عن السجناء) مثلاً.
2) العفو هو (ترك المذنب بدون حتى معاتبته)، فالمعاتبة هي أقل ما يمكن عمله مع الشخص المخطئ، لكن من يعفو حتى لا يعاتب.
3) العفو هو (المحو والطمس)، فليس مجرد تغطية للذنب، وإنما محوه وكأنه لم يكن.
4) العفو هو (محو الذنب مع الإعراض عن المؤاخذة)، وهذا المعنى يشمل المعنيين السابقين معًا.
• ما معنى اسم الله (العفو)؟
العفو في حق الله سبحانه وتعالى تحوي كل ما سبق من معانٍ، فالعفو هو:
- من يصفح عن عباده ويسامحهم على ذنوبهم، حتى دون معاتبتهم عليها.
- من يترك العقوبة على كثيرٍ من الذنوب.
- مَن يضَع عن عباده تبعات خطاياهم، فلا يستوفيها منهم، ولا يقتص منهم الشر بالشر.
• ما الفرق بين (العفو) و(المغفرة)؟
قد يعتقد البعض أن (العفو) أعظم من (المغفرة) لأن فيه محوًا للذنوب، ولكنَّ المفسرين أوضحوا عكس ذلك في تفسيرهم للآية الكريمة (و إن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) 14 التغابن، فقالوا إن هناك تدريجًا في الزيادة من (تعفوا) إلى (تصفحوا) إلى (تغفروا)، فتكون بهذا المغفرة أشد عظمة من الصفح، والذي هو أشد عظمة من العفو، ودعونا نعرف الفرق بين الثلاثة..

1) العفو: هو إعراض عن الذنب والمؤاخذة والتأنيب، وإسقاط العقوبة فقط.
- قد يكون من أي شخص لأي شخص.
- قد يكون قبل العقوبة، أو بعدها كأن يعفى عن السجناء الذين قضوا نصف المدة مثلاً، فهم بهذا نفَّذوا جزءًا من العقوبة.
2) الصفح: هو كل ما سبق بالإضافة إلى فتح (صفحة جديدة) مع المذنب أو المخطئ.
3) المغفرة:
- هي الإعراض عن الذنب، وإسقاط العقوبة، مع غعطاء الثواب أحيانًا.
- لا تكون إلا من الله وحده، كما في الآية الكريمة (ومَن يغفر الذنوب إلا الله)؟
- لا تكون معها عقوبة نهائيًّا.

لهذا فإن للجمع بين اسميّ الله (العفو) و(الغفور) تنوعًا كبيرًا في المعنى، وزيادة في الأمل لكل مَن ظنَّ أن ذنوبه أكبر أو أكثر من أن يتقبله الله بها.
ثالثًا: اسم الله (الشكور)
• ما هو الشكر؟
الشكر هو:
- ظهور أثر نعمة الله على لسان العبد وقلبه وجوارحه.
- هو الاعتراف بنعمة المنعم باللسان والقلب.
- هو الثناء على المحسن.
• وما الفرق بين (الشكر) و(الحمد)؟
الشكر يكون على النعم والعطايا التي يمنحها الرب للعبد، أو على أفعال الرب الجميلة والعظيمة مع العبد، أما الحمد فيكون لله على صفاته الذاتية، وبالتالي فالحمد غير مرتبط بفعل معين أو موقف محدد، وإنما يكون امتنانًا لكون الله على ما هو عليه من صفاتِ جمالٍ وجلالٍ.
• ما معنى اسم الله (الشكور)؟
أما الشكر في حقِّ الله فله الكثير من المعاني الجميلة، التي تزرع التفاؤل والأمل والطمأنينة في قلوب عباده المؤمنين، منها:
- هو من يجازي عباده بالكثير، على ما فعلوه من قليل الأعمال.
- هو من يعطي الحسنات، بل ويضاعفها على يسير الطاعات.
- هو مَن لا يضيع سعي عباده، ويقبل القليل من الأعمال، ويعطي عليها الأجر الكثير.
- هو مَن يُيسر الطاعات على عباده، ويرغب خلقه فيها صغيرها وكبيرها، ويقبل اليسير منها.
والأدلة على ذلك من القرآن والسنة كثيرة، نَذكُر منها على سبيل المثال لا الحصر:
1) الآية الكريمة {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (سورة البقرة الآية 261)، في هذه الآية إقرار صريح بأن الله يضاعف لعباده الحسنة إلى سبعمائة ضعف، بل وأكثر، فالله يضاعف لمن يشاء، كل بحسب ظروفه ونيته.
2) والآية الكريمة أيضًا {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} (سورة الزلزلة الآية 7)، وفي هذه الاية يُطَمْئِن الله عباده أنه لا يضيع عمل عامل منهم، حتى وإن كان بمقدار الذرة، لا ينساه الله ولا يهمله، فهو يشكر لعباده حتى أقل الأعمال وأدقها.
3) الحديث الشريف (لا يحقرن أحدكم شيئًا من المعروف، وإن لم يجد فليلقَ أخاه بوجه طليق)، وهنا يخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أنه لا يوجد معروف لا قيمة له، ولا جزاء عليه، فكل الصالحات يراها الله، ويذكرها، ويشكرها لعباده، حتى وإن كانت مجرد التبسم في وجوه بعضنا البعض، وهو العمل اليسير جدًّا الذي لا يحتاج إلى أي جهدٍ، والذي قد لا يعتد به الكثيرون، ولكنه حتى هذا يشكره الله لعبده ويجازيه عليه.
4) الحديث الشريف (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمَنْ لم يجد فكلمة طيبة).. هل يمكن لصدقة بقدر (نصف تمرة) أن تحمي صاحبها من النار؟.. بالحسابات والمنطق لا، لأنه تكاد تكون بلا ثمن يُذكَر، لكنها عند الله لها وزنها وثمنها وقيمتها؛ لهذا فالرب الشكور قد يباعد بينك وبين النار

والعقوبة بحق صدقة بسيطة صغيرة بحجم نصف تمرة، بينما قد تنساها أنت نفسك ولا تلقي لها بالاً على الإطلاق.
5) والحديث الشريف أيضًا: (مَن تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل).. هل يمكن أن يتخيل أحدُنا أنه بصدقة لا تتجاوز قيمتها بعض الجنيهات أو ربما القروش أنه سيذهب ليجدها يوم القيامة وكأنها جبلٌ من الحسنات؟.. لماذا؟؛ لأن الرب شكور، يقبلها ويشكرها لعبده، فينميها ويربيها عز وجل لصاحبها حتى تكبر، تمامًا كما يربي أحدنا الفرس الصغير حتى يكبر ويصير ضخمًا كبير الحجم.
• لفتة لطيفة:
ومن جميل أفعال الرب الشكور معنا أنه يشكر لنا ويجازينا بالحسنات عندما نحمده ونشكره، في حين أنه هو الذي أنعم علينا بداية، ووفقنا إلى ذكره وحمده وشكره والثناء عليه؛ لهذا قال سيدنا موسى مخاطبًا ربه (كيف أشكرك؟).. لأنه يعرف أن مجرد أن وفَّقَه الله إلى شكره، فهي نعمة في حدِّ ذاتها تحتاج إلى الشكر.
وعندما يتأمل المؤمن هذا الأمر يدرك أنه لا يمكن له أن يوفي الله حقه ، وأن يكافئ شكره؛ لهذا قيل أن (العجز عن الشكر تمام الشكر).
• ما سرُّ الاقتران بين اسم الله (الغفور) و(الشكور)؟
ورد اسم الله (الشكور) بعد اسم الله (الغفور) في القرآن الكريم 3 مرات، في الآيات التالية:
- {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} سورة (فاطر الآية 30).
- {وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} (سورة الشورى الآية 23).
- {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} (سورة فاطر الآية 34)
لكن ترى ما العلاقة بين هذين الاسمين؟.. فسَّر المفسرون ذلك بأنه لا يوجد عمل يعمله أي إنسان إلا وبه نقص، قد يكون في الشكل أو المضمون، قد يكون شابَهُ بعضُ الأخطاء أو التقصير، لكن ولكرم الله وفضله وعفوه أنه يغفر هذا التقصير، ويعفو عن هذا النقص، ثم يقبل العمل من عبده، ليس هذا فحسب، بل ويشكره عليه أيضًا بعد كل ذلك.. ما أجمل وما أرحم وما أكرم هذا الرب!!
رابعًا: اسم الله (البر):
• ما معنى اسم الله البر؟
للاسم معنيان مختلفان، يكمل كل منهما الآخر ويزيده جمالاً..
المعنى الأول: وهو المشتق من البِرّ (بكسر الباء)، والبِرّ هو (اسم جامع لكل معاني الخير)، وعليه فإن اسم الله البر يعني أنه سبحانه وتعالى بار بعباده، أو (هو الذي يبر عباده ويحسن إليهم بجميع الإحسان)، فالبِرُّ هو:
- الرفيق بعباده يريد بهم اليُسر، ولا يريد بهم العسر.
- هو الذي يعفو عن السيئات، ولا يؤاخذ بكل الذنوب، بل يمحو، ويعفو، ويغفر.
- هو الذي يجازي الحَسَنة بعشر أمثالها وأكثر، بينما يجازي السيئة بمثلها فقط.
- هو الذي يجازي على مجرد الهم بالحسنة، فيكتبها حسنةً، حتى ولو لم يفعلها العبد، بينما لا يجازي على الهّم بالسيئة، ويجازي على تركها بحسنة.
- هو الذي بر جميع خلقه، فلم يحرم أحدَهم رزقه، حتى وإن عصاه وكفر به.

أما المعنى الثاني: وهو مشتق من البر (بفتح الباء)، وهي الصحراء الواسعة، وعليه فإن اسم الله البرّ يعني (واسع العطاء، كثير الخير، الذي يسعك بنعمه وعطاياه).

ففي الآيات الكريمة {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} (سورة الطور الآية 27، 28).. توضيح لمدى تقدير العباد لبر الله بهم، الذي فاض عليهم برحمته، ووسعتهم نعمته، فأنقذهم من عذاب جهنم، لا لشيء سوى لأنه هو البر الرحيم سبحانه وتعالى.

• بماذا يفيدني معرفة الله باسمه (البر)؟

عندما يعرف الإنسان أن ربه قال عن نفسه إنه (واسع العطاء) وأنه (يعطي بأكثر بكثير من الأفعال الصالحة التي فعلتها، ومن الأسباب التي أخذت بها)، حينها:

- لن يستصغر من الخير شيئًا، ولن يحقر من المعروف شيئًا.
- لن يتكاسل عن فعل أي معروف، ولن يؤجله أو يسوفه.
- لن ييأس من قبول الله له، ولن يشك في إمكانية أن يرفعه الله، ويتجاوز عن زلاته.

فقط خذ بالأسباب وافعل ما استطعت من الخيرات، فقد يثيبك الله على الحسنة بعشر، أو بسبعمائة، أو ربما بأكثر من ذلك، لكن إن لم تفعل شيئًا على الإطلاق، فماذا ستكون النتيجة؟.. صفرًا بكل أسفٍ، ولا تلومن إلا نفسك حينها.

• من أمثلة الأعمال اليسيرة ذات الثواب العظيم:

وليس بدليل على بِرِّ الله بعباده أكبر من أنه شرع لهم من الأعمال البسيطة، التي لها عظيم الثواب، والتي يستطيع الجميع فعلها بدون استثناء، مثل:

1) ذكر الله (التسبيح والتحميد والتهليل):

كما في الحديث الشريف (في التسبيحة والتحميدة والتهليلة يتعاطفن حول العرش لهن دَويٌّ كدوي النحل يذكرن بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الرحمن ما يذكر به؟)، أي إنه عندما يذكر العبد ربَّه يصعد ذكره هذا ليدور حول العرش، ويكون له صوت كأزيز النحل يذكر الله بصاحب هذا الذِّكر، فأي شيء أعظم من أن يذكرك الله؟، وبماذا؟ بيسير العمل كالذكر الذي لا يعجز أيُّنا عن فعله، وبكثرة إن أراد.

2) طلب العلم (و العلم الشرعي بالأخص):

كما في الحديث الشريف (من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به، وإنه يستغفر لطالب العلم مَن في السماء ومَن في الأرض حتى الحيتان في البحر).. فهل يُعقَل أن يكون ثوابُ طلب العلم بهذا الحجم وهذا الفضل، لولا أن الله بِرٌّ يوسع عباده بعطائه، ويعطيهم من الثواب ما تغرق فيه الأسباب.

3) التحابّ في الله: أي أن يود الناس بعضهم البعض، ولا يجتمعون على شيء سوى على طاعة الله، أو أن يحب أحدهم الآخر لا لشيء إلا إنه يذكره بالله ويقرّبه منه، كما في الحديث الشريف (المتحابون في الله لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء)، وفي الحديث أيضًا (إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي).. فقط لمجرد أن تحب أحدًا في الله تضمن لك منبرًا من نورٍ، يغبطك - أي يحسدك حسدًا محمودًا- عليه النبيون والشهداء، وتأمن من حَر يوم القيامة بظل الرحمن.

4) مشيك في حاجة أخيك:

كما في الحديث الشريف (مَن مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة، وكفَّر عنه سبعين خطيئة، فإن قُضيَتْ حاجته على يديه خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب).. ما أعظم الثواب!!

5) التيسير على معسر:

كما في الحديث الشريف (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه).. أي مَن استطاع أن يدفع دين شخص تعسَّر في رد الدين، أو عفا عنه ولم يطالبه بحقه في رد هذا الدين، آمن منِ كرب وشدة يوم القيامة العصيب.

تلك الأعمال وغيرها الكثير تحثك وتدفعك.. فقط خذ بالسبب وافعل أي شيء، والله (البر) سيسعك بعطائه، وسيكافئك بثواب يغرق فيه هذا السبب، لهذا قيل إن أكثر شيء سيتحسر عليه الناس يوم القيامة هو تركهم للأعمال البسيطة اليسيرة، التي كان في إمكانهم فعلها، عندما يرون ما لها من عظيم الثواب.

ومن هذا ندرك أن العبد المؤمن يجب أن يترك المنافسة مع الآخرين، وليعلَم أن المنافسة الحق هي منافسته مع نفسِه في اغتنام كل لحظة من عمره، ليفعل فيها شيئًا يقرِّبه من الله، ومهما كان بسيطًا أو قليلاً في نظره.

أما وبعد كل ما عرفناه عن ربنا (الغفور) (العفو) (الشكور) (البر).. هل يمكن أن يبقى هناك إنسان واحد يائسًا من رحمة الله وجنته؟

كلمة أخيرة..

إذا شعرت بأنك استفدت ولو بكلمة واحدة من هذا الكتاب، لا تتركه يتوقف عندك.. أعطِه لغيرك أو دله عليه، أو انشر ما به بطريقتك أيًّا كانت، فلعلك تكون السبب في أن يرتاح بال غيرك، وتطمئن نفسه، وينير قلبه بالعلم عن الله دون أن تدري، فيكون ذلك أثقل ما في ميزانك يوم الحساب، كما قال الرسول الكريم (فو الله لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم)..

نبذة عن الكاتبة

د. هبة يس:

كاتب ومحاضر واستشاري صحة نفسية وتنمية ذاتية وعلاقات أسرية، ومقدم فقرات تليفزيونية وإذاعية في نفس المجالات.

• الخبرات العملية:

- أولاً: في مجال الإرشاد والاستشارات:

تقدم الاستشارات النفسية والأسرية، منذ عام 2008م.

- ثانيًا: في مجال الصحافة:

كتبت العديد من المقالات والأعمدة الثابتة في كثير من الصحف المصرية، على سبيل المثال:

• باب (افتح قلبك مع د. هبة يس) الأسبوعي بجريدة (اليوم السابع) لمدة 4سنوات، من 2011 وحتى 2015م.

• باب (هو وهي) بجريدة الوطن، عام 2016م.

• باب (احكي مع د. هبه يس) الشهري بمجلة (كلمتنا) لمدة 4 سنوات، من 2010 وحتى 2014م.

• باب (لست وحدك) الشهري بمجلة (حجاب فاشون) لمدة 5 سنوات، من 2011 وحتى 2016م.

• مقال أسبوعي بمجلة (أخبار الحوادث)، عام 2015م.

- ثالثًا: في مجال الإعلام المرئي:

قدمت العديد من الفقرات الثابتة في كثير من البرامج التليفزيونية على مختلف القنوات الفضائية المصرية والعربية، وعلى قنوات اليوتيوب، على سبيل المثال:

• برنامجها الخاص (قصة فشل) عام 2019، على اليوتيوب.

• برنامجها الخاص (خليك واعي) عام 2017م، على قناتها الرسمية على اليوتيوب.

• فقرة (3 نصائح مع د.هبة يس) ببرنامج (من القلب للقلب) على قناة mbc، لمدة سنتين من 2016 وحتى 2018م.

• فقرة (العلاقات الإنسانية) ببرنامج (ساعة مع شريف) على قناة (المحور)، لمدة سنتين من 2012 وحتى2014م.

• قدمت فقرة (الحب وسنينه) ببرنامج (عز الشباب) على قناة (روتانا مصرية)، لمدة 3 سنوات، من 2011 وحتى 2014م.

• فقرة (الشخصيات الصعبة) ببرنامج (انتي أحلى مع أمينة شلباية) على قناة (صدى البلد)، 2013م.

*قدمت فقرة (عشان حياة أحلى) ببرنامج (آخر موضه) على قناة دريم ، لمدة 3 سنوات، من 2011 وحتى 2013م.

- رابعًا: في مجال الكتابة والإنتاج الأدبي:

صدرَ لها 14 كتابًا حتى الآن:

1) (لا تكره نفسك) عام 2006، " 3 طبعات" .

2) (اكتشف نصفك الآخر) عام 2008، "3 طبعات".
3) (بمذاق العسل) عام 2009، "طبعتان".
4) (أوجاع الستات) عام 2010 م.
5) (أصله ماعداش على مصر) عام 2011 م.
6) (جوزي والشات والبنات) عام 2013م، "طبعتان".
7) (ومِن الحب ما خنق) عام 2014م.
8) (إكس لارج) عام 2015م.
9) (أبواب الله) عام 2017م.
10) (ما لا نقوله عن الحب) عام 2018م.
11) سلسلة قصص الأطفال (وحدي كيف أتصرف؟) عام 2018 م، "طبعتان".
12) (ما لا نعرفه عن الحياة) عام 2019م.
13) (جنة الدنيا) عام 2020م.
14) كتاب لا تخافوا ولا تحزنوا عام 2020 م.

وقد صدر في طبعته الأولى تحت عنوان (أين أنتِ يا راحة البال) عام 2016

للتواصل ولمزيد من المعلومات:

- الصفحة الرسمية على (الفيس بوك): Dr.Heba Yassin
- القناة الرسمية على (اليوتيوب): قناة (د. هبة يس) أو (Hebayassin1)
- الانستجرام: Hebayassin2828
- سناب شات: Hebayassin28
- تيليجرام: عش بسلام مع د.هبة يس.

Notes

[←1]

الراوي: أبو هريرة المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري.

[←2]

الراوي: عبدالله بن عمر المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري.

[←3] الراوي: أنس بن مالك المحدث: الألباني - المصدر: صحيح ابن ماجه.

[←4]

الراوي: أنس بن مالك المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: ٥٢٦٦ خلاصة حكم المحدث: صحيح

[←5]

الراوي: عقبة بن عامر المحدث: ابن باز - المصدر: مجموع فتاوى ابن باز - الصفحة أو الرقم: ٢٥/٣٦٥ خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

[←6]
الراوي: سعد بن أبي وقاص المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٧٠٣٥ خلاصة حكم المحدث: صحيح

[←7]

الراوي: أبو هريرة المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٧٤١١- خلاصة حكم المحدث: [صحيح].

[←8]

الراوي: أنس بن مالك المحدث:الشوكاني - المصدر: نيل الأوطار - الصفحة أو الرقم:٥/٣٣٤ خلاصة حكم المحدث: [روي] نحوه بسند رجاله رجال الصحيح.